منهج الإسلام

في بناء المجتمع

تأليف

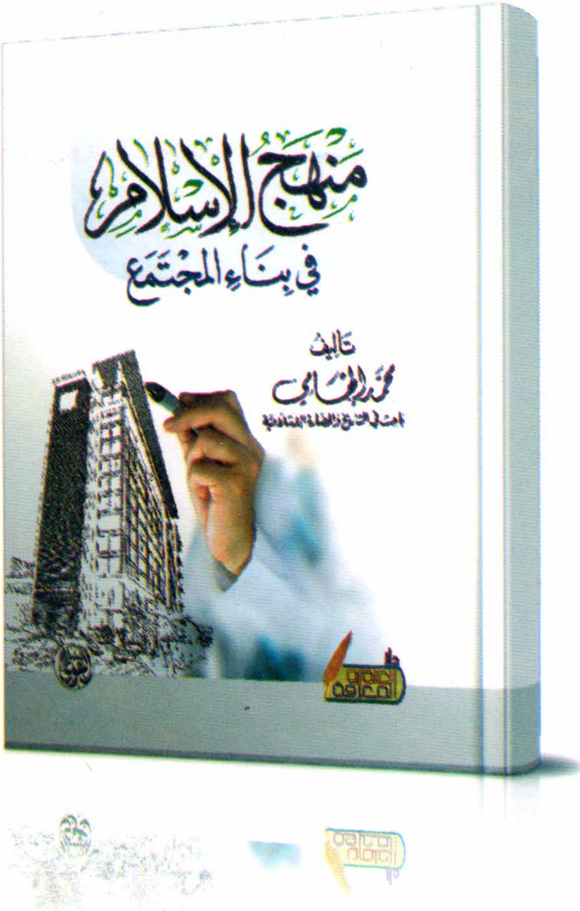
محمد إلهامي

باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية



التقوى

دار العلم والمعرفة



منهج الإسلام - محمد إلهامى

6 222010 990940

مَنهَجُ الإِسلام

في بِنَاءِ المجْتمَع

اسم الكتاب :	منهج الإسلام في بناء المجتمع
تأليف :	محمد إلهامي
القطع :	١٧ × ٢٤ سم
عدد الصفحات :	٢٨٨ صفحة
سنة الطبع :	١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م (طبعة جديدة)
الناشر :	دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع
طباعة :	دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع

رقم الإيداع القانوني
2015/14891
الترقيم الدولي: 4-290-429-977-978

دار التقوى
للطبع والنشر والتوزيع

٨ ش البيطار - خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤١٧٠٤ / ٤٤٧١٥٥٠٦ / ٠٠٢٠٢ ٠١٠٠٠١٥٩٢٢٧١
E-mail: dar-altakoa@hotmail.com
altakoabook@hotmail.com

مَنهجُ الإسلام
في بناءِ المجتمع

كيف صاغ الإسلام مكونات المجتمع في بناء منسجم منتظم؟
ولماذا ضعفنا وكيف نعود؟

تأليف
محمد الهامي
باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية

دار التقوى

بسم الله الرحمن الرحيم

المُحتَوَيَاتْ

المحتويات

مقدمة ٩

الملامح العامة للكتاب ١٥

الباب الأول: الإنسانية الشقية الحائرة ٢١

* الفصل الأول: الإنسانية في جحيم ٢٥

عالم المظالم ٢٦

وحش الجريمة ٣١

درك الشهوات ٣٨

معاناة العالم الإسلامي ٤١

* الفصل الثاني: محاولات الخروج ٤٧

أحلام المدينة الفاضلة ٤٨

فلسفة المسئولية في المناهج الوضعية ٥٦

خلاصة الباب الأول ٦٣

الباب الثاني: المنهج الإسلامي ٦٥

* الفصل الأول: الأساس العقدي ٧١

معنى «لا إله إلا الله» وآثارها ٧٢

الاستخلاف في الأرض ٧٦

* الفصل الثاني: التكليف الفردي ٨٥
عموم المسئولية ٨٧
استقلال الشخصية المسلمة ٩٣
التكوين الأخلاقي للمسلم ٩٧
التكليفات المتكاملة ١٠٣
حرمة اليأس ١٠٧
* الفصل الثالث: النظام العام ١١٣
طبيعة السلطة ١١٥
تقوية روابط الأمة ١٢٢
السلطة الحافزة والأمة الفاعلة ١٣٨
* الفصل الرابع: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٤٣
المسئولية الشاملة ١٤٥
ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٥٦
* الفصل الخامس: الإنجاز الإسلامي ١٦٣
قوة الإنجاز ١٦٤
شذرات تاريخية ١٧١
نماذج فارقة في لحظات فاصلة ١٨١
خلاصة ١٨٧
الباب الثالث: نكبة «خير الأمم» ١٨٨
* الفصل الأول: موجز قصة النكبة ١٩٢

تاريخ النكبة ١٩٤

فوارق رئيسية بين الشرق والغرب ١٩٩

* الفصل الثاني: أخذوا أفضل ما عندنا ٢٠٥

التحرر من سلطتي الكنيسة والإقطاع ٢٠٦

تقوية المجتمع ٢٠٩

تكوين «أمة واحدة» ٢١٣

* الفصل الثالث: تركوا أسوأ ما عندهم ٢١٧

القوميات بديلاً عن «الأمة الواحدة» ٢١٩

العلمانية ونظام الدولة المركزية ٢٢٤

النزعة الفردية ٢٢٩

خلاصة ٢٣٦

خاتمة ٢٣٨

الملحقات ٢٤٧

مقال: أخلاق المسلمين بأقلام المؤرخين الغربيين ٢٤٩

المراجع والمصادر ٢٦٥

مُقَدِّمَة

مُقَدِّمَة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ومن والاه، وبعد:

لا يزال المرء يتعلم ويستزيد من طلب العلم، فلا يزيده العلم إلا يقينًا بعظمة هذا الدين وبحكمة الله رب العالمين، العليم الحكيم.

يقف الإنسان بعد كل بحثٍ وقد ازداد إيمانًا بأن هذا الدين هو رسالة الله للعالمين، فيه فلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وأنهم بحسب ما يعطونه من أنفسهم بحسب ما يعطيهم من خيره، فإن الله أغنى الناس عن خلقه، وإن هذا الدين عزيز، ومهما ابتغى الإنسان سعادة في غير طريق الله صدق عليه قول الله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]؛ حتى إذا بلغ اليأس وعاد إلى طريق الله وجد الحياة الطيبة: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، وكل هذا في الدنيا وحدها، ويبقى جزاء الآخرة شأنًا آخر.

إن موضوع هذا البحث فرع من السؤال الكبير: «ما الذي يقدمه الإسلام للعالم؟»، وفيه يكفي أن نقول: إنه يقدم للعالم جيش الإصلاح وكتائب الإنقاذ، يقدمهم مدربين أكفاء في أنفسهم، كما يقدمهم منظمين متعاونين مع بعضهم، فيسلكون في مهمة إنقاذ البشر أيسر سبيل وأسرعه وأقومه وأجوده وأفضله وأحسنه وأجمله.

إن مناهج البشر وفلسفاتهم -كما سنرى- قَصَرَتْ عطاءها واهتمامها على شريحة ضيقة من الناس، بينما الإسلام أيقظ الناس كل الناس، وبعثهم ليحملوا جميعًا هَمَّ هذه الإنسانية، فليس في الإسلام عاطل أو مُهمَل أو مُهدَر، بل كل الناس راعٍ وكلهم مسئول عن رعيته ومهمته، كلٌّ بحسب ما أوتي من الوسع والطاقة والعلم

والمواهب، وبحسب المدى والمجال الذي يمكنه التأثير فيه.

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة والسطحية، إن الإسلام لا يأمر الناس بالانبعاث واستشعار المسئولية وتحمُّل الأمانة هكذا دفعة واحدة، إنما هو يُنْشِئهم نشأة جديدة، نشأة جديدة في أنفسهم: عقائدهم وتصوراتهم وأخلاقهم، ونشأة جديدة في حياتهم: علاقاتهم واقتصادهم واجتماعهم وسياستهم.

إن الإسلام أنشأ فردًا يستشعر المسئولية، ويحمل أمانة إصلاح العالم وهداية الإنسانية وإعمار الأرض، أنشأه كذلك منذ اللحظة الأولى: لحظة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، إن لهذه العقيدة تطبيقات في الوعي والتصوُّر والحركة والأخلاق والغاية النهائية، ثم سَعَى في تكوين هذه الشخصية لتتمتع بالصفات المؤهلة لخوض هذه المهمة.

وأنشأ الإسلام كذلك مجتمعًا بطبيعة خاصة، مجتمعًا تهيمن عليه سيادة الإسلام، فالحاكم والمحكوم معًا يعملان لهدف رفعة الدين؛ فلا يستعمل بعضهم بعضًا ولا يستبد بعضهم على بعض.

ولا يجوز للحاكم أن يظلم كما لا يجوز للمحكوم أن يسكت على الظُّلم، يختار المجتمع أفضل مَن فيه ليحكمه بكتاب الله وسنة نبيه، وله عليه حق الرقابة والتقويم والعزل، كما على الحاكم أن يحرس الدِّين ويسوس الدنيا به، لا تتعدَى صلاحيات الحاكم لتتدخل في دواخل الناس وتنتهك حُرماتهم أو تعوق انطلاقتهم في الخير، كما أن الناس يستقيمون لمن اختاروه ما استقام على الجادة وأقام فيهم العدل وعمل فيهم بشريعة الله.

لقد أنشأ الإسلام فردًا مستشعرًا للمسئولية، متحملاً للأمانة، مؤهلاً للمهمة، وأنشأ مجتمعًا مرنًا مستعدًا للإصلاح ومتهيِّئًا له، لهذا تؤتي مجهودات الإصلاح ثمارها بأكثر وأجود ما يكون.

على هذا النحو سارت هذه الدراسة؛ تنظر في كيفية بعث الإسلام لهذه الأمة، في كيفية صناعة البشر، في كيفية تنظيم المجتمعات، وأحسب أن ما كُتِب فيها جديدٌ لم يُكْتَب مثله فيما سبق على حد ما أعلم، وليس نصيبي من الجديد إلا الترتيب والتكوين وجمع شتات الموضوعات في بنيان متسق، ولست أدعي أني أتيت بما لم يأت به الأوائل، فما بلغت بعد أن أكون طالب علم، أسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا، بل أقول: إنما أحسب أن الله فتح عليَّ في رسم صورة الموضوع بأمر لم أعرف أحدًا وضعه به، والله أعلم.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يُثيبني عليه في الدنيا والآخرة، وأن يجعلني دائمًا من المخلصين.

وما كان في هذا الكتاب من توفيق فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ أو سهو أو نسيان فمني ومن الشيطان، وأسأل الله أن يجبر العثرات ويغفر الزلات ويتوب عن السيئات.

محمد إلهامي

القاهرة – إبريل ٢٠١٣م

الملامح العامة للكتاب

وُضِعت خطة الكتاب على هذا النحو:

الباب الأول: صيحة تنبيه وتحذير.

والباب الثاني: شرح لمنهج الإسلام في العلاج كما جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكما عمل به السلف الصالح والأجيال السعيدة في وقت عزة الإسلام.

والباب الثالث: شرح لموضع الخلل من أين جاء، وكيف بلغ منا هذا المبلغ.

ثم خاتمة تبعث على البشر والتفاؤل، وتُنَبِّه إلى مواطن الأمل.

تحدث **الباب الأول** عن «**الإنسانية الشقية الحائرة**»، وكيف أن هذا العالم تجتاحه المظالم والجرائم والشهوات، وكيف يعيش تعاسة غير مسبوقة رغم ما يبدو من رفاهة ورخاء في بعض البلدان، ثم استعرضنا كيف أن هذه الآثار والمصائب تصل إلينا في بلادنا، وتصيبنا بشرورها بما لا يجيز لنا السكوت عنها، أو تجاوزها؛ بل يفرض علينا البحث عن حل وعلاج لها.. **فكان هذا هو الفصل الأول** الذي يحقق الشق الأول من عنوان الباب وهو: «الإنسانية الشقية».

ثم استعرضنا في الفصل الثاني كيف انقدحت قرائح العقول وضلَّت مساربها في البحث عن حل لمشكلات الإنسانية، فطُفنا شرقًا وغربًا بين الفلسفات والمناهج الوضعية، مع التركيز على قضية «المسئولية في المناهج الوضعية»، فوجدنا فكر البشر -مهما حلَّق في آفاق الخيال ورسم لنفسه مدنًا فاضلة- كسيحًا مهزومًا على أرض الواقع، ووجدنا قضية المسئولية تائهة ضائعة أو منصرفة إلى قلة من الناس دون

الآخرين؛ وبهذا الفصل يتحقق الشق الثاني من عنوان الباب «الإنسانية الحائرة».

ثم جاء **الباب الثاني** ليشرح «**المنهج الإسلامي**»، ويظهر كيف أن الإسلام جَيَّش كل النفوس لتشعر المسئولية، وتحمل الأمانة في إنقاذ العالم وإعمار الأرض، فكان الباب في خمسة فصول:

الفصل الأول: يشرح الأساس العقدي الذي يهيمن على الفرد والمجتمع، ويمثل المنبع الأصلي والمادة الخام التي ينطلق منها المسلم والأمة في تحمل هذه المسئولية.

والفصل الثاني: يشرح التكليفات الفردية للمسلم وكيف ينشئه الإسلام متحملا للأمانة منبعثًا للعمل.

والفصل الثالث: يشرح النظام العام في الدولة والمجتمع وكيف يصنع الإسلام نظامًا مهيئًا للإصلاح في ذاته، ومتحملاً لأمانة إصلاح غيره من العالمين.

والفصل الرابع: يشرح هذا الانفراد الإسلامي من بين كل المناهج الأخرى، وهو فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي لم تهتد إليها فلسفة ولم ينطق بها فيلسوف، وكيف أنها تمثل نظام الحماية الشاملة للأمة، وكيف كانت الأمة بها خير أمة بين العالمين.

وأما الفصل الخامس: فقد استهدف إثبات أن هذا المنهج الإسلامي لم يكن نظريًا فقط؛ بل طبق على أرض الواقع، فكان فصلاً يقلب بين صفحات التاريخ ويلتقط منها ما يثبت الفكرة ويرشد إلى القدوة.

ثم جاء **الباب الثالث** ليشرح «**نكبة خير الأمم**»، ويصف كيف وصلت الأمة إلى هذه الهاوية، وكيف أثرت فيها سنوات الاحتلال والاستبداد؛ حتى أورثتها هذا الحصاد المرَّ، فكان الباب في ثلاثة فصول:

الفصل الأول يحكي كيف جاء الاحتلال وأقام هذه الحقبة بين أظهرنا.

والفصل الثاني يحكي كيف استفادوا منا وأخذوا أفضل ما عندنا.

والفصل الثالث يحكي كيف وضعوا في بلادنا أسوأ ما عندهم، وكل هذا من زاوية موضوع البحث، وهي قضية استشعار المسئولية.

ووضعت عقب كل باب خلاصته؛ لكي لا يُنسي الكلام بعضه بعضًا، فيحتفظ القارئ بمسار الحديث؛ فلا تفلت منه غايته ولا يتوه في مساربه.

وقد ألزمت نفسي في الكتاب بأمور:

١ . اعتمدت في الاستدلال أول شيء على القرآن الكريم وتفاسيره، واقتصرت على تفاسير أهل السنة إلا نادرًا، مع الميل إلى التفاسير التي اهتمت بالمأثور كالطبري والبغوي وأبي حيان والقرطبي وابن كثير والقاسمي والسعدي ومن على هذه الشاكلة.

٢ . وأوردت الأحاديث الصحيحة وما في حكمها فقط، فما كان في البخاري أو مسلم فقد وثقته منهما فحسب، وما كان عند أهل السنن والمسانيد فقد اهتممت بنقل أحكام العلماء عليهما بالصحة أو الحسن، لا سيما بأحكام الشيخ شعيب الأرناءوط على مسند الإمام أحمد، والشيخ الألباني على أحاديث أهل السنن وكتبه: كالسلسلة الصحيحة، وصحيح الجامع وصحيح الترغيب والترهيب.

فإذا قلت: «قال شعيب الأرناءوط» فمعناه أن الشيخ قال هذا في تحقيقه للمسند، وإذا ذكرت «صححه الألباني» عقب «رواه أبو داود أو الترمذي أو ابن ماجه» فالمقصود هو تصحيحه في هذه الكتب، وإلا ذكرت اسم الكتاب مثل السلسلة الصحيحة أو صحيح الجامع.. وهكذا.

٣ . وأما بالنسبة لشروح الحديث فقد توخينا الشروح الشهيرة التي تلقتها الأمة بالقبول؛ كفتح الباري لابن حجر، وشرح النووي لصحيح مسلم، ومعالم السنن

للخطابي، وشرح مشكل الآثار للطحاوي، والتمهيد لابن عبد البر.. وهكذا.

٤. واهتممت بتوثيق الروايات التاريخية الصحيحة؛ فلهذا قد أنقل الواقعة عن أصح طرقها ما استطعت، أو قد أنقلها عن المصدر المتقدم ثم أتبعها بنقل عن مصدر متأخر إن كان صاحبه من المحدِّثين كالذهبي وابن كثير وابن حجر؛ فإن ذِكْر هؤلاء للروايات –بما لهم من ضلوع في علم الحديث ورجاله وأسانيده– فيه قبول بها وإن تساهلوا في ذلك، أو من المعاصرين الذين حققوا الروايات التاريخية على منهج المحدِّثين مثل د. أكرم العمري في «السيرة النبوية الصحيحة»، و«عصر الخلافة الراشدة» وغيره، ومحمد بن طاهر البرزنجي صاحب موسوعة «صحيح وضعيف تاريخ الطبري»، وأحمد عادل كمال صاحب سلسلة «استراتيجية الفتوح الإسلامية».. وهكذا.

٥. وحاولت قدر الوسع توثيق الأقوال والنقولات من كتب أصحابها مباشرة، إلا ما لم أستطع الوصول إلى مصدره فنقلته عن مصدر وسيط، وهو لا يزيد عن موضعين.

٦. ونقلت عن المصادر المتخصصة كل في مجاله، فنقلت في الفقه من كتب الفقه، وفي الحديث من كتب الحديث، وفي الأخلاق والرقائق من كتب الأخلاق والرقائق، وفي الفلسفة الغربية من كتب الفلسفة الغربية، وفي الإحصائيات من المصادر الدولية المعتمدة كتقارير الأمم المتحدة، والأخبار من المصادر المحلية، وهكذا.

٧. ثم وضعت ثبتًا بقائمة المصادر مرتبة بالحروف الأبجدية لسهولة الوصول إليها.

٨. ووضعت بعض الأشكال والخرائط التوضيحية لمزيد من تيسير المعلومة المكتوبة.

ثم يبقى الكتاب بعد هذا كما قال الأصبهاني: «لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غَدِه: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل .. وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جُملة البشر».

الباب الأول

الإنسانية الشقية الحائرة

الباب الأول

الإنسانية الشقية الحائرة

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

لا تزال البشرية تعاني وتقتلها الأمراض المادية كما تقتلها جرائم بني الإنسان، لم يُحدث التقدم العلمي ولا النظريات الفكرية أثرًا كبيرًا في رفع المعاناة عن الناس، على ما حققته علوم الاجتماع والاقتصاد والنفس والجريمة والعقاب من تقدم، وذلك على الرغم مما أنشأته الدول من منظمات عالمية تحت عنوان الدفاع عن الحقوق.

بل لقد تحول ذلك التقدم العلمي إلى عنوان على تعاسة البشرية بما أنتجه من أسلحة مدمرة، وتحول التقدم الاقتصادي إلى علم في استنزاف الدول والشعوب وإفقارها وجعلها رهينة للدول الكبرى، وكذا تحولت علوم النفس إلى علم السيطرة على الشعوب وخداعها إعلاميا وسياسيًّا، بل إن المنظمات الإنسانية ذاتها تحولت إلى رهينة في أيدي الجبابرة أصحاب الأموال والنفوذ(١) فيكون غاية ما تفعل -إن فعلت- حين ترصد قضية ليست على هوى الممولين أن ترصد الأرقام فتتحول

---

(١) أوقفت أمريكا دفع حصتها البالغة ٢٢٪ إلى اليونسكو حين وافقت على عضوية فلسطين بها (سي إن إن العربية ٣٠/ ١١/ ٢٠١١م)، وتابعتها دول أخرى حتى فقدت المنظمة ٣٠٪ من تمويلها السنوي، رغم أنه مكسب ضئيل للغاية لا أثر له عمليًا، مما تسبب في أزمة بالغة للمنظمة. ولك أن تتخيل سلوك منظمة مثل هيومان رايتس ووتش تتلقى -باعترافها على موقعها- ٧٥٪ من أمريكا الشمالية و٢٤٪ من أوروبا الغربية وأقل من ١٪ من باقي الدول.

المآسي إلى مجرد عدد من الحالات، وتظل المأساة هي المأساة..

فالإنسان الشقي ما يزال حائرا!! وضع نفسه في هذا الجحيم وما زال يبحث عن سبيل النجاة.

جاء هذا الباب - في مقدمة البحث- تنبيها وإيقاظا إلى الوضع الكارثي الذي يستوجب اليقظة واستشعار المسئولية ومقاومة الباطل، وقُسم إلى فصلين:

- الفصل الأول: الإنسانية في جحيم.
- الفصل الثاني: محاولات الخروج.

الفصل الأول

الإنسانية في جحيم

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

ليس من أحد يطالع ما يحدث في العالم إلا ويصيبه الكآبة من هذا المشهد الإنساني المخيف..

فإذا نظرنا إلى العالم كله وجدنا دولا يأكل القوي فيها الضعيف فيحتلبه اقتصاديًّا وسياسيًّا أو يحتله ويقهره عسكريًّا أو يغزوه ثقافيًّا وفكريًّا ويفرض عليه أفكاره وقيمه.

وإذا نظرنا إلى المجتمعات سنجد الإنسان -لا سيما في ذلك العالم الموصوف بالمتقدم- هو الأكثر معاناة من بين بني البشر، إن معدلات الجريمة تبلغ أعلى مستوياتها، والضحية هي الشرائح والطبقات الأضعف مثل المرأة والطفل والعمال والأقليات، فلا يأمن أحد على نفسه من عصابات الجريمة المنظمة التي بلغ بعضها أن يكون منظمات لها أذرع نافذة في السلطات التنفيذية والقضائية تمنع الاقتراب منها بسوء، وهناك يسيطر رجال الأعمال على عالم الاقتصاد؛ ومِن ثَمَّ على عالم السياسة حتى صارت المجتمعات والدول رهينة بإمبراطورية رجال الأعمال في نوع من الجرائم الناعمة، التي تسحق البشر دون أن يشعر بها أحد.

ثم إذا انتهينا إلى الإنسان نفسه، وجدناه قد هوى في درك الشهوات، فالفقير يريد أن ينسى ويُصَرِّف همه، والغني يريد أن يتمتع ويلتذ كما يريد أن يهرب من عنف الحياة الطاحنة وهدير معركتها الدامية، فمن لم يجد سلواه في الخمر ففي الجنس، ومن لم يجده في الجنس ففي الشذوذ، ومن لم يجده في هذا ففي الرقص والطرب،

ثم لا يغني عنه كل هذا شيئًا، وقد يقرر أن ينتحر!

والعالم الإسلامي -وهو في قلب العالم- ليس بعيدا عن هذه المأساة، بل ضربته -أيضًا- موجات الظلم والجريمة والشهوات حتى عاد على غير الوجه الذي يرضاه الله ورسوله، فهو -أيضًا- يذوق الفساد بما كسبت يداه، ويعاني من حصاد ما غَرَسَه وما غُرِس فيه.

في هذا الفصل نلقي ضوءًا سريعًا بارقًا على المأساة الإنسانية عبر أربعة مباحث:

- المبحث الأول: عالم المظالم
- المبحث الثاني: وحش الجريمة
- المبحث الثالث: درك الشهوات
- المبحث الرابع: معاناة العالم الإسلامي

عالم المظالم

على الرغم من كل الشعارات الإنسانية المرفوعة؛ فإن العالم ما زال يشهد الدول الكبرى وهي تفترس الدول الضعيفة وتختلق المبررات لذلك.

وقد بزغ المبرر الأمني وشعار «الحرب على الإرهاب» مع بزوغ هذه الألفية الثالثة من بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حتى صارت تهمة «الإرهاب» كالماء السائل لا تعريف لها ولا تحديد ولا معالم، تهمة تُطلق على أي كيان أو دولة؛ ليكون تمهيدًا لدق طبول الحرب، وسوق الجيوش للغزو والاحتلال.

وهذا المبرر الأمني هو الغطاء للدوافع الدينية والاقتصادية والفكرية، فصار مشهد العالم دولًا قوية تسيطر على الدول الضعيفة بالسلاح أو بالنفوذ.

وفي العشر سنوات الأخيرة (٢٠٠٠ - ٢٠١٠) وحدها نشبت خمس حروب بدعوى الإرهاب: أفغانستان والعراق ولبنان وغزة والصومال، بخلاف قصف متقطع للسودان واليمن وباكستان، أزهقت فيها ملايين الأرواح وهلكت فيها تريليونات الدولارات وتخلفت البلدان عقودًا أو حتى قرونًا.

وسرت في العالم كله موجة من الاضطهاد الدِّيني والعِرقي والسياسي، فكل حكومة اتخذت من الإرهاب عنوانًا تقاتل به مَن لا ترضَى عنه من شعوبها.

فإذا لم تكن حرب السلاح فهي الهيمنة الاقتصادية؛ إذ لكل بلد كبير منطقة نفوذ من البلدان الضعيفة تعامله معاملة التابع في السيطرة واستنزاف الثروات، وقد صُمِّم النظام الاقتصادي العالمي بحيث يكون سجنًا محكمًا لموارد الدول الضعيفة، والسجَّان هو تلك المنظمات الاقتصادية الدولية.

بل اعترف أحد مخططي هذه المنظومة بأنها عملية «الاغتيال الاقتصادي

للأمم»[١]، حيث توفر الدولة لمواطنيها البيت والسيارة والطعام والملابس والكهرباء والرعاية الصحية بعد أن صنعت عالمًا يموت فيه أربعة وعشرون ألف شخص يوميًّا من الجوع[٢].

وحين يتقاتل الأقوياء بعضهم مع بعض فإن من يدفع الثمن إنما هي الشعوب الضعيفة المسحوقة، وقد عاش العالم نصف قرن في ظلال الحرب الباردة؛ حيث دفع العرب والمسلمون والفيتناميون والكوبيون والنيكاراجويون وغيرهم ثمن الصراع الأمريكي السوفيتي.

ولم تنته المأساة الإنسانية بانتهاء الشيوعية، بل في لحظة كتابة هذه السطور يقدم الشعب السوري أكثر من مائة شهيد يوميًّا مع آلاف الجرحى ومليارات الخسائر ثمنًا لتضارب مصالح الأمريكان مع مصالح الروس والصينيين[٣]، والشعوب التي لم تدفع من دمائها دفعت من ثرواتها واقتصادها كما دفعت من حريتها واستقلالها.

ولأن الظلم طبيعة للسلطة الفاسدة؛ فهو يصدر منها في كل الأحوال، في أيام المواجهة كما في أيام الرخاء، ويصدر منها تجاه العدو الخارجي كما تجاه شعوبها في الداخل، بل غالبًا ما تكون ظلال المواجهة سببًا في «الأعمال الإجرامية خارجيًّا، وتكريس الامتيازات وتقوية قبضة السلطة داخليًّا... تحت دعاوى حماية الأمن القومي من تهديد العدو البربري الخطير»[٤].

---

(١) هذا هو عنوان كتاب الخبير الاقتصادي جون بركنز الذي كان أحد القائمين على عملية إفلاس الدول عبر المنظومة الاقتصادية العالمية.

(٢) جون بركنز: الاغتيال الاقتصادي للأمم ص٢٤١.

(٣) وإن كنا نحسب أنه ليس تناقضًا بقدر ما هو اتفاق بينهم على تصفية الثورة السورية الأسطورية، التي لم يعد يخفى أنها إسلامية خالصة، ولكن المقام هنا مقام رصد الظواهر، ويظل مقام التحليل والبحث في الخفايا غير هذا المقام.

(٤) ناعوم تشومسكي: النظام العالمي ص٦.

فإذا تركنا عالم السياسة إلى الاقتصاد فسنرى أن مجهود الطبقات الفقيرة يرثه الأغنياء، كما أن أخطاء الأغنياء وحماقاتهم لا يدفع ثمنها إلا الطبقات الفقيرة، فازدهار الاقتصاد وارتفاع أرباح الشركة لا تنعكس على العمال والفقراء، في حين أنهم المتضررون من انهيار الاقتصاد وتراجع الأرباح.

يقول ألان جريسبان الرئيس السابق للمصرف المركزي الأمريكي: «إن تزايد النمو كان في مصلحة الفئات ذات الدخول العالية في المقام الأول، أما العمال الذين يحصلون على دخول لا تزيد على المتوسط المتعارف عليه فإنهم في وضع لا يُحسدون عليه أبدًا»(١).

ومهما تكلم أصحاب الاقتصاد الحر والمذهب الليبرالي والنيوليبرالي(٢) عن معدل النمو العالمي فستظل أرقامهم خادعة؛ لأن «هذا المعيار لا يأخذ بعين الاعتبار عدد البشر الذين يتقاسمون هذا الناتج. من هنا فإن النمو الذي طرأ سنويًّا على حصة الفرد الواحد من الناتج العالمي هو المقياس الأفضل لمعرفة مدى نجاح الاقتصاد العالمي... لكن معدل نمو حصة الفرد الواحد من الناتج العالمي قد فقد نصف قيمته... وإذا كانت حصة الفرد الواحد في الولايات المتحدة وفي أكثرية دول أوروبا الغربية واظبت على تحقيق معدلات نمو سنوية متراجعة، فإن هذه الحصة سجلت ركودًا بيِّنًا في إفريقيا وفي كثير من دول أمريكا الجنوبية، وإن كان إقليم شرق آسيا قد استطاع أن يسجل نجاحًا باهرًا في أول الأمر، لكن هذه المكاسب قوضتها لاحقًا الأزمات الوخيمة التي عصفت باقتصاديات هذا الإقليم»(٣).

في أمريكا ذهبت ٩٧٪ من الزيادة في الدخل لأغنى ٢٠٪ من العائلات خلال

---

(١) أولريش شيفر: انهيار الرأسمالية ص٣١١.

(٢) وهي المذاهب المغرقة في سياسة فتح الأسواق باعتبارها أفضل طريقة لنمو الاقتصاد العالمي، وما هي إلا وسيلة لاستنزاف الدول الكبرى لثروات البلدان النامية والفقيرة.

(٣) هورست أفهيلد: اقتصاد يغدق فقرا ص٢٧٨، ٢٧٩.

العشرين سنة الأخيرة، وهناك نحو ٣٦.٥ مليون أمريكي يعيشون حياة فقيرة، يمتلك أغنى واحد بالمائة ٤٠٪ من ثروة البلاد، معدل البطالة في أمريكا ٥.٤٪ ولكنه في بعض المحميات الأمريكية[1] يصل إلى ٧٠٪ ومعدل البطالة في المناطق الريفية المنعزلة في أمريكا يبلغ ضعفي أو أربعة أضعاف هذه النسبة، ولا يستفيد من منح البطالة إلا ٣٩٪ من العاطلين، وإن ازدياد الفجوة بين الأغنياء والفقراء سيجعل قادة الغد هم بالضرورة أبناء أغنياء اليوم، وهو أمر سخيف تمامًا كالقول بأنه ينبغي أن نختار فريق أوليمبياد عام ٢٠٢٠ من أبناء الفائزين في أولمبياد ٢٠٠٠م[2].

وليس ضروريًّا أن يضحي أصحاب الشركات بالعمَّال؛ لأن الأرباح تتراجع، بل يمكن اتخاذ قرار تسريح الآلاف ببساطة حين يظهر عمال آخرون أقل كلفة، فشركة نوكيا (Nokia) المنتجة للهواتف المحمولة أغلقت مصانعها في مدينة بوخوم الألمانية بين ليلة وضحاها على الرغم من أنها حققت ربحًا زاد على السبعة مليارات يورو، فخسر ٢٣٠٠ عامل فرص عملهم لا لشيء إلا لأن الشركة فضَّلت نقل الإنتاج إلى رومانيا؛ حيث الأجور أدنى، وألغت شركة بي إم دبليو (BMW) ثلاثة آلاف فرصة عمل وسرحت خمسة آلاف عامل، وبرَّر رئيس شركة سيمينز (Siemens) التخلص من ٦٤٠٠ وظيفة بحجة مفادها أن الشركة قررت التخلص من «طبقة الوحل» المتراكمة لديها[3].

وخلاصة المشهد العالمي: الظلم منتشر بين الدول، وداخل الدول أيضًا! حتى ليكاد يصدق فيه قول المتنبي:

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ ... ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظْلِمُ

---

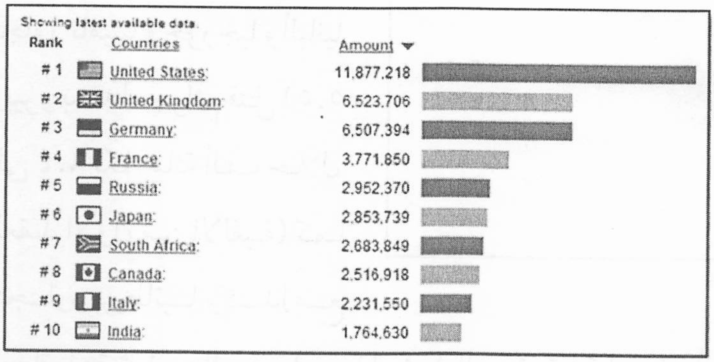
(١) المحميات: مساحات من الأرض مخصصة في أمريكا الشمالية للهنود الحمر وفي أستراليا للسكان الأصليين – د. صدقي حطاب مترجم «السيطرة الصامتة».

(٢) نورينا هيرتس: السيطرة الصامتة ص٥٦، ٥٧.

(٣) أولريش شيفر: انهيار الرأسمالية ص١٦، ١٧.

وحش الجريمة

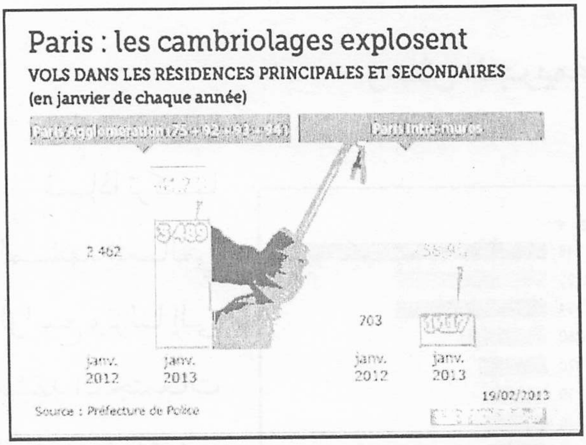
فـــإذا تركنـــا المــشهد العــالمي الواسع ونزلنا إلى مشهد المجتمعات فسيصدمنا ما تزخر به المجتمعات من جرائم بين النـاس، ولا يُستثنى من هذا دولة متقدمة عن دولة متخلفة، بل يتجاور الجميع على مائدة الفريسة لهذا الوحش.


Showing latest available data.

Rank	Countries	Amount
# 1	United States:	11,877,218
# 2	United Kingdom:	6,523,706
# 3	Germany:	6,507,394
# 4	France:	3,771,850
# 5	Russia:	2,952,370
# 6	Japan:	2,853,739
# 7	South Africa:	2,683,849
# 8	Canada:	2,516,918
# 9	Italy:	2,231,550
# 10	India:	1,764,630

وفي جملة الجرائم تتصدر الدول المتقدمة إحصائيات العالم في انتشار الجريمة، فتأتي أمريكا في الصدارة بنحو ١٢ مليون جريمة، ثم تأتي بعدها بريطانيا وألمانيا وفرنسا وروسيا واليابان وجنوب إفريقيا وكندا وإيطاليا والهند (الهند بمليون وأكثر من سبعمائة وستين مليون جريمة) بهذا الترتيب[١]. ويوحي هذا التقرير بأن تقدم الدول صناعيًّا واقتصاديًّا لم يحمها من الجرائم، ولكن قد يُجادَل بأن هذه الإحصائيات غير دقيقة لافتقاد الأرقام والإحصائيات في الدول المتخلفة، وأيا ما كان الأمر، فالشاهد أن العالم كله يعيش في ظلال الجريمة.

(١) http://www.mapsofworld.com, www.nationmaster.com



ولا يختلف الأمر في حال التفصيل؛ ففي جرائم القتل سنرى أن الولايات المتحدة تجاور ناميبيا وجورجيا وألبانيا وبيرو بمعدل جرائم قتل (٥.٥ إلى ٦.٤ لكل مائة ألف خلال العقد الأول من الألفية) كما تتجاور بريطانيا وكندا مع كرواتيا وتشيلي والمجر (بمعدل ١.٨ إلى ٢.٢ لكل مائة ألف)، وتتجاور تركيا والبرتغال مع نيبال واليمن (بمعدل ٣.٤ إلى ٣.٩ لكل مائة ألف)، وتحل السويد -الدولة المتقدمة- جارةً بين الدولتين المتأخرتين أذربيجان ورومانيا، وهكذا(١).

وتحظى جريمة السرقة بنصيب الأسد من بين نسب الجرائم، إذ تمثل ٦٢٪ من مجموع الجرائم، وهي تمثل مع السطو ومحاولات السطو والسرقة أكثر من ثلاثة أرباع الجرائم في العالم(٢)، وتزيد نسبتها باضطراد حتى في الدول الغنية.

فقبل شهرين فقط فاجأتنا الصحيفة الفرنسية الأشهر لوفيجارو بخبر عن ارتفاع حالات السطو في باريس إلى حدٍ وصفته بـ«الانفجار التاريخي»، إذ سجلت باريس ارتفاعًا قدره (٥٩٪) في جرائم السطو في يناير مقارنة بيناير من العام الماضي، وسجلت المقاطعة كلها ارتفاعًا قدره (٤٢٪) وارتفع معدل السرقة في المترو بـ(٥٨٪)، فيما ارتفعت حالات السرقة بشكل عام بنسبة (٦٥٪)(٣).

---

(١) الموسوعة الحرة «ويكيبيديا»: قائمة الدول حسب معدل جرائم القتل.

(٢) http://www.wikicrimes.org/estatistica.html

(٣) Link Explosion historique des cambriolages à Paris, Le Figaro, 20/2/2013.

إن الجرائم تنزل -عموما- بالمستضعفين من البشر: الأطفال والنساء والأقليات وما إلى ذلك:

ففي دراسة أعدتها الأمم المتحدة عن العنف ضد الأطفال خلصت إلى نتيجة تقول: «العنف ضد الأطفال يمارس في كل مكان، بغض النظر عن بلدهم أو مجتمعهم أو فئتهم الاجتماعية»(١)، وعلى الرغم من أن نصف الأطفال تقريبًا -عبر العالم- يعيشون الآن في مناطق حضرية، فإن حال الأطفال ما زال سيئًا، بحسب ما أثبته تقرير الأمم المتحدة عن عام ٢٠١٢م، والذي يكشف -على سبيل المثال- بأن الأطفال يشكلون من ربع إلى نصف عدد من يعملون قسريًّا ويخضعون للاتجار بهم، لا سيما في أغراض الاستغلال الجنسي، وهذا بخلاف الأطفال الذين تضطرهم الظروف إلى العمل فيخضعون «لأهواء أرباب العمل وأنظمتهم التعسفية، وقد يتعرضون لسوء المعاملة، وكثيرًا ما يتعرضون لاعتداءات جنسية، ولكن من النادر الإبلاغ عنها»(٢).

هذا عن الأطفال، وأما النساء فالأمر أشد وطأة، فقد أثبتت إحصائية لمكتب التحقيقات الفيدرالية الأمريكية أن معدل الاغتصاب أو التحرش الجنسي العنيف هو ١٩٠ مرة في اليوم الواحد!! وهذا لا يشمل ما لم يُبَلَّغ عنه!! وقد بينت بعض الدراسات أن كثيرًا من ضحايا الاغتصاب لا يبلِّغون، ونصت بعض الدراسات على أن نسبة الذين لا يبلِّغون قد تصل إلى ٦١٪، بل أفادت دراسات واستبيانات كندية أن عدد النساء اللاتي يبلِّغن عن جريمة الاعتداء الجنسي عليهن يبلغن فقط ٦٪، وفي دراسة بعنوان: «ضحايا الجنس من نساء الكليات الوطنيات» في أمريكا بلغت نسبة الاغتصاب والعنف الجنسي ٥٪ على الأقل، وتوقع التقرير أن تصل النسبة في

---

(١) موقع اليونيسيف: «العنف ضد الأطفال» ٢٠٠٦م.

(٢) يونيسيف: تقرير الأطفال في عالم حضري، (٢٠١٢م) ص٣١، ٣٢.

السنوات التالية إلى واحدة من بين كل أربع أو خمس طالبات، وفشلت قوانين الكونجرس والمبالغ المرصودة لحماية البنات في الجامعة في تحسين الأحوال، ورصدت بعض الدراسات أن ثلاثة من بين كل حادثة اغتصاب يكون المجرم فيها معروفًا للضحية لا غريبًا عنها، بل بلغت جرائم القتل بين العشّاق والعشيقات نسبة تسعة قتلى كل أربعة أيام -بحسب مكتب إحصائيات وزارة العدل الأمريكية- ولا تشمل هذه الجرائم القتل بسبب الخيانة الزوجية(١).

وأما بالنسبة إلى الجرائم ضد الأقليات فقد طبقت الآفاق أخبار المسلمين في أوروبا وأمريكا وما يعانونه من تمييز ديني وعنصري خصوصًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وهذا هو أهون ما ينزل بالمسلمين؛ إذ يعاني إخوانهم الاضطهاد والإذلال في مناطق أخرى؛ مثل: الصين لا سيما تركستان الشرقية، والهند لا سيما كشمير، وإثيوبيا، بينما يواجهون السحق والإبادة في مناطق أخرى؛ مثل: بورما (ميانمار)، وهذا بخلاف التسلط العلماني على الأغلبيات المسلمة في بلاد مثل: نيجيريا وجمهوريات وسط آسيا.. وغيرها.

في كل بقعة من هذه جرائم وحشية مروعة ترتكب باسم الدين أو المذهب أو العرق أو النظام العلماني، ولا تتوقف الإنسانية لحظة لتبصر حتى مواقع أقدامها؛ بل يجرفها طوفان الدم القاني؛ ليعود الإنسان أشرس من ذئب، فكما قال الشافعي:

وليس الذئب يأكل لحم ذئب ... ويأكل بعضنا بعضًا عيانًا

لكن.. لماذا لا تنحسر الجرائم ولا نجد لها حلاًّ؟!

إذا نحينا جانبًا أمر الخلافات الدينية والمذهبية والعرقية، وبحثنا في جانب

---

(١) إبراهيم بن عبد الله الأزرق: إحصائيات وأرقام من المجتمعات التي لم تراع للاختلاط حرمة، موقع صيد الفوائد.

عدوان المجتمعات ذاتها على بعضها البعض، فسنبصر بعض الأسباب أهمها -فيما نرى- اثنان.

١ .سيادة الفكر المادي وتنحية الدين عن نظام الدولة

إن نجاح النموذج الغربي في صناعة نهضة كبيرة كان أكبر تسويق لمبادئه وأفكاره، وقد كانت «العلمانية» هي الفكرة الغربية الأهم، وقد انتشرت العلمانية -بجناحيها: الشيوعي والرأسمالي- لما حققه الغرب من نجاح، وكذلك بالمحاولات الغربية اللحوحة لزرع العلمانية في كل قطر احتلته أو هيمنت عليه؛ لكي تضمن بقاءه في فلكها الفكري الثقافي الاعتقادي، ولم يجد الغرب كبير بأس في زرع العلمانية بين قوم لا شريعة لهم كما في الهند والصين واليابان ودول إفريقيا وأمريكا الجنوبية، بينما حققت نجاحات جزئية ومتعسرة في الدول الإسلامية؛ على الرغم من أنها حاولت زرعها في ظلال جيوشها ثم استبداد أذنابها وعملائها.

وحيث ابتعد الدين عن مجال الحياة العامة فإن القوانين الحاكمة لن تحظى بأية قداسة؛ فهي من وضع البشر ويلحقها التغير والتبدل والتعديل كلما أثبتت فشلها في تحقيق الهدف منها، فبحسب دقة القوانين وكفايتها، ثم بحسب أمانة ونزاهة من ينفذها، ثم بحسب احترام الناس لها يتحقق الهدف منها، ونادرًا ما يحدث هذا! وخير دليل على ذلك هو لحظات انهيار الأنظمة أو الكوارث الطبيعية التي يتحول الناس فيها إلى تيار عارم من انتهاك القانون[1].

---

(١) من أشهر الأمثلة ما شهدته أمريكا في (١٧/ ٧/ ١٩٧٧م) من انقطاع عام للكهرباء؛ حيث اندلعت أوسع عمليات السلب والنهب لا سيما لمتاجر الذهب والمجوهرات والخزائن والبنوك، وكانت الخسائر فادحة، وتم القبض على الآلاف ممن دارت حولهم الشبهة، وعلى الرغم من كل احتياطات الأمن والتطور في وسائل الحماية، تكرر هذا الحدث مؤخرًا حين ضرب إعصار ساندي الشواطئ الأمريكية (٢٧/ ١٠/ ٢٠١٢م)، وانقطعت الكهرباء؛ انتشرت أعمال السلب والنهب في الأجزاء المتضررة من نيويورك.

=

إن خلاصة الوضع في ظلال المادية تلخصها عبارة ألبير كامي -فيلسوف العدمية- القائلة: «كل شيء جائز طالما أن الله غير موجود وأن الإنسان يموت»(١).

٢. غياب النموذج المتزن

وهو أثر من آثار سيادة الفكر المادي؛ فلقد وقعت الأنظمة في ثنائية القمع مع الأمن في مقابل الحرية مع الجريمة، فالأنظمة المنحازة إلى أمن الفرد وحقوق الإنسان أَصَّلت لنظريات وأفكار تتشدد في إثبات التهمة على المتهم، ثم أغرقت في تخفيف العقوبات عليه حال ثبوت الجريمة أملاً في تغيره وصلاح أمره، بينما انحازت أنظمة أخرى إلى أمن المجتمع واستقراره؛ فأصَّلت للأفكار التي تتوسع في الأخذ بالشبهة، ثم تتشدد في العقوبة، وخير الأمثلة التي تُضرب في هذا السياق هي أمريكا في مقابل الاتحاد السوفيتي.

يلخص جلال كشك(٢) الأمر بقوله: إن دول الشيوعية تكاد تكون خالية من العنف حتى إنه منذ استقرار الحكم في روسيا لم يمت زعيم روسي إلا حتف أنفه كما تموت الزواحف؛ بل إن التأمين على حياة الزعيم الروسي هو أول شيء ترحب به شركات التأمين، بينما تقف الدول الديمقراطية في مواجهة العنف؛ كالمشلول بسبب الضمانات الدستورية والقانونية والحريات الشخصية إلى الحد الذي كان بإمكان القاتل سبع مرات أن يُفرج عنه بعدم كفاية الأدلة ليفعلها لمرة ثامنة!! ففي الحالة الأولى كأن الدولة هي التي احتكرت جرائم العنف ضد مواطنيها وألبستهم لباس الجوع والخوف، ثم حفظت

= وقبل قليل من نهاية هذا البحث حدث تفجير في مضمار سباق في أمريكا في ولاية بوسطن، فانشغل الناس بنهب الأكشاك وسرقة ملابس اللاعبين.

(١) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص١٣٩.

(٢) مفكر إسلامي قدير، بدأ حياته ماركسيًّا ثم انتهى إلى الإسلام، وهو من أقوى مَنْ نقد الماركسية والقومية وتيار التغريب، وله مؤلفات تاريخية رائقة؛ مثل: ودخلت الخيل الأزهر، وثورة يوليو الأمريكية، والسعوديون والحل الإسلامي.

أمنهم؛ بينما في الحالة الثانية احتفظ الناس بالأمن من جهة الدولة؛ لكنهم يختفون من الشوارع عقب غروب الشمس؛ لأنهم لا يأمنون على أنفسهم من غيرهم، وبينما يطالب الأولون بالحرية في دولة القمع يطالب الآخرون بالأمن[١].

وما قاله جلال كشك منذ أكثر من ربع قرن أثبتته دراسة حديثة لفرانكلين زيمرنج[٢]؛ حيث لم تستطع مدينة نيويورك أن تخفض من معدل الجرائم فيها إلا بزيادة دوريات الشرطة وتوسيع دائرة الاشتباه[٣]، بما يثبت أن الأمر يظل متعلقًا بقوة الأنظمة أولاً وأخيرًا، وهو ما يحمل على توقع الكوارث في لحظات ضعفها وانهيارها.

* * *

(١) محمد جلال كشك: العنف والردع والشريعة، رسالة التوحيد، العدد (١)، نوفمبر ١٩٨٥م. ص٣٥.

(٢) أستاذ دكتور في كلية القانون بجامعة كاليفورنيا في بيركلي.

(٣) Franklin E. Zimring How New York City Beat Crime Scientific American mag 28/7/2011 Link

درك الشهوات

«هل شبعت الشهوة بإتاحة الفرص للإشباع؟... إن بلاد الغرب والشرق كلها قد أباحت المتاع الجنسي و«باركته» بإغضاء الدولة أو تشجيعها الصريح، وإتاحة الفرص الواقعية للإشباع بعيدًا عن كل نهي أو زجر أو تخويف أو ترويع.. فما بال الجوعة لم تهدأ بالإشباع المطلق المتاح؟ ما بال هذا العصر أشد العصور كلها اشتغالاً بأمور الجنس؟! كم فيلمًا؟! كم كتابًا؟! كم قصة؟! كم صورة خليعة؟! كم برنامجًا إذاعيًّا أو تليفزيونيًّا؟! كم أغنية؟! كم حفلة عارية أو شبه عارية «يستهلكها» الشباب من الجنسين؟! وكم مرة مع ذلك -كم الملايين من المرات- يقع فيها الاتصال الجنسي في سهولة ويسر؟ لِمَ لَمْ يشبع هذا النهم المسعور؟!»[(١)].

يروي د. عبد الوهاب المسيري أن ما رسخ في قناعته قبل الذهاب إلى أمريكا هو أن الجنس «طاقة مادية إن فُرِّغت بطريقة عادية طبيعية سوية فإن الفرد يصبح عاديًّا وطبيعيًّا وسويًّا، أما إن كُبِتت فإنها تصبح قوة مدمرة، وهي معادلة بسيطة ومعقولة لأول وهلة»؛ ولهذا فإن الشرقيين مشوهون نفسيًّا، ويبدون كمراهقين دائمًا من كثرة ما كُبِتت غرائزهم؛ بينما يتصرف الغربيون بأسلوب طبيعي؛ لأنهم يملكون حرية إشباع هذه الطاقة.

فلما أن ذهب إلى الولايات المتحدة لاحظ «إقبال الأمريكيين النهم وانشغالهم المتطرف (وأحيانًا المرضي) بالجنس، بينما مجال الإشباع الجنسي متاح أمامهم بشكل مذهل... ومع تزايد الحرية الجنسية كان عدد المجلات والأفلام الإباحية يأخذ هو الآخر في التزايد؛ كما كانت تقع حوادث اغتصاب كثيرة»، ثم يخلص إلى

---

(١) محمد قطب: جاهلية القرن العشرين ص١٧٨.

القول بأن «الجنس أصبح موضوعًا فلسفيًّا»، وأن الأمر تحول إلى إدمان الجنس ولو دون متعة حقيقية، وأن هذا المدمن يود لو توقف؛ ولكنه لم يعد يستطيع، وأن الأمر انتقل إلى ممارسته على عجل وفي ظروف غير حميمية؛ مثل ساعة الغداء في العمل، أو في المصعد، أو في مقعد السيارة؛ بل لقد كان الهوس الجنسي في أمريكا قادرًا على صدمة الشاب القادم من فرنسا، التي هي بلد منفلت جنسيًّا أيضًا(١)!

لقد بلغت نسبة التلميذات الحوامل سفاحًا (٤٨٪) من تلميذات إحدى المدارس الثانوية الأمريكية، وأثبتت دراسة أخرى أن نسبة (٨٧.٨٪) من مجموع طلاب المدارس الثانوية مارسوا اتصالاً جنسيًّا في حياتهم، نسبة (٢٢٪) منهم قبل سن الثالثة عشرة، وفي فرنسا كانت نسبة الحوامل من طالبات سن الخامسة عشرة إلى التاسعة عشرة (٢٪)، وفي السويد (٢.٥٪)، وفي كندا (٤.٦٪)، وفي بريطانيا (٤.٧٪).

ومن بين ٦.٣ مليون حالة حمل في أمريكا عام ١٩٩٩م كانت نسبة الحمل خارج الزواج ٢.٧ مليون حالة(٢)، وأن ٣٩٪ من هؤلاء النسوة أجهضن أنفسهن وقتلن جنينهن(٣).

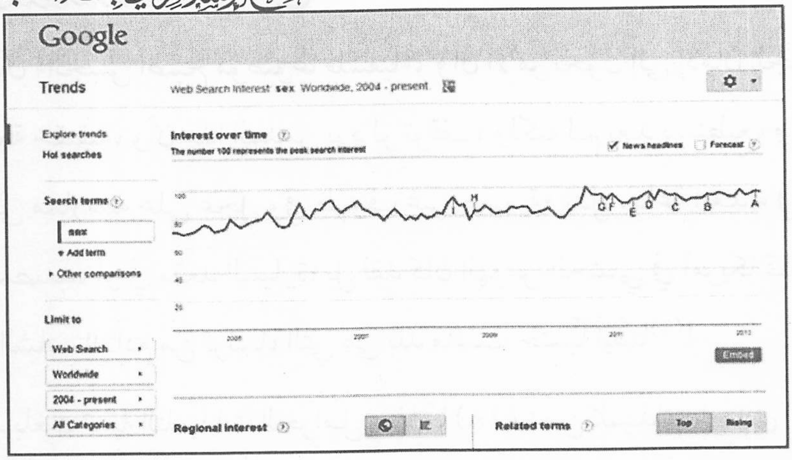
وعبر العالم تزداد نسبة الباحثين عن الجنس كما يبدو في هذه الإحصائية المأخوذة من إحصائيات جوجل حول البحث عن «جنس sex» في الفترة من ٢٠٠٤م حتى الآن.

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص٢٣٩ وما بعدها.

(٢) ولا يشترط أن تكون نسبة حمل المتزوجات من أزواجهن الشرعيين، ففي دراسة ذكرتها صحيفة الشرق الأوسط قديماً (٢٩/ ٥/ ١٩٨٠م) جاء فيها أن ٧٥٪ من الأزواج يخونون زوجاتهم في أوروبا، وأن نسبة أقل من المتزوجات يفعلن ذلك.

(٣) إبراهيم بن عبد الله الأزرق: إحصائيات وأرقام من المجتمعات التي لم تراع للاختلاط حرمة، موقع صيد الفوائد.



ومن الشهوات -أيضًا- إدمان الخمر والمخدرات، وقد بلغ هذا لدى البشر في عالمنا الآن مبلغًا عظيمًا؛ إن تسعة من كل عشرة أمريكيين شربوا الخمر في فترة من فترات حياتهم، ويتسبب في مشكلات صحية لـ ٣٠ إلى ٤٠٪ من حديثي السن، وبين واحد من كل عشرة رجال وواحدة من كل عشرين امرأة تمثل الخمر مشكلة مزمنة(١)، وتبدو في هذه الإحصائية -المنقولة عن المعهد الوطني لتعاطي الكحول وإدمانه (NIAAA) - أن أقل من نصف الرجال وأكثر من ربع النساء قد تحولوا إلى مدمنين للكحوليات(٢).

How many American adults (ages 18 and over) drank in the past year and how much did they drink?
(Source: Wave 1 NESARC, conducted by NIAAA's Laboratory of Epidemiology and Biometry)

	Women	Men
Percentage who had at least one drink	59.6%	71.8%
Percentage who have never drank -- lifetime abstainers	22.5%	11.6%
Percentage of binge drinkers -- drinkers who consumed 4+/5+ (women/men) drinks within 2 hours at least once	28.8%	43.1%
How many drinks did drinkers usually consume on a drinking day?		
1 drink	48.2%	28.7%
2 drinks	29.9%	29.0%
3 or more drinks	21.9%	42.3%

إن هذه الأرقام تكشف كيف أن البشرية تعيش واحدة من أسوأ لحظاتها عبر التاريخ كله.

(١) د. يحيى سنبل: الخمور وتأثيرها على صحة الإنسان، مجلة الوعي الإسلامي، العدد، ٥٤٢، شوال ١٤٣١هـ.

(٢) Link http://www.niaaa.nih.gov

معاناة العالم الإسلامي

إن أمة الإسلام مكلفة بمهمة الخلافة في الأرض، بتعميرها وحمل رسالة الله رب العالمين إلى العالمين، وإن مجرد وجود هذه المظالم والجرائم والشهوات في هذا العالم لدليل في حد ذاته على الخلل الذي يجتاح الأمة الإسلامية في اللحظة الراهنة.

فكيف إذا كان كثير من وجوه هذا الضرر واقع على الأمة نفسها؛ إذ هي مستضعفة مستباحة أرضها ومحتلة عواصمها ومنتهكة مقدساتها؟! كيف وأبناء الأمة وبناتها هم أهون الناس على الناس؟! إن الأمة لا تعاني من الخلل الذي يجتاح العالم فقط؛ بل إنها صاحبة الثمن الأعظم في الخسارة بما ينزل بها وعليها من أعدائها لما فيها من انهيار وتمزق.

فالأمة وإن لم تكن من مصاف الدول المتقدمة في كثرة المال فإن ما ينزل بالعالم من أزمات يصيبها كما يصيبهم، وقد قدرت جامعة الدول العربية خسائر الأموال العربية في الأزمة المالية الأخيرة بـ ٢٤٠٠ مليار دولار(١).

على أن هذا الرقم لا يمثل شيئًا إذا ما قورن بالكارثة البيئية المتوقعة من تغير درجة حرارة الأرض، فعلى الرغم من أن الدول العربية هي أقل الدول إسهامًا في النشاطات الصناعية التي تضخ للهواء الملوثات، التي تتسبب بارتفاع درجة حرارته (بنسبة ٤.٧٪ من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون)(٢)، فإن السودان ولبنان ومصر وبلدان شمال إفريقيا هي الأكثر تضررًا، فارتفاع حرارة الأرض ثلاث درجات أو أربعًا سيرفع سطح البحر بنحو متر واحد، مخلفًا وراءه ستة ملايين لاجئ في مصر، وفيضانًا يغمر ٤.٥٠٠ كيلو متر

---

(١) رشيد ناجي الحسن: الفقر رؤية واقعية، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٥٦١، جمادى الأولى ١٤٣٣هـ.

(٢) تقرير التنمية الإنسانية العربية لعام ٢٠٠٩م، ص٤٩.

مربع من الأراضي الزراعية في الدلتا، ولو ارتفع سطح البحر نصف متر فقط، فإنه سيخلف مليوني لاجئ ويتسبب بخسائر اقتصادية تزيد على ٣٥ مليار دولار، وستتأثر القدرة على توليد الطاقة الكهربائية بقوة الماء، حتى التدابير الوقائية ضد الفيضان لن توفر الحماية لملايين الناس، وفي إقليم كردفان في السودان سيسفر ازدياد الحرارة بمقدار درجة مئوية ونصف الدرجة بين العامين ٢٠٣٠م و٢٠٦٠م عن تناقص هطول الأمطار بنسبة ٥٪، ويؤدي إلى هبوط عام في الإنتاج الزراعي وانخفاض في إنتاج الذرة بنسبة ٧٠٪ من المستوى الراهن، كما أن ارتفاعًا مقداره ١.٢ درجة مئوية سيقتطع نسبة ١٥٪ من الماء المتوافر في لبنان بسبب التغير في أنماط هطول المطر والتبخر، وإذا ارتفعت حرارة الأرض درجة مئوية واحدة فإن ذلك سيؤدي بحلول العام ٢٠٢٠م إلى تناقص المياه المتوافرة في بعض مناطق المغرب بنسبة ١٠٪ (١).

وما ينزل بدنيا المسلمين هو أقل مما ينزل بدينهم، ففي عصر الاستضعاف والاحتلال، وفي ظل الفضائيات والإنترنت والمساحات المفتوحة والأموال المتدفقة لإفساد الأُمة، في أجواء كهذه نرى أمواج التغريب وفوضَى الأفكار وغابات من الروايات والأفلام والمسلسلات إن أفلت عقل المسلم من شبهاتها -وأنَّى له ذلك- فلا تسلم نفسه من شهواتها.

وقد صدق في المسلمين حديث النبي ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

١. لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

٢. وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

---

(١) تقرير التنمية الإنسانية لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ٢٠٠٧م.

٣. وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

٤. وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

٥. وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١).

وفي عالم الإسلام نرى هذه الخمسة جميعًا، الذنوب والعقاب معًا؛ فقد صارت بعض عواصم المسلمين – ويا للألم والحسرة، ويا للعار – عاصمة للدعارة والزنا في هذه المنطقة من العالم، وصارت تؤمها المومسات من الشرق والغرب كما يؤمها الزناة كذلك، وقد فشت الأوجاع والأمراض التي لم تكن تعرف في آبائنا وأجدادنا. ولما فشا في المسلمين الغش والكسب الحرام جاءهم الجدب والقحط واستبداد الحكام، فعالم المسلمين هو عالم الحكام المستبدين ممن جاءوا «على دبابة أجيرة، أو على ناقة العشيرة» كما يقول الشاعر أحمد مطر. ولا يبالي حكامهم أن يبيدوا الشعوب كلها إن خرجت تطالب بالعدل والحرية، وحين كنز المسلمون أموالهم أمسك الله عليهم رزق السماء، وحين نقضوا عهد الله ورسوله جاءتهم جيوش الاحتلال حتى صار لكل بلد في أرضنا يد وجيش وعسكر، حتى إثيوبيا التي لا تعرف بشيء في صناعة ولا زراعة تحتل أرضًا من الصومال(٢)!

وحين طويت الشريعة الربانية الغراء اشتعلت بينهم الأحقاد والخصومات والمنافسات، وجعل الله بأسهم بينهم؛ ففشت بينهم الجرائم، واشتعلت فيهم الحروب الأهلية والمذهبية والطائفية والقبلية؛ حتى صار أسعد الناس من كان آمنًا

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩)، والحاكم (٨٦٢٣) وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني.

(٢) يمثل عدد اللاجئين في المنطقة العربية نصف عدد اللاجئين في العالم تقريبا. تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٩، ص٩.

من جاره لا يعرفه ولا يكلمه!

أمراض وفقر واستبداد واحتلال وجرائم وحروب أهلية.. ذلك هو المشهد في تلك اللحظة.

وإذا أردنا أن نأخذ قبسًا من كل أزمة فسنجد أزمة الاستبداد عامة، إذ لا يكاد يوجد قطر إسلامي يحظى بحرية شعبية تمكنه من اختيار حاكمه بحرية ومراقبته وعزله، فالصورة بين استبداد واضح واستبداد ملون بملامح ديمقراطية، وحتى في دول الثورات العربية مثل مصر وتونس ما تزال التجارب وليدة ومعرضه للإجهاض، ومن المؤسف أن أهم أدوات الإجهاض هي دول عربية أخرى!

كما سنجد الجرائم في تصاعد، فحتى الكويت -وهي من أقل بلاد المسلمين سكانًا- ترتفع فيها نسبة الجرائم سنويًّا، فقد سجل العام ٢٠١٢ ارتفاع ٧٪ في معدل الجرائم عن ٢٠١١م، حتى إنها لتشهد ١٣ جريمة سرقة يوميًّا بحسب آخر إحصائية رسمية[(١)].

ومن المؤسف أن نجد بنجلاديش وباكستان في المرتبة الرابعة والخامسة ضمن أكثر البلدان بحثًا عن كلمة «جنس» على الإنترنت[(٢)]، وأن تكشف إحصائية لوزارة الصحة المصرية (عام ٢٠٠٨م) أن نحو واحد من كل عشرة مصريين -أي نحو ثمانية مليون- تناول المخدرات في فترة من حياته، بينما بلغ عدد المدنين مليونًا ونصف المليون شخص[(٣)].

وإذا أخذنا العالم العربي كشريحة ضمن العالم الإسلامي، فسنجد مشهدًا لا يرضي الله ورسوله، هذه بعض ملامحه:

١. نسبة البطالة في العالم العربي ١٤.٤٪ وهي أكبر من ضعف النسبة العالمية

---

(١) جريدة القبس الكويتية ١، ٤/ ٣/ ٢٠١٣.

(٢) أخذت من بيانات موقع google trends.

(٣) جريدة مصريات ٧/ ٨/ ٢٠٠٩.

٦.٣٪.

٢. أكثر من خمس العرب يعيشون تحت خط الفقر.

٣. أكثر من ٧٣٥ ألف مصاب بمرض الإيدز، ثلاثة أرباعهم تقريبًا في السودان.

٤. أكثر من ٩٨٪ من إصابات مرض الملاريا في السودان واليمن والصومال وجيبوتي، وأكثر من ثلاثة أرباعهم في السودان وحده[1].

وفي كل تقرير يصدر عن مؤسسة دولية –كتقرير الشفافية والفساد ونحوه– تجد الدول العربية في قعره، وما خلف الأرقام من مآسٍ ومصائب يذوقها الناس ما لا يحصى؛ مما لا تطيق الأرقام أن تعبر عنه.

هذه الصورة التي تعم العالم: المظالم والجرائم والشهوات، والتي تشمل العالم الإسلامي ذاته، تجعل من المحتم على كل مخلص لهذه الإنسانية أن يبحث عن حلٍّ، وأن يقوم بواجبه في إنقاذ هذه الإنسانية؛ إذ لا يستطيع ضمير حي أن يستوعب كل هذا ثم يبقَ ساكنًا، فإن سكن فإنما هي علامة على الموت لا غير.

(١) تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٩ ص١١، ١٥.

الفصل الثاني

محاولات الخروج

شغلت مشكلات البشر أذهانهم منذ قديم، وقد ضرب كل ذو عقل فيها بسهم، فمُجيد ومسيء، ومجتهد ومقلد، وعميق وسطحي، وظلت العقول تبني الأفكار – والأحلام والخيالات كذلك- ثم يصدقها الواقع أو يكذبها.

والواقع ذاته صانع للأفكار ومصنوع لها، فهو والدها وهي ولدته، تلك العملية الدائرية الجدلية المشهورة: يأخذ الفيلسوف من واقعه صورةً لحلمه، ثم يسعى لتطبيق حلمه في واقع يستعصي عليها، فينجح أو يفشل أو ينجح بقدر، ثم يأتي الفلاسفة فيرد بعضهم على بعض، يأخذ اللاحق من السابق فيزيد وينقص ويأخذ ويرد، حتى صار الحل حلولاً، وطريق الخروج طرقًا كثيرة، وأمست العقول مذاهب وطرائق شتى، فأضيفت إلى أزمات الناس أزمة عقولهم، أو بالأصح: أضافت عقولهم أزمة إلى أزماتهم، حتى صار الجاهل أسعد من العاقل على نحو ما قال المتنبي:

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النَّعِيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ

توهمت العقول مدنا فاضلة مثالية، وعجزت عن تطبيقها في أرض الواقع، ثم بحث الآخرون فيما فشل الأولون فتوهموا مدنًا أخرى.. وهكذا!

ونحن في هذا المقام يهمنا أن ننظر في نتاج عقول الفلاسفة والمفكرين، كيف كانت مدنهم الفاضلة التي حلوا فيها أزمات الإنسانية، ثم على مَنْ علقوا آمالهم وأحلامهم في تطبيق هذه المدن الفاضلة، بأي شيء اهتموا، وبمن من الناس تعلقوا

وأناطوا بهم مسؤولية تنفيذ التغيير.

وكان لا بد من هذا الفصل كي نعرف الفارق بين عقول البشر ومنهج الله، فلسنا نفقه طعم السكر إلا إذا عرفنا طعم الملح، ولا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية!

ولهذا جعلنا هذا الفصل في مبحثين:

- المبحث الأول: أحلام المدينة الفاضلة
- المبحث الثاني: فلسفة المسئولية في المناهج الوضعية

أحلام المدينة الفاضلة

ليس البشر إلا أبناء زمانهم، وليست عقول البشر إلا بعضا منهم، وما تصورته العقول من «المدن الفاضلة» كان في حقيقته انعكاسا لما عاشوه من أزمات ومشكلات، حتى لكأنها معكوسها، ولم يكد يتغير هذا مع تراكم المعرفة الإنسانية والتجارب التاريخية والمحاولات الفلسفية، بل ظل الذين يعيشون في الفوضى والتمزق يحلمون بالوحدة والانضباط ولو مع بعض من الاستبداد أو كثير منه، كما ظل الذين يعيشون تحت الاستبداد يحلمون بالحرية ولو مع بعض من الفوضى، وما زال الذين يعيشون تحت حكم الجهلاء يحلمون بحكم الحكماء والفلاسفة، وما زال الذين يعيشون في المجتمعات الطبقية يحلمون بالعدالة الاجتماعية وتقليص الفوارق بين الطبقات... وهكذا!

ما يزال الإنسان يبحث عن النظام الذي يجمع المزايا ويتجنب العيوب، واحتارت العقول، هل البداية من الفرد أم من السلطة، من الأخلاق أم من القوة، من التربية أم من القانون؟! وما تزال التساؤلات الفلسفية بغير إجابات نهائية جازمة مثل: ما مدى أحقية الفرد في ممارسة حريته وسط الجماعة في مقابل ما مدى صلاحيات الجماعة في تحديد حرية الفرد؟ ومن نقدم: حرية الفرد أم قيم المجموع؟ إلى أي حد ينبغي أن تتدخل السلطة في تنظيم أمور المجتمع؟ وما مدى علاقتها بثقافته وميوله؟ هل هي تعبير عنها أم توجيه وتعميق وترسيخ لها؟ هل علاقة السلطة بالمواطن كعلاقة الأب بالأبناء؟ أم القادة بالجنود؟ أم الوكيل بالأصيل؟ وما غاية هذه الحياة: أهي سعادة الفرد أم سعادة المجتمع؟ وما السعادة: هل هي الرفاه المادي أم المساواة في توزيع الثروة أم غير ذلك؟ ولأي مدى يحق للإنسان أن يملك شيئًا في هذه الحياة: هل يجوز أن يملك شيئًا أم لا؟ وعند أي نقطة يكون قد جار على غيره أم ما زال

يتمتع بما أوتيه بمواهبه وحسن تدبيره؟

ذهبت عقول الفلاسفة والعقلاء شرقًا وغربًا، ثم أنتج كل عقل ما انتهى إليه.

عاش كونفوشيوس في عصر ساده الاستبداد والتمزق في الصين، ويُروى أنه عُيِّن وزيرًا، وبدأ في تحقيق نجاح ساحق في دولته «لو»؛ فخشيت دولة «تشي» المجاورة والمنافسة من هذا النجاح؛ فأرسلت فرقة من الراقصات إلى حاكم «لو» فافتتن بهن وأهمل أمور رعيته، فخاب مسعى كونفوشيوس، واعتزل السياسة وبدأ التفكير في إصلاح هذه الأحوال(١).

لذلك تميزت تعاليم كونفوشيوس بعدة أمور أبرزها: الحل يبدأ من إصلاح الفرد لا من السلطة، وينبغي أن يربى الفرد تربية أخلاقية تجعله قادرًا على فعل الفضائل وتبادلها مع الآخرين، فالأخلاق والفضائل هي الضمانة لثغرات القوانين، وينبغي أن يكون التعليم أمرًا عامًا وشائعًا لكل الناس، فكل الناس سواء وسواسية، وحين يحدث هذا ستنصلح أحوال الممالك بطبيعة الأحوال؛ لأن الشعب هو من سيفرز السلطة؛ بحيث يكون الحاكم متحليًا في نفسه بأسمى الأخلاق، وهو من سيستطيع تقويمها إن حادت عن الأخلاق ولم تعد تعمل في مصلحة الشعب، وحين تحدث عن السياسة كان أبرز ما في تعاليم كونفوشيوس إعطاء صلاحيات أوسع لمنصب الوزير، فكانت تعاليمه مجرد انعكاس لفساد واقعه(٢).

وفي مقابل كونفوشيوس يأتي أفلاطون الذي نشأ في المجتمع اليوناني «الديمقراطي» فكانت فلسفته تنزع إلى محاربة التمزق والفوضى، ولهذا فهو لا يرى أن الناس سواسية، بل إن الطبيعة قسمتهم إلى طبقات بحسب ما أعطتهم من

---

(١) د. هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة؛ المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس ص١٠٦.

(٢) انظر: د. هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة؛ المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس، ول ديورانت: قصة الحضارة ٤/ ٤٠ وما بعدها، جون كولر: الفكر الشرقي القديم ٣٧٩ وما بعدها.

المواهب والقدرات، حتى ينتهي الأمر إلى ثلاثة مستويات: أعلاها الفلاسفة والحكماء؛ وهم أصحاب الفكر والعقول، الذين يجب أن يحكموا البلاد؛ لأنهم الجديرون بمعرفة ما يصلحها وما هو غير ذلك، ثم طبقة المحاربين، وفي النهاية تأتي طبقة العمال والعبيد، ولا ينبغي لمن في طبقة أن يفكر في تغيير وضعه أو مكانته؛ ولهذا تركزت فلسفة أفلاطون وخياله عن المدينة الفاضلة في إصلاح هذه الطبقة الحاكمة، وهو من أجل أن ينزع أسباب التنافس والنزاع بين البشر قرر بأنه ينبغي أن تكون النساء والأولاد مشاعًا؛ كي يختفي أي انتماء عصبي ويتوجه الانتماء كله إلى الدولة، وحارب أفلاطون الملكية؛ لأنها تجعل الحكام ذوي مصلحة شخصية مثلهم من المزارعين والبنائين؛ وفي هذا خطر على المصلحة العامة(١)، وحين يكون الحاكم حكيمًا فيلسوفًا؛ فإنه قادر على تدبير الأمر بما يتلافى ثغرات القوانين، أو هو بالأحرى لا يحتاج قانونًا في ظل ما يتمتع به من حكمة وحرص على مصلحة البلاد(٢).

وهكذا كان كونفوشيوس –في ظلال الاستبداد الصيني– أقرب إلى حق الشعوب من أفلاطون في ظلال الديمقراطية اليونانية!!

وكان توماس مور، وهو صاحب لفظ «يوتوبيا»(٣) الذي صار علامة على «المدينة الفاضلة» ردة فعل على إنجلترا القرن السادس عشر، فانتشار النزعة الفردية بين الناس وكثرة النبلاء الذين يعتاشون على جهد الكادحين ولديهم القدرة على تعطيل القوانين جعلته مناديًا بالجماعية وبالعدالة الاجتماعية، ومن الأشياء ذات الدلالة أن توماس مور لم يفكر بطريقة إصلاح الواقع؛ بل سار وراء خياله ليتخيل

---

(١) وبهذا نرى اتجاهين: اتجاه ينحو إلى تهذيب الأخلاق لإصلاح وضبط رغبات البشر، واتجاه ينحو إلى تعديل الأوضاع القائمة بحيث يسلب رغبات البشر مواطن تنازعها وتنافسها.

(٢) انظر: أفلاطون: الجمهورية، ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٢٣ وما بعدها، ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص٢٦ وما بعدها.

(٣) يوتوبيا: باليونانية تعني: اللامكان أو المكان الخيالي.

أرضًا أخرى، حيث تنتفي الملكية الخاصة والربح الشخصي؛ حيث يؤدي هذا إلى الظلم والحرب؛ بل «حيثما وجدت الملكية الخاصة، وكان المال هو المعيار الذي يُقاس به كل شيء، فيكاد يكون من المستحيل تقريبًا أن يسود المجتمع العدل أو الرخاء»(١).

ويتخيل مور أن العلاقة بين الحاكم والرعية هي علاقة الأب بأبنائه، وأن هذا الحاكم هو أفضل الناس وصاحب أخلاق تجعله لا ينحرف تحت ضغط أي إغراء، وهو لا يتميز عن باقي الرعية برداء أو تاج، وأن النزاعات تخفت تمامًا بين الناس فإن حدثت اجتمع لها ثلاثة قضاة؛ فابتكروا عقوبة مناسبة تكون غايتها الإصلاح لا الردع، ويكون توجه الناس في هذه الأرض نحو نشر الفضيلة، لكن مور - وياللعجب!- احتفظ -أيضًا- ببعض العبيد وحرمهم من حق التمثيل في حكم اليوتوبيا، وسلب حق المواطنة والتمثيل في الحكومة من الملحدين (أي غير المسيحيين)(٢).

هذه الأمثلة تعبير عن توجهات عامة فكم من تصورات لاحقة للمدينة الفاضلة تركز على الأخلاق الفردية، وكم من تصورات تركز على إلغاء الملكية وشيوع النساء؟! وكم من تصورات تبتغي قوة الدولة -ولو على حساب الفرد-؟! وعلى عكسها تصورات تبتغي سعادة الفرد -ولو على حساب الدولة- وهكذا.. وعلى سبيل المثال:

- نجد توما الإكويني (المسيحي/ المتدين) وكَانْت («العقلاني/ التنويري») على غرار كونفوشيوس في الاهتمام بالأخلاق الفردية.

---

(١) توماس مور: يوتوبيا ص١٣٣.

(٢) انظر: توماس مور: يوتوبيا، ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٥/ ١٠٤ وما بعدها، برتراند رسل: حكمة الغرب ٢/ ١٢٩ وما بعدها.

- ونرى كثيرين جدًّا متأثرين بطبقية أفلاطون حتى ماركس، إلا أن ماركس عَكَسَها فجعل الطبقة الأهم هي طبقة العمال «البروليتاريا»، التي ينبغي أن تثور على الطبقات العليا «البورجوازية».

- ومثلما أراد أفلاطون (الوثني) إلغاء الأسرة والملكية الخاصة تابعه في هذا كامبانيلا (المسيحي) ثم تابعهما ماركس (الملحد)!

- كما أخذت فكرة الشيوعية تتقلب بين الأزمان والبلدان فهذا مزدك في بلاد فارس استطاع جعل النساء والأموال مشاعًا بين الناس لفترة وإن قصرت؛ حتى أفسد البلاد، ثم قتله كسرى أنوشروان، واستطاع ليكورجوس سن قوانين صارمة -لتحقيق المساواة بين الناس- في إسبرطة تدخلت في الطعام والشراب والأثاث وحتى المعاشرة الزوجية.

- وفي حين خالف أرسطو أستاذه أفلاطون في الشيوعية، وقرر أن الأسرة والملكية الخاصة ينبغي أن تظل بلا مساس، فقد تَابَعَه في بقية آرائه.

- وعلى غرار أرسطو جاء جان بودان الذي التقى مع أرسطو وأفلاطون في ضرورة وجود الدولة القوية؛ لكنه رأى السبيل إلى ذلك عبر قوانين محكمة ودساتير مثالية[١].

وقد شَذَّتْ كثير من الفلسفات في اتجاهات عدة حتى أوغلت إيغالاً شديدًا:

- فهذا نيتشه (الملحد) الموغل في الفردية والباحث عن الإنسان الأعلى (السوبر مان) يندفع في هذا حتى ليكره الضعف والضعفاء، ويكره الرحمة بهم

---

(١) للتوسع: إيميل برهييه: تاريخ الفلسفة، ول ديورانت: قصة الفلسفة، قصة الحضارة، برتراند رسل: حكمة الغرب، تاريخ الفلسفة الغربية، ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث.

والشفقة عليهم[١]، ومثله مالتوس (القس المسيحي) الذي يعتبر أن الفقر والمرض والزلازل أشياء إيجابية، وهي نوع من تكفير الطبيعة عن خطاياها في الإتيان ببشر أكثر من مواردها[٢].

وقد كان كل من نيتشه ومالتوس في رغبتهما لإفناء الفقراء والضعفاء يكرران تجربة ليكورجوس (الوثني) في إسبرطة؛ الذي كان يقتل الأطفال الضعفاء أو المشوهين؛ لأنهم لن ينفعوا المجتمع والدولة[٣].

- وفي مقابل نيتشه يأتي دور كايم الموغل في الجماعية؛ الذي لا يرى للإنسان وجودًا مستقلاً عن المجموع، والمجتمع هو الذي أنتج الفرد وليس العكس، والفرد ليس إلا نتاج القوى الاجتماعية المحيطة به مثل الأسرة وعلاقات العمل، وقواعد المجتمع جبرية ملزمة، وليس للفرد حرية اتباع النظام الاجتماعي أو الخروج عليه[٤].

- ويأتي مارتن لوثر ليقوم بحركة إصلاحية واسعة في المسيحية ردًا على التسلط الكهنوتي وامتلاك الكهنة لصكوك الغفران وتجارتهم بأراضي الجنة، فيتطرف في محاربة هذا حتى ينفي قيمة للعمل، ويؤكد أنه طالما آمن المسيحي بعيسى مخلصًا فهو فائز؛ وإن ارتكب كل الفواحش والذنوب، بل كان يحرض ويحث على ارتكابها[٥].

- وهذا جبرييل دي فواني وديدرو يوغلان في الحرية حتى يقترحان إلغاء

---

(١) نيتشه: هكذا تكلم زرادشت ص٧٤ وما بعدها.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ٤٢/ ٢٥١ وما بعدها، ٣٨١ وما بعدها، جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة ص١٨، ١٩.

(٣) ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص٦٣.

(٤) د. عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع ص٨٠.

(٥) ول ديورانت: قصة الحضارة ٢٤/ ٦٢.

الحكومات ذاتها[1]، وهو رد فعل متطرف على التطرف في الحكم والاستبداد والتسلط؛ سواء في الواقع أو في التصورات الفلسفية الشمولية.

ولا يسمح المقام باستقصاء أوسع من هذا، كما وليس هذا هو مقام الرد أو التفنيد لهذه التصورات أو غيرها، ويكفي ردًّا عليها فشلها جميعًا في إقامة ذاتها عمليًّا على واقع الأرض، ولو لفترة قليلة؛ بل لعله يكفي دليلاً أن بعض أصحابها إنما اعترفوا بكونها خيالاً حين انصرفوا منذ البداية لتخيل أرض جديدة في أوضاع وظروف مغايرة، فكأنما ذلك تسليم باستحالة إصلاح أحوال الواقع لتكون -أو لتقترب- من الخيال المأمول!

على أنه يمكن القول وبشكل عام: إن ما احتوته هذه التصورات كان في كثير من جوانبه مناقضًا لفطرة الإنسان؛ مثل: تحطيم رابطة الأسرة، أو إلغاء الملكية الخاصة، وشيوعية الأطفال والنساء، أو كان في جانب آخر أحادي التصور والوجهة بالتركيز على الفرد أو المجموع -الأخلاق أو القانون- السلطة أو المجتمع.. وهكذا، وأقل ما يمكن أن يقال في نقد هذه التصورات هي أنها تتخيل إمكانية الوصول إلى لحظة نهائية ساكنة لا يأتي عليها تغير أو تبدل أو تطور، وكفى بهذا مناقضة لطبيعة البشر وطبيعة الحياة ذاتها.

لكن الذي يهمنا في هذا المقام هو الحديث عن «فلسفة المسئولية» في هذه التصورات، أي من هؤلاء المسئولين عن التغيير، وهو موضوع المبحث القادم.

* * *

---

(١) ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص٢٢.

فلسفة المسئولية في المناهج الوضعية

تصدر فلسفة المسئولية -بطبيعة الحال- كفرع عن التصور الفلسفي العام، فكل تصور توقف عند نقطة -باعتبارها موطن المشكلة أو بداية الحل- توجه إليها بالتركيز والإصلاح.

لقد انصرف كونفوشيوس -ومن تبعه في هذه الوجهة- لإصلاح أخلاق الأفراد في عموم الشعب متصورًا أن نجاحه في نشر الأخلاق تدريجيًّا بين عموم الناس سيؤدي في النهاية لإصلاح حال المجتمع والسلطة، وبذل في هذا غاية جهده واستخلص فيه عصارة فكره، ولم يحفل بالبحث في إصلاح سياسة الحكم وقواعد السلطة، ولم يهتم كثيرًا بجانب القوانين باعتبار أن قوة الأخلاق في الناس تغني عن القانون، كما أن انهيارها يجعل القانون بلا فائدة.

ومن موطن العيب في هذا التصور هو توهم قدرة الناس على إصلاح السلطة دون الأخذ في الاعتبار قدرة السلطة على إفساد الناس، وأيهما أشد وأقوى تأثيرًا وأسرع حدوثًا؛ خصوصًا وكونفوشيوس لا يضع سبيلاً لإصلاح السلطة من قِبَل الشعب؛ بل يتمنى من خلال نشر الفضائل أن ينصلحوا من تلقاء أنفسهم، وكذلك التوهم بأن الناس سواء، وأن استعدادهم للتخلق بالأخلاق واحد وهو ما يناقض طبيعة البشر؛ إذ بعضهم أسرع استجابة للخير من بعض، وبعضهم تكفيه الإشارة فيما البعض الآخر لا يعالج شره إلا بالقوة والتأديب؛ فلا بد من وجود القوانين مع وجود الأخلاق.

ولقد انصرف أفلاطون -ومن تبعه في تصوره- إلى التركيز على الطبقة الحاكمة، والتي تمنى أن تكون من الحكماء والفلاسفة؛ حيث إن «العلم يحتم فعل الخير»، وهو لم يحفل بإصلاح الفرد باعتبار أنه وحدة أصغر من أن يمكن دراستها بوضوح،

ورأى أن إصلاح الطبقة الحاكمة هو طريق إصلاح الدولة؛ ولهذا حظيت هذه الطبقة بحديثه التربوي الاقتصادي الإصلاحي، فهي بالنسبة إلى باقي الشعب بمنزلة الرأس من الجسد.

ومن مواطن العيب في هذا التصور حصره الخير في العلم، على الرغم من وضوح انفكاك الارتباط بينهما؛ فكم من عالم بالضرر يفعله لأنه ضعف أو هوى أو شهوة[١]! ومن العيوب كذلك حذفه لحقوق - ومن ثَمَّ: مسئولية- عموم الناس، وحبسه كل من في طبقة في مقامهم ومنعهم أن يتطلعوا إلى غيرها؛ بل هو لا يرى أن ينتقل صاحب الحرفة في ذات الطبقة من حرفة إلى أخرى[٢]، والاستمرار في الاحتفاظ بطبقة العبيد التي لا يمنحها أي حقوق، ولا حتى لقب المواطن، ثم أسوأ من هذا كله افتقاد النظرة الإنسانية وسيادة النظرة العنصرية تجاه الأجانب؛ «فغالبًا ما يتطلب الولاء للدولة إنكار مشاعر التكافل والتعاون المتبادل، الذي يوجد بشكل طبيعي بين الناس، وتفرض الدولة أنواعًا معينة من قواعد السلوك التي تحدد العلاقة بين المواطنين والعبيد أو البرابرة، فكل ما هو محرم في العلاقات القائمة بين المواطنين المتساوين مسموح به تجاه أولئك الذين يعدون كائنات أدنى منزلة، وبينما تحلى المواطن اليوتوبي بالرقة ودماثة الخلق في تعامله مع من هم في نفس منزلته، فإنه يتسم بالفظاظة في تعامله مع عبيده، إنه يحب السلام في وطنه، ولكنه يشن أبشع الحروب خارج الحدود، وقد سمحت جميع اليوتوبيات التي حذت حذو أفلاطون بهذه الثنائية»[٣].

والخلاصة أن المسئولية في هذه الفلسفات واقعة على عاتق الفلاسفة والحكماء وحدهم.

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص١٨٨.

(٢) ديفيد جونستون: مختصر تاريخ العدالة ص٦٦.

(٣) ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ ص٢٢.

وكذلك من رأى الحل في الإصلاح الديني علقها برقبة الكهنة والقساوسة، ومن رآه في القوانين المحكمة علقها برقبة المشرعين، وبحثت أغلب الفلسفات عن السلطة والدولة لما لديها من قدرة على تنفيذ الأفكار ووضعها موضع التطبيق ككل تصورات الشيوعية، فكانت المسئولية معلقة برقبة السلطة.

إن محاولتنا للتفتيش عن المسئولية في المناهج الوضعية أسفرت عن نتيجة مثيرة للخيبة والإحباط؛ ذلك أننا لا نجدها إلا في مجال القانون والعقوبات والجرائم، أما في مجال الإصلاح وحمل مسئولية التغيير فلا نكاد نجد إلا قليلاً، وحتى هذا القليل ظل حبيس النظريات ولم يُترجم إلى نموذج عملي واحد فيما نعلم، ثم فوجئنا بهذه النتيجة يقولها المستشرق الأمريكي مايكل كوك -صاحب أوسع بحث في قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- يقول بلهجة قاطعة: إن الثقافة الغربية -وكذلك الثقافات الشرقية الأخرى- ليس لديها «فكرة واضحة عن واجب لا يفرض علينا التصرف بنحو لائق إزاء الغير فقط، بل كذلك منع الآخرين من فعل ما فيه تَعَدٍّ واضح على الناس، مع ذلك ليس لدينا نظرية عامة حول الأوضاع التي ينطبق عليها، والإرغامات التي تسقطه. إن القيمة الأخلاقية موجودة عندنا، لكنها ليست من القيم التي أولتها ثقافتنا صياغة متطورة ومتكاملة»؛ لذا فإنه نفسه لم يكتشف هذا المعنى إلا كنتيجة جانبية لبحوثه في الإسلام[(١)].

لكننا وقعنا في أثناء البحث على أمور لا ينبغي إهمالها؛ أهمها:

١ . أن من القوانين من جعل مسئولية الإنسان تجاه عائلته فوق الحق والعدالة، منها -على سبيل المثال- قانون نابليون الذي يُحَرِّم على الابن أن يشهد ضد أبيه وأمه في قضية مدنية أو جنائية[(٢)].

---

(١) مايكل كوك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي ص٢٥، ٢٦، ٨٠٣ وما بعدها.

(٢) Code Napoleon, livre I, Ture 2 I. نقلاً عن: د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص١٤٣، ١٤٤.

٢. ظهرت فلسفات غارقة في المادية وفي التفسير المادي للإنسان؛ بحيث إنها سلبت منه -بوضوح أو بالمآل- الاختيار والإرادة الحرة، وقد انعكس هذا على مسألة «الأخلاق»، فحتى القرن التاسع عشر الميلادي كان علم الأخلاق يبحث في المبادئ وترتيبها واستنباطها وأهميتها للحياة بما يعني التطلع إلى مَثَلٍ أعلى ومُثُلٍ عليا للسلوك تعين على فعل الخير والابتعاد عن الشر، وبهذا كان علم الأخلاق من العلوم المعيارية؛ بمعنى أنه لا يدرس ما هو كائن، بل ما ينبغي أن يكون، ثم ظهرت في فرنسا مدرسة من علماء الاجتماع نظرت إلى علم الأخلاق باعتباره تفسير ما هو كائن، لا معيارًا لما ينبغي أن يكون، وبهذا تحولت الأخلاق لديهم إلى «القواعد السلوكية التي تسلم بها جماعة من الناس في حقبة من حقب التاريخ»، فنزعوا عن القيم الأخلاقية فكرة الثبات والدوام أي نزعوا عنها القداسة والاحترام[١].

هذه النظرة هي بنت الفكر المادي الذي لا يرى في الإنسان إلا طبيعته المادية، وهي الطبيعة الحتمية التي لا تسمح له بالاختيار، يقول سبينوزا -الفيلسوف الهولندي-: إن «الأعمال الإنسانية، شأن جميع ظواهر الكون تنتج وتستنبط بالضرورة المنطقية نفسها التي يستنتج بها من جوهر المثلث أن زواياه الثلاث تساوي قائمتين»، ومثله الفيلسوف الألماني إيمانويل كانت الذي قال: إنه «لو كنا نعرف جميع الظروف والسوابق، فإن أعمال الإنسان يمكن التنبؤ بها بالدقة نفسها التي يُحَدَّد بها كسوف الشمس». ومآل هذه الفكرة المادية تنتهي عند كلمة ديفيد هيوم: «إن شعورنا بالحرية ليس إلا وهمًا».

وبالتالي فلا معنى للتحلي بالأخلاق؛ لأنه لا قدرة على الاختيار، وهو ما يصرح به شوبنهاور: «هناك أناس طيبون، وآخرون خبثاء، وذلك مثلما يوجد حملان ونمور،

---

(١) د. زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة ص٢٠٥ وما بعدها، د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص١٥ وما بعدها.

فالأولون يولدون بمشاعر إنسانية، والآخرون يولدون بمشاعر أنانية، وعلم الأخلاق يصف أخلاق الناس مثلما يصف التاريخ الطبيعي خصائص الحيوانات»(١).

إن أهون آثار هذا التفكير هو ما يجعل «النية» وحدها مقياسًا لحسن العمل أو قبحه، وهو ما قال به كانْت، وقد أحسن الشيخ محمد عبد الله دراز في الرد على هذا القول بما قاله سلفنا الصالح من قبل من أن «النية الصالحة لا تصلح العمل الفاسد».

يقول الشيخ: «نحن متفقون تمامًا مع (كانْت) فيما يقرره من أن أكثر الأعمال نفعًا، وكذلك أكثرها نزاهة ليست له قيمة أخلاقية إذا لم تصحبه -بل إذا لم تحدده- إرادة الخضوع للقانون، وأن أسوأ الأعمال لا يستتبع مسئولية إذا لم يكن قد خالف القانون عن عمد، ولكن شتان بين هذا وبين أن نقول في حالة العكس: إن أكثر الأعمال ضلالاً مع النية الحسنة يسترد كل قيمته ويصبح قدوة للسلوك الأخلاقي، فإذا كانت النية الطيبة تعذر صاحبها؛ فإن ذلك لا يستتبع أن تنزل منزلة مبدأ مطلق للقيمة الأخلاقية، وعلى سبيل الإيجاز، ولكي نعطي لتفكيرنا شكلاً أكثر وضوحًا وتحديدًا، نقول: إن النية شرط ضروري للأخلاقية، وهي على ذلك شرط للمسئولية، ولكنها ليست بأي حال شرطًا كافيًا لهذه أو تلك»(٢).

٣. إن الفلسفات التي تجاهلت مسئولية عموم الناس في التغيير والإصلاح، وقصرت ذلك على الفئات المؤثرة والحكام المتسلطين، هذه الفلسفات أمسكت بتلابيبهم في جانب واحد هو: المسئولية القانونية! ومن المدهش أنها عامة القوانين الوضعية تعاملت بقسوة، فعاقبت حتى المجنون والأطفال والمعتوهين؛ بل والحيوانات والجمادات، وعاقبت على ما وقع بالصدفة وما كان غير متَعَمَّدٍ أيضًا.

وتلك هي خلاصة البحث الواسع للفرنسي بول فوكونيه Paul Fauconnet، والتي

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص١٨١، ١٨٢.

(٢) السابق ص١٧٩، ١٨٠.

استعرض فيها أحوال المجتمعات البدائية والحضارات القديمة(١)، ومما جاء فيها أن التوراة(٢) عاقبت الثور القاتل بأنه «يُرجم ولا يؤكل لحمه، وهذا الإجراء مطبق حتى لو أقر المالك بأنه مذنب وعوقب بالموت».

وفي قوانين أفلاطون: «لو أن حيوانًا يقتل إنسانًا فإنه يُقتل، ويُرمى خارج الحدود، ولو أن شيئًا من الجماد يقتل إنسانًا فإنه يرمى كذلك خارج الحدود».

وكانت الدعاوى ترفع على الحيوانات في كافة أوروبا منذ القرن الثالث عشر حتى الثامن عشر؛ بل والتاسع عشر في المناطق الشرقية منها، وعوقب الأطفال والمجانين على ما يرتكبونه، وكانت تخفف العقوبات أحيانًا أو لا تخفف، ولقد أعدم طفل في الثامنة من عمره في إنجلترا في القرن الثامن عشر من أجل القتل أو الحريق، وقد كان على القضاة في فرنسا أن يصدروا العقوبة العادية ضد المجنون، ثم يختص البرلمان بتخفيف هذه العقوبة أو إلغائها، أما فيما يتعلق بجريمة الاعتداء على الذات الملكية فلا تخفيف فيها.

وكانت القوانين -التي سادت المجتمعات القديمة- تعاقب -أيضًا- على ما ارتكب عن غير قصد أو بالصدفة؛ ففي نظام دراكون (الذي بقي في أثينا حتى الغزو الروماني) كانت عقوبة القتل الخطأ هي النفي المؤقت، وفي أقدم القوانين الرومانية (قانون الألواح الاثني عشر) فإن الضحية الذي يُبتر له عضو من أعضائه، على إثر جناية غير متعمدة، كان يستطيع أن يجري القصاص إذا لم يقبل الدية، وفي القانون

---

(١) ولم يكن من بينها الحضارة الإسلامية، ولذلك انتهى في دراسته إلى ارتقاء الغرب حضاريًّا عن كل ما سبق، وهو ما أثار غضب الشيخ محمد عبد الله دراز؛ لأنه لم يبحث عن «المسئولية» في الإسلام، ولو فعلها لكان قد رأى أن الإسلام هو أول من تحدث عن المسئولية برقي غير مسبوق ولا ملحوق، وكادت لهجة الشيخ دراز تتهمه بالتعمد في هذا الإغفال، وترميه بالغرض في نصرة الحضارة الغربية الحديثة.

(٢) وهي التوراة المحرفة بطبيعة الحال لا التي أنزلها الله على موسى عليه السلام.

الصيني كان القاتل بطريق السهو أو الصدفة يعاقب بالجلد مائة جلدة وبالنفي، وفي التوراة عوقب القاتل غير العامد بنوع من النفي، ومن الممكن شرعًا لصاحب الدم أن يقتله لو أنه غادر منفاه قبل المدة المحددة، وفي القانون الكنسي كانت الكفارات القاسية تفرض خلال سنوات كثيرة للتكفير عن خطايا لا إرادية، ارتكبت بسبب الجهل، وفي إنجلترا حتى أوائل القرن التاسع عشر لم يكن القاتل غير المتعمد يفلت من الإدانة علاوة على مصادرة أمواله إلا بفضل رحمة الأمير، ويبرز هذا الوضع الأخير -أيضًا- في القانون الفرنسي القديم(١).

وبهذا نزعت المناهج الوضعية من البشر حقهم في إصلاح أحوالهم، ووضعتها بيد الحكام أو الكهان أو الفلاسفة، ثم ترصدت لهم فيما يفعلونه فعاقبتهم على غير ما قصدوه؛ بل عاقبت غير ذوي الأهلية!!

هذه الجولة في أحلام المدينة الفاضلة، ثم في فلسفة المسئولية المنبثقة عن المناهج الوضعية كانت مقدمة ضرورية لندخل إلى المنهج الإسلامي العظيم، فلا يعلم نعمة النور من لم يدرك شقاء الظلمات.

وصدق الله تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾

[البقرة: ٢٥٧]

* * *

---

(١) د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص٢٢٢ وما بعدها.

خلاصة الباب الأول:

الإنسانية الشقية الحائرة..

فشقاؤها: المظالم والجرائم والشهوات..

فالمظالم شائعة بين البلاد يأكل القوي الضعيف؛ حتى ينهكه ويحطمه أو يهيمن عليه حتى يستنزف ثروته، وشائعة داخل البلاد فيأكل القوي الضعيف والغني الفقير، المال دولة بين الأغنياء، والفقر شركة بين الفقراء.

والجرائم تذرع العالم شرقًا وغربًا، لا يفلت منها بلد غني أو بلد فقير، بل لطالما تتصدر البلاد الغنية إحصائيات الجرائم، والجرائم تبحث عن الضعفاء: الفقراء والمرضى والنساء والأطفال والأقليات، فتنزل بهم فلا يجدون دونها سبيلاً!

والشهوات تشمل عالم البشر، ولم يكبح الشهوةَ إشباعُها، ولم يُطفئها إرواؤُها، فانطلقت غرائز البشر تفسد في الأرض وتحطم ما بين الناس من روابط وعلائق، فتنتكس نفوسهم وتبطل عقولهم، ما بين الزنا والخمر واللواط وإدمان المخدرات يضيع الإنسان: روحًا وعقلاً وجسدًا!

وحيرتها: اختلافها على نفسها وترددها في البحث عن الحل والسبيل.

فكم تصور الفلاسفة والحكماء مدنًا فاضلة وأقوامًا يعيشون في سعادة؟! وجالت عقولهم تقص التفاصيل وتبين سريان الأمور وتقترح الحلول، وتقاربت عقول على غير تعارف، وتنافرت عقول مع رسوخ المعرفة والمعاشرة والتلمذة، وكم أخذ السابق من اللاحق وترك، وبعضهم أوغل وشذَّ واشتد واشتط، وفشلوا جميعًا في تطبيق قرائح عقولهم على واقع الحياة في أرض البشر.

ولما نظرنا في رؤيتهم لمسئولية الإنسان تجاه مجتمعه وعالمه؛ وجدنا تصورات ناقصة معيبة تخاطب بعضًا منهم وتنسى أكثرهم، وغالبها توجه إلى السلطة يرى فيها

الحل الأول والأخير؛ فصنعوا -حتى في خيالهم- نظمًا صارمة تتسم في أغلبها بطابع الجمود والاستبداد، فلم يتذكروا عموم الناس إلا حين أرادوا عقابهم على أفعالهم؛ فعاقبوهم لا على أفعالهم وحدها؛ بل على أفعال حيواناتهم وما كان عن غير قصد، بل عاقبوا الأطفال والمعتوهين والمجانين.

وهكذا الإنسانية.. شقية وحائرة!!

* * *

الباب الثاني

المنهج الإسلامي

الباب الثاني

المنهج الإسلامي

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾

[المائدة: ٣]

حين ندخل إلى رحاب المنهج الإسلامي الرباني، لا سيما بعد ذلك الاستعراض للمناهج والأفكار الوضعية في أمر بناء المجتمعات وفلسفة المسئولية لديها، نزداد إيمانًا بنعمة الله علينا بهذا الدين القويم.

يبدو المنهج الإسلامي في بناء أمر المجتمعات ومعالجة الخلل فيها كبناء كبير، مترابط متماسك، متزن منضبط، كالجسد الواحد الذي وصفه باعثه ومؤسسه محمد ﷺ بأنه «إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى».

هذا البناء الإسلامي يمكن دراسته عبر أربعة عناصر:

١. الأساس العقدي؛ إذ العقيدة تُشكِّل الأفراد -الذين هم في مقام اللبنات- كما تهيمن على المجتمع -الذي هو الكيان النهائي- فالعقيدة هي المادة الخام، التي أُخِذ منها أصل البناء وهي -أيضًا- أساسه وعليها مُستَقره.

وهذه العقيدة المهيمنة على المجتمع الإسلامي تخاطب الأفراد عبر تكليفات فردية، كما تخاطبهم جماعة عبر تكليفات جماعية، فترسم بناء لا ينهار باختلال أحد أجزائه، فلكل جزء مسئولياته، التي إن قام بها الجميع كان المجتمع مثاليًا، وإن قصَّر فيها بعضهم هرع إليه غيره من الأجزاء يشده إليه ويعيد تقويمه.

هذه العقيدة ستشكل العناصر الثلاثة الباقية:

٢. المسئولية الفردية؛ حيث الأفراد -الذين يمثلون اللبنات- مُكلفون بمهمات فردية ومسئوليات تقع على عاتقهم، ينبغي عليهم إقامتها، ولو لم يكن البناء قائمًا ولا أجزاؤه موصولة ببعضها، فذلك ما يفرض على اللبنات أن تكون ذات جودة وكفاءة وصفات في ذاتها.

٣. النظام العام؛ إذ يكون البناء متماسكًا مترابطًا بما قام بين أجزائه من روابط واتصال واستمساك متين، فتلك هي الروابط الاجتماعية بين الفرد وأسرته وعشيرته وقبيلته، ثم بين الأسر وبعضها، ثم بين العشائر وبعضها، ثم بين القبائل وبعضها، ثم الأخوة التي تجمع كل من يقول: «لا إله إلا الله». ومن وراء ذلك روابط الرحم والجوار والتواصل والإحسان لكل الناس، ولو لم يكونوا مسلمين.

ثم يكون البناء بعد التماسك والترابط متزنًا منضبطًا، كل أقسامه وأجنحته متسقة لا يبغي بعضها على بعض، فلا فضل لأحد على أحد بعرق أو لون أو جنس، وليس للسلطة أن تطغى على الأمة، كما ليس للأمة أن تتمرد بغير حق على السلطة، وليس للابن أن يعق أباه، ولا للأب أن يعق ابنه، ولا للرجال أن يقهروا النساء ولا للنساء أن يعصين الرجال في غير معروف، لكل جزء من هؤلاء حق على الآخر وواجب نحوه.

٤. ثم يبقى نظام الحماية العام، الذي هو بمنزلة جهاز الإنذار المنتشر في كل أرجاء المبنى؛ فهو كالمظلة العامة، فإن جاء صفير الخلل لم يتوان أحد عن التدخل والإصلاح؛ ذلك هو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، الذي يقوم به كل أحد تجاه أي أحد.

بهذه الصورة -التي ندعو الله أن يُوَفِّقنا لبيانها عبر فصول هذا الباب- تقوى لَبِنات البناء في ذاتها، ثم تشتد بعضها إلى بعض في روابط متينة تزيد من قوتها، ثم تتصل

أجزاء المبنى القوية في اتزان وانضباط يمنع بعضها من الطغيان على بعض.. فيرتسم قول النبي ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وشَبَّك أصابعه(١).

في هذا البنيان وحده يبرز المنهج الإسلامي الفريد «كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٢).

فالمسلم مسئول عن نفسه، ثم هو مسئول عمن حوله بما لديه من روابط وصلات رحم وجوار، ثم هو مسئول عن جماعة المؤمنين بما بينهم من صلة الدين، ثم هو بعد هذا مسئول عن البشر أجمعين باعتبارهم موطن الدعوة وشركاءه في تلك الأرض المأمور بعمارتها.

هذا التقسيم، وبيان جماله وإعجازه وافتراقه عن مناهج البشر، نستعرضه عبر أربعة فصول، ثم أضفنا فصلاً خامسًا عن تطبيق هذا المنهج عبر التاريخ، وكيف أنه لم يظل حبيس النصوص والنظريات، فصار الباب خمسة فصول على هذا النحو:

- **الفصل الأول**: الأساس العقدي.
- **الفصل الثاني**: التكليفات الفردية.
- **الفصل الثالث**: النظام العام.
- **الفصل الرابع**: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- **الفصل الخامس**: الإنجاز الإسلامي.

* * *

(١) البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٢) البخاري (٨٥٣)، ومسلم (١٨٢٩).

الفصل الأول

الأساس العقدي

كيف غرس الإسلام في نفس المسلم استشعار الواجب وتحمل الأمانة تجاه نفسه وأسرته وأمته؛ بل والإنسانية، بل والعالم أجمع؟

إننا لو استقرأنا القرآن الكريم وسنة نبينا محمد ﷺ لرأينا مسارين يعملان معًا فيتضافران ويتعاضدان، ثم ينتجان مزيجًا فريدًا وسبيلاً متينًا:

أولهما: غرس التوحيد الذي يضرب القيم الأرضية في مقتل، ويرتفع بنفس الإنسان إلى آفاق التحرر؛ حيث لا يكون ملتزمًا بأمر إلا بأمر الله، غير خاضع لسلطة أرضية أو أهواء بشرية، أو أفكار بالية، أو شهوات نفس طاغية، فحينئذٍ ينبعث في الأرض إنسان مختلف عن باقي البشر، إنسان متهيأ لتحمل الأمانة مستعد للتضحية.

ثانيهما: تعريف الإنسان بنفسه، ومهمته في هذه الحياة، تعريفه بهذا الكون من حوله، وبتلك الأرض التي يعيش عليها، ما الذي ينبغي أن يفعل تجاه نفسه وأهله وأمته والناس أجمعين، بل وتجاه الحياة كلها بأحيائها: نباتها وحيوانها وحشراتها وحتى جمادها! إنه التكليف بحمل الأمانة والسعي في الإصلاح.

وعبر هذين المسارين ينبعث المسلم إنسانًا متهيئًا لحمل الأمانة، مستعدًا للتضحية، مكلفًا بالإصلاح، فلا يتوقف عن ذلك؛ بل يبذل فيه نفسه وماله غير هياب ولا متردد، راجيًا ما عند الله من نعيم مقيم.

في هذا الفصل نتناول هذين المسارين عبر مبحثين:

- **المبحث الأول:** معنى «لا إله إلا الله» وآثارها
- **المبحث الثاني:** الاستخلاف في الأرض

معنى «لا إله إلا الله» وآثارها

كان أول ما طلبه النبي ﷺ حين بُعِث في مكة أن يشهد الناس بأنه «لا إله إلا الله»، ولأن القوم كانوا يعرفون معنى هذه الكلمة، ويدركون فيها انتزاعًا لسطانهم، وكبحًا لأهوائهم، وتسوية بينهم وبين عبيدهم، وإلزامهم بما لا تشتهيه نفوسهم من أخلاق وشرائع وأوضاع، فإنهم نفروا من هذه الكلمة وحاربوها أشد المحاربة(١)، وطفقوا يلتمسون عيبًا في القرآن بعد أن اعترفوا ببلاغته وقوته وعجزوا عن مثله، كما طفقوا يلتمسون عيبًا في النبي، على الرغم من أنهم شهدوا له طوال أربعين سنة بالصدق والأمانة والعفاف، تُرى ما السر في كل هذا؟!

أولاً: التحرر

السرُّ في أن القوم كانوا مثل «المذنب في ساحة القضاء بعدما انكشفت جريمته وثبتت إدانته»(٢)، فإن القوم الذين كثرت بأيديهم الأموال عجزوا جميعهم عن جمع مال حلال يكفي لإكمال بناء بسيط كالكعبة فتركوه ناقصًا(٣)، ففي ذلك دليل اعترافهم على أنفسهم بالغرق في الباطل والحرام، فكان أقسى ما يأتيهم دعوة تنطق بالحق، وتبغي تغيير الأوضاع وإتمام مكارم الأخلاق! فالتوحيد «هو قاعدة الفكر الإسلامي، ومن ثَمَّ القوة المُحَرِّكة والمُوَجِّهَة لفلسفة ونظام المجتمع الإسلامي، فنقطة الانطلاق هي تحرير الإنسان من عبودية الإنسان، وعبودية الأوهام، وعبودية الكائنات والطبيعة، فهو حرٌّ مطلق، منذ لحظة تسليمه بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى، أو بقبوله شرح معنى »لا إله إلا الله.. نفي وإثبات« وطرح هذا الفهم وقبوله،

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢/ ١٠٠٥.

(٢) محمد الغزالي: فقه السيرة ص٧٩.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية ١/ ١٩٤ وما بعدها.

يقود إلى رفض الاستكانة لاستبداد السلطة»(١).

إن عقيدة التوحيد تدمر سلطان البشر، فلا سلطان لأحد على أحد إلا بما أمر الله، وذلك يعني سقوط شرائع الاستعباد والإذلال، وسقوط مسالك الغلبة والقهر والظلم، وهي روح هادرة تنبعث في نفوس المظلومين والمقهورين لتحررهم من سلطة الملوك أو الكُهَّان أو السادة؛ لتجعلهم وجميع البشر سواءً، كلهم أمام الله سواء، كلهم يخضعون لمنهج الله ودينه، كلهم يتفاضلون بالعمل الصالح الذي يملكونه لا بأحساب وأنساب لم يخترها أحد لنفسه.. إنه التحرر الكبير الذي يخلق جيلاً حرًّا، مخلصًا، ثائرًا، مصلحًا، متفجر الطاقات والمواهب، مستعينًا بالله تبارك وتعالى على مهمته الجليلة.

ثانيًا: المسئولية

والمسئولية ابنة التحرر، فهو يُنْتِجها، بل هي التطبيق العملي له، فلا معنى للتحرر من دون استشعار واجب تحرير الناس من أغلالهم وقيودهم، وهذا المفكر الفرنسي الشهير الذي انتهى إلى الإسلام -رجاء جارودي- يتحدث عن التوحيد؛ فيكون أول ما يلفت نظره هذه الحركية التي تنشأ عن استشعار المسئولية، والتي تنافي التواكل والسلبية، يقول: «سوف يكون غريبًا اعتبار عقيدة -قادت المسلمين في غضون ثلاثة أرباع القرن إلى تجديد أربع حضارات كبرى، وإلى الإشعاع على نصف العالم- عقيدةً قَدَريةً منقادة، هذه الدينامية في الفكر والعمل هي عكس القدرية؛ لقد اقتادت ملايين الناس إلى التأكد من أنه كان يمكنهم أن يعيشوا على نحو آخر»(٢).

وكما أن التحرر يقود المسلم إلى أن لا يقهره أحد، ولا يتحكم فيه أحد، فإنه

---

(١) محمد جلال كشك: السعوديون والحل الإسلامي ص٨٩، ٩٠.

(٢) رجاء جارودي: وعود الإسلام ص٣٢، ٣٣.

يقوده -أيضًا- إلى ألا يمنعه عن القيام بواجبه أحد[١]، فهو خليفة الله في أرضه لرفع الظلم عن المظلومين جميعًا، هذه هي الخلاصة التي شرح بها ربعي بن عامر رضي الله عنه مهمة المسلمين أمام رستم قائد الفرس قائلاً: «الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فَمَنْ قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا؛ حتى نفضي إلى موعود الله»[٢].

ثالثًا: انتفاء الواسطة بين الله وعباده

وانتفاء هذه الواسطة يدعم «المسئولية» من جهتين؛ الأولى: رفع القيود والعوائق عن القائم بالمهمة؛ فلا يتوقف لانتظار إذن من أحد في تنفيذ تكليف إلهي، ولا يُسَلِّم لأحد قياده في غير معروف؛ إذ «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ»[٣]، و«لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»[٤].

والثانية: هو وضع المسلم أمام رقابة ربه، لا أمام ملك أو رئيس أو كاهن أو

---

(١) يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: «حق الوالدين (وهو أعظم الواجبات بعد التوحيد) لا يخولهما سوى سلطة محدودة ومشروطة، ذلك أن هذه السلطة لا تتوقف فقط عندما يطلبان منا أن نخون الإيمان، أو نرتكب ظلما أيا كان ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ [العنكبوت: ٨]، بل إن الوضع ينقلب عندما يرتكبان ظلما، وحينئذ يجب على الأولاد دعوتهما إلى الواجب، وبوسعهم أيضا أن يوقفوهما أمام القضاء، ألا ما أعظم ما يشعر به المسلم نحو أبويه من احترام وما أعمق ما يكنه لهما من حب، ولكن حبه للحق واحترامه للعدالة يجب أن يرجع عنده. وعلى حين يُحَرِّم قانون نابليون على الابن أن يشهد ضد أبيه وأمه في قضية مدنية أو جنائية نجد أن القرآن يقول بعكس ذلك». دستور الأخلاق في القرآن ص١٤٣، ١٤٤.

(٢) الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٤٠١.

(٣) البخاري (٦٧٢٥)، ومسلم (١٨٦٣).

(٤) مسلم (١٨٤٠).

شيخ، فيعجز عن الخداع والالتفاف والمناورة، بل يستقر في ضميره أن يقوم بواجبه على الوجه الذي يرضاه الله، فإذا أخطأ أو قَصَّر أو تكاسل لم يسعَ في إخفاء هذا أو تبريره أو التنصُّل منه، فكل هذا مكشوف عند الله الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، و﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، بل يكون السعي في التوبة والرجوع ورفع آثار الخطأ والتقصير.

رابعًا: تحديد مصدر المعرفة

وذلك أن التأسيس للتوحيد يستتبعه الإجابة عن الأسئلة الوجودية: ما الإنسان؟ ما الطبيعة؟ أين كنا قبل الوجود؟ وأين نصير بعد الموت؟ وما معايير الصواب والخطأ؟ وكيف نفرق بين الحسن والقبيح؟ وكيف ينبغي أن نحيا في هذه الدنيا؟ وما دورنا فيها؟ وما علاقة الإنسان بغيره من البشر أو بغيره من الكائنات؟

وهذه الأسئلة الثلاثة الأخيرة هي ما يهمنا أن نركز عليها في مقام بحثنا الآن، وسنجد في كتاب الله الجواب، وموجز هذا الجواب وخلاصته الأخيرة تجمعها آيتان في كتاب الله؛ قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وبهذا سنبصر كيف أن الله حَمَّل بني آدم مسئولية وأمانة الأرض كلها، بكل ما عليها من مخلوقات: البشر والحيوان والنبات وحتى الحشرات والجماد! وذلك أرفع معنى وأسمى مقام في قضية «استشعار وتحمل المسئولية»، وهو ما نتعرض له بتفصيل أكبر في المبحث التالي.

* * *

الاستخلاف في الأرض

جعل الله بني آدم خلفاء الأرض، وسخر لهم ما فيها، ولهذا فإن العلاقة بين الإنسان وكل ما في الطبيعة إنما هي علاقة رائقة راقية شريفة، فالمسلم ينظر إلى الأرض وما فيها باعتبارها مخلوقات الله الصادرة عن ذات الإله، والمشتركة معه في العبادة والتسبيح، والمسخرة لخدمته ومنفعته وتيسير الحياة عليه، وهم -بعد كل هذا- أمم مثل البشر(١).

وهكذا ينظر المسلم إلى ما حوله نظرة صداقة ومودة وتعرُّف وأنس(٢)، فلا يرى في الكون إلهًا يُرجى ويُخشى -كما في بعض الديانات- كما لا يراه عدوًّا يحتاج أن يُقهره كما يُعَبِّر الغربيون عادة عن «قهر الطبيعة»(٣).

وقد ظل الإنسان يستفيد من مخلوقات الله في رحلة بنائه للحضارة، وقد ذكر القرآن كيف عَلِمَ الإنسان من تعاقب الليل والنهار عدد السنين والحساب، واهتدى بالنجوم في ظلمات البر والبحر، وتعلم ابن آدم من غراب كيف يدفن أخاه، وتعجَّب نبي الله سليمان من نصح وفصاحة نملة، واستمع باهتمام لتقرير سياسي وديني من هدهد(٤).

بل قال مؤرخ الحضارة ول ديورانت بأن تلك المخلوقات هي أول منشئ

---

(١) قال تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ١١]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والآيات الدالة على هذه المعاني كثيرة.

(٢) سيد قطب: في ظلال القرآن ١/ ٢٥.

(٣) د. يوسف القرضاوي: رعاية البيئة في شريعة الإسلام ص٣٤.

(٤) انظر الآيات: [يونس: ٥]، [الأنعام: ٩٧]، [المائدة: ٣١]، [النمل: ١٩]، [النمل: ٢٣ - ٢٦].

للمدنية بتعليمها الإنسان فن الادخار، وطريقة اختزان خيرات الصيف لتسعفه في قسوة الشتاء(١).

ومثلما انتفع الإنسان بما خلق الله في الأرض في الطعام والشراب والمسكن والسفر، فقد انتفع بها جمالاً أخاذًا وسحرًا جذابًا.

فالحدائق خلقها الله جميلة ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠].

والثمار تستدعي النظر بنضارتها وينعها ﴿خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩].

والحياة لا تكتفي دائمًا بقضاء الضرورة بل الزهور فواحة بالعطور، والفراشات متفجرة بالألوان، وحمرة الشفق تداعب الخيال، ونور القمر يثير كوامن المشاعر، والجبال لا تكتفي بأن تكون جبالاً بل تتلون وتكتسي بالثلوج أو الزروع أو غيره، والطير يسقسق ويغرد ويلعب ويقفز وتزهو منه الألوان، والحيوان يقفز ويمرح ويتخابث في لطف(٢).

بعد هذا الاستعراض للأساس المعرفي الذي يستقر في قلب المسلم تجاه الكون من حوله، نستطيع أن نتوقَّع سلوك المسلم نحو هذا الكون، ما فيه ومن فيه، فذلك السلوك هو: الاستخلاف في الأرض الوارد في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقد قرر المفسِّرون أن كلمة «خليفة» تعني أن الإنسان ليس مطلق اليد في سلوكه تجاه الكون، بل هو – كما يقول البغوي– «خليفة الله في أرضه لإقامة أحكامه وتنفيذ

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١/ ١٢.

(٢) محمد قطب: قبسات من الرسول ص١٠٥ وما بعدها، منهج التربية الإسلامية ص١٤٩، ١٥٠ (باختصار).

وصاياه»(١)؛ ولذلك فإن «خلافة الإنسان على الأرض تجعله وصيًا لا مالكًا، محافظًا أمينًا، عليه أداء حقوق الأمانة، متنعِّمًا بحقٍّ، مؤديًا حقَّ الشكر للمنعم بما يكفل له حقَّ دوام النعمة: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]، وخاصَّة أن كفران النعمة موجب لزوالها»(٢).

وذلك أساس فارق وخلاف جوهري بين النظرة الإسلامية والنظرة المادية للطبيعة، فارق بين معنى المسئولية والرعاية للأمانة والوديعة، والتي سيعقبها حساب وجزاء في اليوم الآخر، وبين معنى الامتلاك الكامل الذي تطرحه النظرة العلمانية المادية المستندة إلى «مفهوم شاذ عن الطبيعة يعتبرها كما لو أنها «ملكية» خاصة لنا، يحق لنا استخدامها والإفراط باستخدامها إلى حد أنه لم يعد يرى فيها إلا مخزنًا للثروات ومستودعًا لنفاياتنا» (٣).

ذلك أن العلمانية -التي لا تؤمن بإله وليس لها دين- لا ترى في الطبيعة إلا أنها «مادة استعمالية لا قداسة لها، توظَّف وتصنَّع وتستهلَك وتولَّد منها الطاقة من أجل تحقيق لذة الإنسان ومنفعته، الأمر الذي يتطلب المزيد من استهلاك مصادر الطبيعة بمعدلات لا نظير لها في تاريخ الإنسان، ويؤدي هذا إلى تلوث البحار والأرض والسماء (موت الطبيعة) (٤).

وانطلاقا من هذا الأساس نرى الإسلام يرفض مجرد الإسراف في استعمال

---

(١) البغوي: معالم التنزيل ١/ ٧٩، وانظر: ابن عطية: المحرر الوجيز ١/ ١٠٢، والعز بن عبد السلام: تفسير القرآن ١/ ١١٤، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/ ٢٦٣، والبيضاوي: أنوار التنزيل ص٢٧٧، وسراج الدين الحنبلي: اللباب في أسرار الكتاب ١/ ٥٠٠، ٥٠١، ورشيد رضا: تفسير المنار ١/ ٢١٦.

(٢) بدوي محمود الشيخ: قضايا البيئة من منظور إسلامي، ص٨٨.

(٣) رجاء جارودي: وعود الإسلام ص٢٠.

(٤) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ٢/ ١٢٠.

الموارد مهما كانت كثيرة؛ فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله مرَّ بسعد وهو يتوضأ. فقال: «مَا هَذَا الإِسْرَافُ؟» فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نَعَمْ؛ وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»(١). ونراه يأمر بالإحسان فيما هو «أبعد شيء عن اعتبار الإحسان وهو الإحسان في القتل»(٢)، فذلك قول النبي ﷺ: «فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»(٣).

وفي الإسلام وحده تكون إماطة الأذى عن الطريق صدقة(٤) ومن خير أعمال الأمة(٥) ومن أسباب دخول الجنة(٦)، وفي الإسلام وحده تدخل امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض(٧)، وفي الإسلام وحده نهي عن قتل ما لا يضر أو صيد ما لا ينفع واعتباره قتلاً عبثًا(٨)، ولا نجد في سوى أهل الإسلام من يفتي بأن قتل النملة مكروه إذا لم تبتدئ بالإيذاء(٩)! أو من يفتي بأنه إذا

---

(١) ابن ماجه (٤٢٥)، وأحمد (٧٠٦٥)، وضعفه الألباني في التعليق على سنن ابن ماجه، وضعف إسناده شعيب الأرناءوط في التعليق على مسند أحمد، ثم تراجع الألباني وحسن إسناده (السلسلة الصحيحة ٣٢٩٢)، وذلك أن الذهبي ذَكَر (سير أعلام النبلاء ٨/ ١٦، ١٧) أن رواية قتيبة بن سعيد عن ابن لهيعة لم تكن مجرد سماع؛ بل كان يأخذ الحديث من كتاب عبد الله بن وهب وهو أحد العبادلة الذين رووا عن ابن لهيعة قبل مرضه أو احتراق كتبه، ولهذا تقبل رواية قتيبة (السلسلة الصحيحة ٢٨٤٣).

(٢) الصنعاني: سبل السلام ٤/ ٨٨.

(٣) مسلم (١٩٥٥).

(٤) البخاري (٢٨٢٧).

(٥) مسلم (٥٥٣).

(٦) البخاري (٢٣٤٠)، ومسلم (١٩١٤)، وابن ماجه (٣٦٨٢)، وهذه رواية ابن ماجه.

(٧) البخاري (٢٢٦٣)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٨) قال ابن عباس رضي الله عنهما : «إن النبي ﷺ نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد». (الصرد طائر صغير)، وكلام العلماء دائر في أن قتل هذه الدواب عبث؛ لأنه لا ينتفع به. انظر: الطحاوي: شرح مشكل الآثار ٢/ ٣٣٠، ٣٣٢، الخطابي: معالم السنن ٤/ ١٥٧.

(٩) ذلك قول الأحناف، انظر: ابن نجيم الحنفي: البحر الرائق ٨/ ٢٣٢، نظام الدين البلخي: الفتاوى =

أمكن صرف أذاها بغير قتل لم يَجُز القتل وكان مكروهًا[١]!! ويكفي هذا في مقام ضرب المثال.

إن استخلاف الله للإنسان في الأرض واحتمال الإنسان هذه الأمانة، ألزم المسلم بالمسير في طريقين: مسئولية إعمار الأرض، ومحاربة الفساد فيها.

فأما مسئولية إعمار الأرض فهي -كما ذكر المفسرون- من مقتضيات كون الإنسان خليفة فيها، وقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أنها بمعنى: استخلفكم فيها[٢]، ونُقِل عن بعض العلماء أن تعمير الأرض واجب، فقالوا: «الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب»[٣].

وأما مقاومة الفساد فأصله في قول الله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وهو يكون بالوقاية أولاً؛ فإن تعذر ذلك فبالإزالة والعلاج، ففي شأن الوقاية يقول النبي ﷺ: «لا ضَرَر ولا ضِرار»[٤].

وتلك هي قاعدة نفي الضرر؛ التي لا تجيز لأحد إيذاء أحد إلا في حال الانتصاف من ظلم سابق، وبالطريقة الشرعية المنضبطة[٥]، والضرر هو الإيذاء في سبيل المنفعة؛ بينما الضرار هو الإيذاء وإن لم تكن ثمة منفعة[٦].

= الهندية ٥/ ٣٦١، محمد بن أبي بكر الرازي: تحفة الملوك ١/ ٢٤٠.

(١) وذلك قول المالكية، انظر: القرافي: الذخيرة ١٣/ ٢٨٧، النفرواي: الفواكه الدواني ١/ ١٠٢، الآبي: الثمر الداني ١/ ٧١٨.

(٢) ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٠٤٨.

(٣) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٥٦.

(٤) أحمد (٢٣٤٥)، وابن ماجه (٢٣٤٠)، والحاكم (٢٣٤٥) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم. ووافقه الذهبي. وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٢٥٠).

(٥) ابن عبد البر: التمهيد ٢٠/ ١٦٠.

(٦) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ص٣٠٤.

ومن هذه القاعدة استنبط العلماء قواعد في إزالة وعلاج الضرر منها:

١ – الضرر يزال بقدر الإمكان.

٢ – الضرر لا يزال بضرر مثله.

٣ – يُتحمَّل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى.

٤ – يُتَحَمَّل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

٥ – يُختار أهون الشرين.

٦ – درء المفاسد أولى من جلب المنافع.

٧ – الضرورات تُقَدَّر بقدرها.

٨ – الاضطرار لا يُبطل حق الغير.

٩ – الحاجة تنزل منزل الضرورة.

١٠ – ما أُجيز لعذر بطل بزواله (١).

بهذا المنهج يسعى المسلمون إلى إصلاح الحياة على هذه الأرض.

فالمسلم يعرف أنه مُخْتارٌ لهذه المهمة من قِبَل الله: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢].

وأن نبي الله محمدًا إنما أرسله الله ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، يدعو الناس لإخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

وأن الله وضع هذه الأمة في مقام الشاهد على الأمم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) د. يوسف القرضاوي: رعاية البيئة في شريعة الإسلام ص٤٠ وما بعدها.

ويؤمن المسلم أن «خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ»[(١)]، حتى إن المشي في حاجة المحتاج أفضل من الاعتكاف في مسجد النبي ﷺ شهرًا[(٢)]، بل إنه يكسب أجرًا إن غرس غرسًا فأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة[(٣)].

وعلى المسلم أن يستمر في العمل حتى اللحظة الأخيرة في هذه الدنيا كما قال النبي ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[(٤)].

والكلام في هذا الأمر يطول، وسيأتي في بحثنا طرف منه إن شاء الله تعالى.

وهذه المسئولية أمر جدٌّ لا لعبٌ وفصلٌ لا هزلٌ، يجد المسلم حسابها عنها يوم القيامة حيث ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء:٨٨]، وحيث ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ⑪ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ⑬ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ⑭﴾ [المعارج: ١١ - ١٤].

مسئولية يستحثها شوق إلى جنة ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فيها «مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»[(٥)].

أدنى الناس فيها منزلة من له «مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا»[(٦)].

مسئولية يدفعها خوف من نار ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) السلسلة الصحيحة (٤٢٦).

(٢) السلسلة الصحيحة (٩٠٦).

(٣) البخاري (٢١٩٥)، ومسلم (١٥٥٣).

(٤) أحمد (١٣٠٠٤)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٥) البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤).

(٦) البخاري (٦٢٠٢)، ومسلم (١٨٦).

وصفها خالقها بأنها ﴿لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ١٥ - ١٨]، وبأنها ﴿تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ(١)﴾ [المرسلات: ٣٢، ٣٣].

ينادي أهلها خزنتها ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩].

فالأمر جد كبير وعظيم، به يتحدد المصير الرهيب، فإما الجنة وإما النار.. وكفى بهذا المعنى وحده دافعًا لتحمل المسئولية الكبرى؛ تحملاً لا هوادة فيه، ولا تلكؤ ولا بطء ولا تردد.

هكذا أنشأ الإسلام الأساس العقدي في التعامل مع هذا الكون، هذه الأرض بما ومن عليها:

١. فالتوحيد يحرر الإنسان من مفاهيم بالية، ومن سلطات غاشمة، ومن أهواء البشر، ويجعل الإنسان أمام الله وحده.

٢. والاستخلاف في الأرض يلزمه بتحمل المسئولية، ورعاية الأمانة تجاه كون جميل مخلوق له ومسخر لخدمته ويغمره بالنفع والمتعة، فهو يلتزم بإعماره وإنمائه، كما يلتزم بمكافحة إفساده، ويلتزم بدعوة الناس وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا وفي الآخرة.

* * *

(١) جمالة صفر: الجِمَال الضخمة السوداء.

الفصل الثاني

التكليف الفردي

وبعد أن وُضِع الأساس العقدي الذي يصنع الإنسان (بالتوحيد) ويرشده إلى مهمته ودوره في الحياة؛ وذلك بحمل الأمانة وتعمير الأرض ومقاومة إفسادها (الاستخلاف في الأرض)، بعد هذا تأتي تجليات المنهج وتطبيقاته العملية.

ونحن في هذا الفصل نعيش مع التطبيق الأول أو التطبيق الضيق، وهو إنشاء شخصية المسلم في ذاته، التي تشبه تصنيع اللبنة التي تجتمع مع غيرها لإنشاء البنيان الشامخ الراسخ؛ فذلك هو «التكليف الفردي»، ودوره أن يكون المسلم -في ذاته- صالحًا وساعيًا في إصلاح غيره بما استطاع من إمكاناته مهما قلَّت، ومهما كان ضغط الواقع والظروف والسُّلُطات والمجتمعات.

ولهذا نلاحظ أن الإسلام حرص على اتصاف الشخصية المسلمة بأمور واضحة، وترجم هذا في تكليفات كثيرة اجتهدنا في استقرائها؛ فوجدنا تنتظم في خمسة أمور هي:

الأول: عموم المسئولية؛ حيث لا يوجد في المسلمين رجل غير مكلف أو غير مسئول؛ فلكل مسلم دور وطاقة يبذلها، كل على قدر وسعه واستطاعته؛ ومن ثَمَّ فكل مسلم مسئول، كل مسلم راعٍ وله رعية ومسئولية، حتى الخادم الذي عالمه هو بيت مخدومه!

الثاني: استقلال الشخصية المسلمة؛ إذ لا يكون المسلم تَبَعًا ولا إمعة، بل هو منسجم في المجتمع الصالح وغريب في المجتمع الفاسد، ومهما بذل المجتمع

الفاسد من ضغوط فإنه وإياه كالزيت والماء لا يختلطان ولا يندمجان.

الثالث: التكوين الأخلاقي للمسلم؛ وهو التكوين الذي يجعله عنصرًا فاعلاً فيما حوله ومن حوله، يجذبهم إليه بما يحمل من أخلاق وسجايا، ثم يرعاهم ويرفق بهم وهو يُوَجِّههم ويهديهم إلى صراط الله المستقيم، وهو التكوين الذي يجعله عقبة كَأْدَاء أمام الباطل وإفساده، فلا يلين ولا يستكين، ولا يقيل ولا يستقيل، بل يكافحهم ويجاهدهم حتى يفتح الله بينه وبينهم، وهو خير الفاتحين.

الرابع: التكليفات المتكاملة؛ وهي التكليفات التي تقوم بدور العلاج حين وقوع الخلل؛ فالمسلم بشر غير معصوم، وهو بحاجة إلى مَنْ يستدرك أخطاءه ويحتوي زلاته، حتى تكون أخطاء المسلمين كبشر أخف أثرًا وأقل ضررًا وأسرع زوالاً.

الخامس: حرمة اليأس؛ فيمتنع عن المسلم الانسحاب من مهمة الحياة، أو الانهزام أمام ضغوط الواقع وقهر الظروف؛ بل هو يغالبها بسنن الله، ويفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، ويبذل ما استطاع؛ ثم يُفَوِّض أمره إلى الله، والله بصير بالعباد.

هذه الأمور الخمسة نتناولها بما يسمح به المقام من تفصيل عبر خمسة مباحث:

- **المبحث الأول:** عموم المسئولية.
- **المبحث الثاني:** استقلال الشخصية المسلمة.
- **المبحث الثالث:** التكوين الأخلاقي للمسلم.
- **المبحث الرابع:** التكليفات المتكاملة.
- **المبحث الخامس:** حرمة اليأس.

عموم المسئولية

جاء الإسلام بالمساواة بين البشر؛ وأعلن القرآن للناس جميعًا أنهم عند الله سواء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وفي خطبة الوداع التي كانت بيانًا عالميًّا للناس قال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى»(١).

وهذا التفاضل يكسبه الإنسان بنفسه لا بنسب ولا بأرض ولا بلون، فإن « اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»(٢).

وبهذا لم تعد المساواة شعارًا جميلاً؛ بل هي واحدة من أهم آثار التوحيد وثمراته، فحيث إن الله ليس بينه وبين أحد نسب، وحيث إن الله لا يحابي أحدًا من خلقه، فإن جميع الناس أمام الله سواء(٣)!

---

(١) أحمد (٢٣٥٣٦)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح، والبيهقي في شُعَب الإيمان (٥١٣٧)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٢٧٠٠).

(٢) مسلم (٢٥٦٤).

(٣) راجع ما كتبناه في فصل «فلسفة المسئولية في المناهج الوضعية»، وكيف أن الرؤية المادية كان يستحيل عليها أن ترى البشر متساوين؛ لأن المساواة بين البشر اختيار أخلاقي وليست حقيقة مادية، وفي هذا الصدد يقول المفكر والمجاهد علي عزت بيجوفيتش: «إن المساواة والإخاء بين الناس ممكن فقط إذا كان الإنسان مخلوقًا لله، فالمساواة الإنسانية خصوصية أخلاقية وليست حقيقة (مادية)، إن وجودها قائم باعتبارها صفة أخلاقية للإنسان، كسمو إنساني أو كقيمة مساوية للشخصية الإنسانية، وفي مقابل ذلك إذا نظرنا إلى الناس من الناحية المادية فالناس غير متساوين... فطالما حذفنا المدخل الديني من حسابنا سرعان ما يمتلئ المكان بأشكال من اللا مساواة: عرقيًّا وقوميًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا. إن السمو =

وعموم المسئولية هو الأثر المباشر من آثار المساواة التي رسخها الإسلام، فلم تعد مسئولية القيام بالدين وإصلاح أمر الحياة من اختصاص فئة دون فئة أو قوم دون قوم؛ بل صار كل فرد في ذاته صاحب مسئولية هو ملزم بالقيام بها، ثم هو مسئول عنها أمام الله تبارك وتعالى، فالحساب سيشمل كل فرد ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٩٥]، ولكل إنسان سجل حسابه وحده ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]، وسيُسأل عن كل شيء ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، وأخبر النبي أنه «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ: عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»(١).

ويبدو أمر عموم المسئولية واضحًا جليًّا مفصلاً في الحديث النبوي الذي جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». قال (ابن عمر): فسمعت هؤلاء من رسول الله ﷺ وأحسب النبي ﷺ قال: «وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٢).

ومن هذا الحديث ثبت أنه لا وجود لعاطلٍ أو مهمَلٍ في الحياة الإسلامية، حتى

= الإنساني لم يكن من المستطاع اكتشافه بواسطة علم الأحياء أو علم النفس أو بأي علم آخر». الإسلام بين الشرق والغرب ص١٠٠.

(١) الترمذي (٢٤١٧) وصححه الألباني.

(٢) البخاري (٢٢٧٨)، ومسلم (١٨٢٩).

الخادم الذي عالَمُه هو بيت سيده، وحتى الرجل الذي حدود تصرُّفه ما أعطاه له أبوه من المال، ومن هنا فارق الإسلام المناهج الوضعية واستثمر كل الطاقة البشرية في القيام بمهمة الإصلاح(١)؛ فلم يعد ممكنًا أن يحسب أحد أنه ليس بمكلَّف، أو أنه خالٍ عن المسئولية.

وثبت - من هذا الحديث أيضًا- رعاية الإسلام لشأن الفرد في خاصة نفسه مهما صغرت أو قَلَّتْ حدود عالمه ودائرة عمله، ومن آثار هذا أنه يجعل شخصية المسلم هي خط الدفاع الأخير أمام موجات الإفساد وبلوغه ذروته، كما يجعلها خط البناء الأول في رحلة الكفاح والإصلاح، فنطاق المسئوليات الصغيرة الخاصة هو مما لا تصل إليه يد سُلطة؛ لأنه مستقرٌّ في الضمير، ولا سلطان على الضمير إلا سلطان الله ورقابته؛ ومن هنا فإن لدى المسلمين دائمًا وفي أحلك الأوقات بذور صالحة في نفسها تطبق منهج الإسلام وتكاليفه في مساحة نفوذها مهما صَغُرَت؛ فهي من ثَمَّ بداية كل تغيير وإصلاح وعندها تتكسر منظومات الإفساد مهما كانت قاهرة وطاغية، فمن ذا الذي يستطيع الدخول في الضمائر(٢) وإفساد عمل المرء في خاصة أهله، أو المرأة في

---

(١) من أبرز مشكلات رؤية أفلاطون -ثم تلميذه أرسطو- تقسيم الناس إلى طوائف ثلاث (المشرعون - المحاربون والصناع- العبيد). واعتبر أن الطائفة الأولى هي التي خُلقت لتحكم وسماها «الطائفة الذهبية»، والثانية طائفة مخلوقة للطاعة العمياء وسماها «الطائفة الحديدية»، والثالثة هم الماشية مثلهم مثل البهائم العاقلة، ومن هنا كان اعتماد أفلاطون في رؤيته لحلم المدينة الفاضلة قاصرًا على طبقة المشرعين أو الحكماء أو الفلاسفة، فكانت الطاقة التغييرية -لو صح التعبير- متركزة في أعلى الهرم، وظلت الأفكار تدور حول هذا الأمر حتى أتى ماركس في العصر الحديث فَنَظَر في فلسفته للتغيير بالمنظور الأفلاطوني نفسه، ولكنه قلب الهرم، فاعتبر أن التغيير يأتي من الأسفل، من طبقة العمال (إذ لم يكن في وقت ماركس عبيد كما كانوا في وقت أفلاطون، فكان عبيد عصر ماركس هم العمال). ويكفى ما عاشاه العالم والدول الشيوعية من آثار لنحكم على نجاح هذه النظرية.

(٢) إن أشهر مثال يمكن ضربه هنا هو حال مسلمي الأندلس بعد سقوطها، فبرغم الأهوال التي تعرضوا لها من محاكم التفتيش وأنوع العذاب الوحشي ومطاردة الإسلام بكل طريق، إلا أن الإسلام ظل باقيًا =

بيت زوجها، أو الرجل في مال أبيه؟!

ولقد تبدَّى أثر الإسلام في استثارة الطاقة البشرية لدى الناس جميعًا منذ اللحظات الأولى في عمر الرسالة المحمدية؛ فلقد وجدنا في الفوج الأول من المسلمين أناسًا من العبيد والموالي؛ مثل: بلال بن رباح، وزيد بن حارثة، وشقران (مولى النبي)، وعمار بن ياسر ووالده، وعامر بن فهيرة (مولى أبي بكر) ووالده، كما نجد عددًا من النساء في مجتمع يحتقر المرأة ولا يراها ذات شأن؛ مثل: خديجة بنت خويلد، وبنات النبي جميعًا، وسمية بنت الخياط (أم عمار بن ياسر)، وفاطمة بنت الخطاب (أخت عمر بن الخطاب)، وأسماء بنت أبي بكر، وأسماء بنت سلامة (زوجة عياش بن أبي ربيعة)، وأسماء بنت عميس (زوجة جعفر بن أبي طالب)، وفاطمة بنت المجلل (زوجة حاطب بن الحارث)، وفكيهة بنت يسار (زوجة حطاب بن الحارث)، ورملة بنت أبي عوف (زوجة المطلب بن أزهر)، وأم عامر بن فهيرة، وأمينة بنت خلف (زوجة خالد بن سعيد بن العاص)، وأم أبي ذر الغفاري، بل ونجد من الغلمان كذلك مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(١)].

ثم اضطرد هذا مع امتداد الأيام حتى وصل الأمر بعمر بن الخطاب العربي القرشي أن يقول عن العبد الحبشي بلال بن رباح «أبو بكر سيِّدُنا وأعتق سيِّدَنا»[(٢)].

= في السر في كثير من النفوس لمدة خمسة قرون (وهذه فترة لا نعرف أطول منها في الصمود)، وتروي كتب التاريخ وقائع مذهلة في الاحتفاظ بالإسلام سرًّا في البيوت وفي خاصة النفوس والأهل. ونستطيع أن نروي مثل ذلك أيضًا عن المسلمين في روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى ومناطق القوقاز. انظر مثلا: لوي كارداياك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون؛ المجابهة الجدلية. ترجمة د. عبد الجليل التميمي.

وانظر الفيلم الوثائقي «المساء الأخير»، أذيع في جزئين على قناة الجزيرة بتاريخ ٢٦/ ٨/ ٢٠١٠م.

(١) د. علي الصلابي: السيرة النبوية ص٨٦ وما بعدها.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/ ٢٣٣.

ولقد توقفت السيرة عند امرأة عجوز لا نعرف عنها إلا أنها كانت تنظف المسجد، فافتقدها النبي ﷺ ذات يوم فأخبروه بأنها ماتت، فعاتبهم أن استصغروا أمرها فلم يخبروه، وقال ﷺ: «أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي... دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا». فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا»(١). فتلك العجوز انبعثت لمهمَّة لا تقدر على غيرها من مهمات دولة الإسلام، وبذلت في ذلك جهدها، فاستحقت في الدنيا خلودًا وسيرة حميدة تتلى على المسلمين إلى يوم القيامة، وفي الآخرة خير الجزاء بصلاة النبي ﷺ ودعائه.

ومثل ذلك سيدنا عمرو بن الجموح رضي الله عنه الذي كان أعرج؛ ولكنه أصر على الجهاد على الرغم من أن الله عذره هو وأمثاله، وعلى الرغم من أن له أربعة أبناء يجاهدون مع النبي ﷺ؛ بل قال: «يا رسول الله إن بني هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، والله! إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه في الجنة». فأذِن له النبي ﷺ فقُتِل يوم أُحد شهيدًا(٢).

وكذلك سيدنا عبد الله بن أم مكتوم، الرجل الأعمى، الذي ختم حياته بالخروج للجهاد في القادسية؛ بل وحمل اللواء للمسلمين ليساهم في تكثير سوادهم، ولكي لا ينسحب إن انسحب غيره؛ لكونه أعمى، ومات فيها شهيدًا(٣).

ورأينا عبر التاريخ الإسلامي كله كيف برز الموالي وأبناء الأرقاء؛ حتى صاروا أئمة العلم وقادة الجهاد؛ بل صاروا الأمراء والملوك فيما بعد، بل في عهد الدولة الأموية -التي تُرمى بالتعصب للعرب ضد الموالي- نرى «سرجون بن منصور الرومي كاتبًا لمعاوية على ديوان الخراج، وكان مرداس كاتب زياد ابن أبيه، وكان

---

(١) البخاري (٤٤٦)، ومسلم (٩٥٦).

(٢) أحمد (٢٢٦٠٦)، وحسن إسناده شعيب الأرناءوط، وصححه الألباني (حاشية فقه السيرة للغزالي ص٢٠٠).

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١/ ٣٦٤.

زاذان فروخ كاتبًا على الخراج، وذلك في أيام معاوية بن يزيد بن معاوية، وكان أبو الزعيزعة مولى عبد الملك بن مروان كاتبًا على ديوان الرسائل، وكان شعيب الصابي مولى الوليد بن عبد الملك على ديوان الخاتم، وكان يفيع بن ذؤيب مولاه -أيضًا- كاتبًا على المستغلات بدمشق، كما كان طارق بن زياد -من البربر- قائدًا على جيش فتح الأندلس، وكان موسى بن نصير واليًا للشمال الإفريقي، وقبله تولَّى أبو المهاجر دينار مولى الأنصار إفريقية أيضًا، وتولاها -أيضًا- يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، ولما قُتل تولاَّها محمد بن يزيد مولى الأنصار»[(١)].

ثم مضت الأيام بما جعل الموالي والمماليك هم أصحاب الدول؛ بل والمسيطرين على الخلفاء أنفسهم في كثير من الأحيان.

وما زلنا نرى من ضعفاء الأمة ما يؤكد ثمرة عموم المسئولية، ومَن ذا ينسى رجلاً كالشيخ المقعد المشلول أحمد ياسين؟ الذي أسس -وهو على هذه الحال- أقوى حركة مقاومة إسلامية للوجود الصهيوني في أرض الجهاد والرباط فلسطين، حتى ختم له بالشهادة نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله، وطار وصفه الآفاق «شيخ قعيد أيقظ الأمة.. فمتى يستيقظ صحيح الجسد قعيد الهمة؟!».

فكل هذا وغيره مما يملأ المجلدات من ثمرات عموم المسئولية في منهج الإسلام، فلم يبق ممن يعرف دينه أحدٌ يرى نفسه معذورًا أو غير مسئول ومكلف.

---

(١) د. علي الصلابي: الدولة الأموية ٢/ ٦١٥.

استقلال الشخصية المسلمة

لا يسمح الإسلام للمسلم أن يكون تابعًا، وكم نعى القرآن الكريم على المشركين أنهم يتمسكون بما وجـدوا عليه آباءهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

فالتقليد والانقياد سمة الهالكين الخاسرين ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

وكم هو مؤلم للنفس أن ترى مصير أبي طالب عم النبي ﷺ الذي نصره وحماه من أذى قريش حين يهلكه هذا الاتباع للآباء والأجداد، ولم يستطع التحرر من التقاليد، وخشي من كلام المشركين، لقد وقف رسول الله ﷺ إلى جواره وهو على مشارف الموت يرجوه: «يَا عَمِّ، قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ».

فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ «أَمَا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ».

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣][(١)]، وقد زادت بعض الروايات الصحيحة قوله: «لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا

---

(١) البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (٢٤).

حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعُ لأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ»(١).. وخسر أبو طالب الآخرة لئلاً يقال: جزع أو مات على غير ملة عبد المطلب!

ومثلما يتألم المسلم لحال عبد المطلب فهو يتأسى بالسابقين الأولين إلى الإسلام، الذين أثنى الله عليهم فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

فأولئك السابقين كانوا أكثر الناس استقلالاً وتحررًا من ضغط الواقع الذي هم فيه، فلقد تحرَّر عثمان بن عفان وخالد بن سعيد بن العاص من رواسب الخلاف بين بني عبد شمس وبني هاشم، فأسلم مبكرًا وهو الخلاف الذي أهلك عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة، وأخَّر إسلام أبي سفيان بن حرب وزوجته هند بنت عتبة، ولقد تحرَّر الأرقم بن أبي الأرقم وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزوميان من آثار التنافس بين بني مخزوم وبني عبد مناف، وهو الذي أهلك أبا جهل إذ قال: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه».

وتحرر سعد بن أبي وقاص من ضغط أمه عليه، وتحرر مصعب بن عمير من متطلبات الترف والنعيم، وتحرر أبو بكر من حسابات التجار؛ فصار ينفق المال ليشتري به العبيد المسلمين ويعتقهم، وتحرر بلال بن رباح من نفسية العبد؛ فلم ينظر إلى رسالة النبي كغيره من العبيد على أنها نزاع بين الأحرار، أو تنافس على السلطة بين القرشيين؛ بل كان ذا نفس حرة أبصرت في رسالة الإسلام دعوة لكل البشر، الأحرار والعبيد العرب والأحباش!

---

(١) مسلم (٢٥).

إن الإسلام يغرس في أتباعه أن حساب يوم القيامة سيكون فرديًا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥]، وعندما يأتي يوم القيامة تنسف الروابط بين الناس؛ إلا ما كان للحق: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وساعتها لن يغني أحد عن أحد شيئًا أمام الله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] حتى ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ [المعارج: ١١ - ١٤].

وحين يدخل أهل النار يتنازعون فيها: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ: ٣١ - ٣٣].

وخلاصة الأمر أن أحدًا لن يحمل عن أحد ذنبًا مهما كانت الصلة بينهما: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

ويصف النبي حال العبد وهو واقف وحيدًا أمام الله تعالى فيقول: «مَا مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلاَ يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلاَ يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»(١).

(١) البخاري (٧٠٧٤)، ومسلم (١٠١٦).

إن القلب الذي يستوعب هذه الآيات والأحاديث ينعكس تلقائيًا نحو النجاة بنفسه، والتحرر من تأثيرات الباطل فيما حوله؛ سواء أكانت أعرافًا أم عادات وتقاليد أم هوى متبعًا، فالأمر كما يجمله قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا تكونوا إمَّعة تقولون: إنْ أحسن الناس أحسنًا، وإنْ ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا»(١).

وإن هذا الاستقلال والتحرر من ضغط الواقع مستمرٌّ، ولو في زمان الفتن؛ أي عند ذورة البلاء، ساعتها نرى الآيات والأحاديث تزيد من وتيرة تثبيت المسلم ودعمه في تلك الظروف القاهرة على نحو قوله ﷺ: «بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ»(٢). وقوله ﷺ: «الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ(٣) كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ»(٤). وقوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ القَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ»(٥).

بهذا تتشكل نفس المسلم عبر القرآن والسنة؛ فتُصاغ نفسًا حرةً ذات ميزان ورؤية أصلها الشرع، لا الواقع والظروف والتقاليد، تحاكم الواقع إلى الشرع لا العكس، وبهذا تتمكَّن من إصلاحه ومقاومة فساده.

---

(١) روي عن النبي عند الترمذي (٢٠٠٧) وغيره، من طرق ضعيفة، وقال الألباني: يصح وقفه على ابن مسعود (مشكاة المصابيح ٥١٢٩)

(٢) مسلم (١٤٥).

(٣) الهرج: الفتنة واختلاط أمور الناس.

(٤) مسلم (٢٩٤٨).

(٥) جزء صحيح من حديث رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه، هكذا قال الألباني (صحيح الترغيب والترهيب ٣١٧٢)، وانظر تفصيل التخريج في (السلسلة الضعيفة ١٠٢٥).

التكوين الأخلاقي للمسلم

إن الأخلاق هي صورة الإنسان الباطنة كما أن ملامحه هي صورته الظاهرة، فهو يُعرف ويتميز بأخلاقه، كما يعرف ويتميز بصورته[١].

ولا يُسمَّى الفعل خُلُقًا إلا حين يصدر عن النفس بتلقائية ومن دون تفكير، فهو -كما قال العلماء- «هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويُسر»[٢].

ولهذا فإن الأخلاق ضد المادية، ولا يمكن أن تنتج الأخلاق عن قرار عقلي بحت؛ بل لا بُدَّ لها من دين وعقيدة غيبية تعطي أملاً في حياة أخرى، يكون فيها الثواب والجزاء على حسن الخلق أو سوئه[٣].

لذلك كان منهج الإسلام في تكوين الشخصية هو منهج الغرس في القلوب، لا مجرد إقناع العقول؛ ليكون سلوك المسلم تلقائيًا فطريًا؛ فيكون فعل الخير سجية له، سجية تحوطها الحماسة والإخلاص والتضحية والشجاعة، لا قرارًا عقليًا مأخوذًا كنتيجة حسابات عقلية باردة يكتنفها التردد والترقب والتراجع؛ لذا يظهر أثر الأخلاق أكثر ما يظهر -في واقع المسلمين- عند لحظات «المحن والفتن الشديدة؛ فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم، ودفع الذنوب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم، ويحتاجون -أيضًا- إلى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم، وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه»[٤].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب ١٠/ ٨٥، والزبيدي: تاج العروس ٢٥/ ٢٥٨.

(٢) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق ص٢٥، الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/ ٥٣، الجرجاني: التعريفات ص١٠١.

(٣) علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب ص١٨٤، ١٨٥.

(٤) ابن تيمية: الاستقامة ٢/ ٢٨٥، ٢٨٦.

ونحن لو حاولنا تخيل تاريخ الإسلام بعد حذف كل تضحية ومغامرة أخلاقية، واستبدلنا بها القرار العقلي المحسوب؛ لكانت النتيجة تاريخًا آخر تمامًا، تاريخ أحسن أحواله أن لا جاذبية فيه لأحد من العالمين(١).

والتكوين الأخلاقي للمسلم هو من توابع استقلال الشخصية المسلمة؛ إذ ليس مطلوبًا من المسلم أن يعتزل الناس، بل أن يدعوهم ويهديهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ، وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»(٢).

وبَشَّر ﷺ الدُّعاة بقوله: «فَوَاللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(٣).

وما ينبغي للمؤمن ذو الشخصية المستقلة والمكلَّف بالدعوة وحمل الرسالة أن يكون كالناس؛ بل لا بد أن يكون خيرًا منهم وأعلى مثالاً وأقوم مسلكًا، ولهذا جمع النبي ﷺ خلاصة رسالته في قوله: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(٤).

وهو قولٌ موجزٌ معجزٌ لا يُستطاع الإتيان بخير منه لبيان مكانة الأخلاق في الإسلام.

---

(١) يذكر توماس أرنولد «أن أخلاق صلاح الدين الأيوبي وحياته التي انطوت على البطولة، قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًا خاصًا، حتى إن نفرًا من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية، وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين». الدعوة إلى الإسلام ص١١١.

(٢) أحمد (٥٠٢٢) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين. والبيهقي (١٩٩٦١)، وفي رواية ابن ماجه (أَعْظَمُ أَجْرًا) (٤٠٣٢)، وفي رواية الترمذي «الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ».

(٣) البخاري (٢٨٤٧)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٤) في رواية أحمد: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ» (٨٩٥٢). الحاكم (٤٢٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني (السلسة الصحيحة ٤٥).

ولقد صاغ الإسلام أخلاق أتباعه على مستويين: أخلاقه في نفسه، وأخلاقه مع غيره، وكلا المستويين يسيران معًا، وكلاهما ينعكس على الآخر بالخير والدعم والتقوية، فأما أخلاق المسلم في نفسه فَجِماعُها الاستقامة والنزاهة، وأما أخلاقه مع غيره فهي دائرة حول حب الناس والحرص عليهم والنصح لهم والرفق بهم، ومن خير ما يصف منظومة الأخلاق الإسلامية قول الشيخ محمد عبد الله دراز -صاحب الدراسة الضخمة في الموضوع- بأنها «تركيب لتراكيب، فهي لا تلبي فقط كل المطالب الشرعية والأخلاقية والاجتماعية والدينية، ولكن نجدها -في كل خطوة- وقد تغلغل فيها بعمق روح التوفيق بين شتى النزعات: فهي متحرِّرة ونظامية، عقلية وصوفية، لينة وصلبة، واقعية ومثالية، محافظة وتقدمية- كل ذلك في آنٍ... إنها بناء عضوي حقيقي تتعاون فيه كل العناصر، وتتساند كل الوظائف»[(١)].

إن أخلاق المسلم في نفسه تجعله عنصرًا جذابًا لكوامن الخير في الناس؛ بما يرونه من صورته واقعية متحققة؛ وما بالك بأخلاق مسلم يخبره دينه أن إيمانه مهدد إذا افتقد جاره الأمان من ناحيته[(٢)]؟!

كما أن أخلاقه مع غيره تُنشئ واقعًا جديدًا في الحياة؛ خلاصته التعاون على البر والتقوى، ومكافحة الإثم والعدوان، حتى لو كان هذا البر تحالفًا مع غير المسلمين كنحو حلف الفضول[(٣)]، وحتى لو كان هذا الإثم والعدوان واقعًا من مسلم على غير

---

(١) محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن ص٦٨٦.

(٢) قال رسول الله ﷺ: «وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللهِ لاَ يُؤْمِنُ». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ (أي: شروره)». البخاري (٥٦٧٠)، ومسلم (٤٦).

(٣) حلف الفضول: تحالف بنو هاشم وبنو زهرة وبنو تيم -في الجاهلية- على نصرة المظلوم على الظالم، وقد شهد النبي ﷺ هذا الحلف صغيرًا قبل بعثته ثم قال عنه: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت». (قوي بشواهده - انظر: تخريج الألباني بحاشية فقه السيرة للغزالي ص٥٨).

مسلم(١)، أو حتى كان العدوان واقعًا على حيوان(٢) أو جماد(٣).

وقد طارت أخلاق المسلمين في العالم شرقًا وغربًا وفتحت من البلاد ما لم تصل إليه سيوفهم(٤)، وشهد بهذا المنصفون وكثير من المتعصبين؛ فأخلاق المسلمين من حقائق التاريخ الناصعة، وقد تتبع المستشرق الإنجليزي الكبير توماس أرنولد تاريخ انتشار الإسلام في البلاد المفتوحة؛ فكان كتابه «الدعوة إلى الإسلام» وثيقة تاريخية خالدة على أخلاق المسلمين وسماحتهم ورحمتهم بأهل البلاد المفتوحة في كل الأنحاء شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا، ولقد حفظ الباحثون كلمة الفرنسي جوستاف لوبون: «الحقُّ أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا دينًا مثل دينهم»(٥).

ويرصد مؤرخ الحضارة ول ديورانت كيف «أن المسلم كان أرقى من المسيحي في خلقه التجاري، وفي وفائه بوعده، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره، ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية.

---

(١) سرق طعمة بن أبيرق -وكان منافقًا- درعًا من جاره، ثم أودعها عند اليهودي يزيد بن السمين، ثم شهد طعمة وإخوته على اليهودي؛ فهمَّ النبي بقطع يد اليهودي، فنزلت القرآن يبرئ اليهودي. الآيات ١٠٥ وما بعدها من سورة النِّساء.

(٢) قال النبي ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، قال: فقال: والله أعلم: لاَ أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلاَ سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلاَ أَنْتِ أَرْسَلْتِيهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ». البخاري (٢٢٦٣)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) قال رسول الله ﷺ: «من قطع سِدْرَةً (شجرة النبق، والمقصود القطع عبثا) صوب الله رأسه في النار». أبو داود (٥٢٣٩)، والبيهقي (١١٥٣٨)، والطبراني في الأوسط (٢٤٤١)، وصححه الألباني في التعليق على أبي داود.

(٤) انظر في شأن البلاد التي فتحها الإسلام دون أن تصلها جيوشه كتاب «الإسلام الفاتح» للدكتور حسين مؤنس.

(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٦٠٥.

والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب، فهم يبيحون الكذب إذا كان فيه نجاة من الموت، أو حسم لخصومة، أو إدخال السرور على زوجة، أو خدعة في الحرب لأعداء الدين. والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبشاشة، وحديث المسلم مليء بالتحية والمبالغة في التأدب، والمسلمون كاليهود يحيي بعضهم بعضًا، وينحني الواحد منهم لصاحبه ويصافحه، ويقول له: السلام عليكم.

والرد الصحيح لهذه التحية: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وإكرام الضيف من صفاتهم العامة... والمألوف أن المسلم كان مثال الرقة، والإنسانية، والتسامح، وكان -إذا وصفنا أواسط الناس- سريع الفهم، حاد الذكاء، سريع التهيج، يسهل إدخال السرور إلى قلبه، والمرح على نفسه؛ يجد الرضا في البساطة، ويصبر على بلواه في هدوء، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر، وكرامة، وشمم، وكبرياء»[١].

وللمستشرق والقانوني الإيطالي دافيد دي سانتيلانا فصل رائق في مدح الشريعة الإسلامية والثناء على توجهها الأخلاقي نلتقط منه هذه الفقرة: «إذا كان حق المرء هو منفعته الخاصة وواجبه الأدبي معًا؛ فإن لذلك الحق حدودًا معينة بموجب مبادئ الأخلاق والمصلحة العامة؛ فالصلح والتراضي هما سيدا الأحكام في كل وقت، وأخذ الثأر ممنوع منعًا باتًا، والتضييق البدني على المدين مخالف للقانون، ولا اعتساف في استعمال الحق تمامًا؛ إذ ليس لأحد أن يمارس حقًا له، بالدرجة التي يسبب للآخر ضررًا محققًا، وللفقهاء المسلمين في هذا الصدد إحساس دقيق مرهف يفوق ما نتصوره؛ فمثلاً: يمنع أن يخول حق الادعاء إلى وكيل هو عدو للطرف الذي أقيمت عليه الدعوى، وممنوع أن يؤجر حيوان لشخص عرف بقسوته على الحيوان، كذلك حرم بيع أمة صغيرة السن لرجل حر بالغ خشية أن يغيرها بالفسق أو أن يطأها

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٤١، ١٤٣، ١٤٤.

زانٍ، وهكذا ترسم الأخلاق والآداب في كل مسألة حدود القانون»[١].

وهذا غيض من فيض، وقد آثرنا أن نذكره من شهادات غير المسلمين؛ لتكون الحجة أبلغ بيانًا في شأن التكوين الأخلاقي للمسلم وأثره في إصلاح أمور البشر وأحوال الأرض[٢].

(١) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، منشور في: تراث الإسلام بإشراف توماس أرنولد ص٤٣٧.

(٢) انظر الملحقات.

التكليفات المتكاملة

إن الإسلام دين واقعي يعالج أمر البشر، وأولئك البشر من طبعهم النقص، فهم يزلون ويخطئون ويتعثرون وتصدر عنهم الذنوب والمعاصي، تغلبهم أنفسهم وشهواتها أو يستزلهم الشيطان أو يقعون في حبائل ذوي المكر.. وهكذا، فلا إنسان بلغ الكمال سوى الأنبياء والمرسلين، فهم وحدهم أهل العصمة، وقد دُفِنت العصمة مع خاتم الأنبياء ﷺ، فكل الناس يجري عليهم الخطأ ويقع منهم الزلل.

وقد تدارك الإسلام أخطاء المسلمين بما يمكن أن نسميه «التكليفات المتكاملة»؛ وذلك بكونه يدرأ خطأ الفرد بتيقظ الآخرين، فلا يقع فساد أو فتنة من حيث يخطئ الواحد فقط؛ بل يجد الواحد مَنْ يُصَوِّبه ويستدرك زلته، فإن وقع الفساد أو الفتنة فليُعلم أن الخطأ قد عَمَّ جمعًا ولم يكن من طرف واحد.

ويمكن أن نضرب لهذه «التكليفات المتكاملة» بعض الأمثلة؛ منها:

أولاً: الكذب والتبيُّن

فالإسلام يأمر المسلم بالصدق وينهاه عن الكذب، قال ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا. وَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(١).

ونبه إلى أن الكذب من علامات النفاق كما قال ﷺ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ... »(٢).

---

(١) البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢٦٠٧).

(٢) البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٨).

وتوعد الله الكاذبين ألا يحقق لهم أطماعهم كما في الحديث: «مَنْ ادَّعَى دَعْوَى كَاذِبَةً لِيَتَكَثَّرَ بِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إِلَّا قِلَّةً، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ[١] فَاجِرَةٍ»[٢]. وكان قول الزور هو ثالث أكبر الكبائر في الإسلام بعد الإشراك بالله وعقوق الوالدين[٣]، وهذه النصوص لمجرد ضرب المثال بحسب ما يسمح به المقام.

ومع هذا الأمر بالصدق والنهي عن الكذب، أمر الإسلام أن يتوثق المسلم مما يسمع فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٖ﴾ [الحجرات: ٦]، بل إن النبي وصف من لا يتثبت بالكذب فقال ﷺ: «بِحَسْبِ الْمَرْءِ مِنَ الْكَذِبِ أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[٤].

فلئن أخطأ أو كذب الواحد فالآخر مكلف بالتبين والتثبت، وبهذا تتكامل التكاليف!

ثانيًا: التعفف والإنفاق

إن الإسلام يأمر أتباعه بالتعفف والقناعة، ويثني على من لا يسأل الناس وإن كان محتاجًا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبٗا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافٗا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وأثنى الله على الصابرين في وقت الحاجة: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وسمى رسول الله آخذي المال بـ«اليد السفلى» وقال ﷺ: «اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ

(١) يمين الصبر: هي التي ألزم بها الحالف كما في القضاء أو لدى الحاكم.

(٢) مسلم (١١٠).

(٣) البخاري (٢٥١١)، ومسلم (٨٧).

(٤) مسلم (٥).

السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ»(١).

بل وتكفَّل النبي بالجنة لمن لم يسأل الناس شيئًا، قال ﷺ: «مَنْ تَكَفَّلَ لِي أَنْ لاَ يَسْأَلَ النَّاسَ شَيْئًا وَأَتَكَفَّلَ لَهُ بِالْجَنَّةِ»(٢).

وفي الوقت ذاته فإن الإسلام يحث على الإنفاق: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، سرًّا وعلنًا: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وفي حال السراء والضراء: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقد عَظَّم الله الأجر للمنفقين: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧] وضاعفه أضعافًا مضاعفة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]؛ بل وصف الله الإنفاق وصفًا يهز أعماق المسلمين هزًّا عنيفًا، وصفه بأنه إقراض لله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

ثالثًا: الاحتشام وغض البصر

فلقد أمر الله النساء بالعفاف والاحتشام: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

وأمر الرجال -في الوقت ذاته- بغض البصر: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

---

(١) البخاري (١٣٦١)، ومسلم (١٠٣٣).

(٢) أحمد (٢٢٤٢٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح، وأبو داود (١٦٤٣)، وصححه الألباني.

رابعًا: أدب المجالس

فلقد أمر الله القادمين إلى المجلس بالجلوس حيث ينتهي المجلس، قال رسول الله ﷺ: «إِذَا انْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ، فَإِنْ وُسِّعَ لَهُ فَلْيَجْلِسْ، وَإِلَّا فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَوْسَعِ مَكَانٍ يَرَى، فَلْيَجْلِسْ»(١).

وكان ﷺ إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس(٢).

ومع ذلك أمر الله القاعدين بأن يتفسحوا في المجالس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١١]، وفي حديث واحد نرى النبي ﷺ ينهى «أَنْ يُقَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ وَيَجْلِسَ فِيهِ آخَرُ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا وَتَوَسَّعُوا»(٣).

ويمكن أن نذكر الكثير من الأمثلة؛ مثل: كف الأذى ومقابله الأمر بكظم الغيظ والعفو والإحسان، والتواضع في مقابل إنزال الناس منازلهم، وإكرام الضيف في مقابل الاستجابة والرجوع إذا لم يسمح صاحب البيت، وسلامة الصدر وحسن الطوية في مقابل اليقظة والانتباه للخديعة، وأمور أخرى يعرفها عوام المسلمين ويفقهها صغار طلاب العلم، ولكن المقام لا يسمح بمزيد توسع.

---

(١) الطبراني في المعجم الكبير (٧٢١٣)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده حسن. (مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٨/ ٥٩)، وصحيح الجامع الصغير (٣٩٩).

(٢) الألباني: مختصر الشمائل النبوية للترمذي ص٢٣.

(٣) البخاري (٥٩١٥)، ومسلم (٢١٧٧).

حرمة اليأس

وآخر ما نلحظ في «التكليفات الفردية» هو حرمة اليأس؛ إذ يحرم على المسلم الانسحاب من مهمة إصلاح الحياة، والانهزام أمام ضغوط الواقع وقهر الظروف؛ بل إنه مأمور باستعمال سنن الله ﷻ في مغالبتها، والصبر عليها.

إن الإسلام يسلح المسلم بأخلاق التوكل على الله والصبر على الأذى فيه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ٩، ١٠].

وفي وصية لقمان لابنه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

والمسلم -في هذا- يقتدي بتاريخ الأنبياء وصحابتهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

والمسلم يقرأ في سيرة النبي ﷺ كيف كان أول من أوذي في سبيل الله؛ فعن أنس أن النبي ﷺ قال: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ»(١).

والأخبار في هذا كثيرة ومتواترة، وهو ﷺ لم يكن بِدْعا من الرسل؛ فكلهم أوذي وعودي وصبر على قومه، ولو لم يؤمن معه إلا قليل؛ بل إن نوحًا عليه السلام بعد نحو ألف سنة من الدعوة ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠] وأكثر ما ورد في عدد من آمنوا أنه ثمانين فقط، فيما وردت روايات بأنهم ثمانية فحسب(٢)، بل ذكر النبي ﷺ

---

(١) أحمد (١٢٢٣٣)، الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١)، وصححه الألباني وشعيب الأرناؤوط.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/ ٣٢١، وتبدو رواية الثمانية غير مقبولة؛ إذ يتنافى هذا العدد عقلاً مع

أن النبي يأتي يوم القيامة «مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلاَنِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»(١).

فلو أن لليأس مكان في رسالات الأنبياء ما كان يحدث مثل هذا!

كما ويعلم المسلم كيف كان صحابته الكرام أثبت الناس تحت عذاب المشركين، حتى رسخت قواعد الإسلام، ونشأت دولته في المدينة بعد ثلاثة عشر عامًا من العذاب والعنت والتضييق، ويحفظ أسماء بلال بن رباح وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأُمه سُمية.. وغيرهم، ويعلم ما تحملوه من العذاب الرهيب.

فلو كان لليأس مكان في الرسالة لما صبر أهلها ثلاثة عشر عامًا؛ بل الأمر على خلاف ذلك، إننا لم نر النبي ﷺ غاضبًا إلا حين بدا ضجر من سيدنا خباب بن الأرت رضي الله عنه مما نزل بهم من العذاب فذهب إلى النبي وقال: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا؟ قال ﷺ: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»(٢).

ولقد استعمل القرآن الكريم والنبي ﷺ بشائر انتصار الإسلام في تثبيت المؤمنين على ما ينزل بهم من ابتلاء سواء في بداية الدعوة أو في بناء الدولة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

= القدرة على صناعة سفينة كبيرة تضم من زوجين من كل المخلوقات.

(١) البخاري (٥٤٢٠)، ومسلم (٢٢٠).

(٢) البخاري (٣٤١٦).

وقَصَّ الله على المؤمنين كيف نجّى أنبياءه من أعدائهم وكيف نصرهم عليهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وبمثل ذلك وعد الله المؤمنين ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧].

والمسلم استنادًا إلى عقيدته في الله القوي العزيز، وبعلمه بسيرة الأنبياء والمصلحين وببشارات الله والنبي لما سيبلغه الإسلام في المشرق والمغرب، يعلم أن اليأس من صفات الكافرين: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧]، وكفى بهذا الوصف حاجزًا بين المسلم وبين اليأس!

لقد أمر الإسلام بالعمل حتى اللحظة الأخيرة في الدنيا، فقال ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»(١).

«فلا يأس مع الحياة! والعمل في الأرض لا ينبغي أن ينقطع لحظة واحدة بسبب اليأس من النتيجة، فحتى حين تكون القيامة بعد لحظة، حين تنقطع الحياة الدنيا كلها، حين لا تكون هناك ثمرة من العمل.. وحتى في هذه الحال لا يكف الناس عن العمل وعن التطلع للمستقبل، ومن كان في يده فسيلة فليغرسها! إنها دفعة عجيبة للعمل والاستمرار فيه والإصرار عليه! لا شيء على الإطلاق يمكن أن يمنع من العمل! كل المعوقات.. كل الميئسات.. كل المستحيلات.. كلها لا وزن لها ولا حساب.. ولا تمنع عن العمل»(٢).

---

(١) أحمد (١٣٠٠٤) وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

(٢) محمد قطب: قبسات من الرسول ص٢٧.

وقد وصف القرآن شخصية من يصيبه اليأس بالطيش والتقلب قائلاً: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾ [فصلت: ٤٩]، ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٣]، ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [هود: ٩ - ١١].

كما حرص الإسلام على محاربة التثبيط ونشر اليأس، وأنكر القرآن على من قالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، وأثنى على من قالوا: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وأنعم على المجاهدين بأنه أقعد المنافقين فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكَهُم» -أو قال: «أَهْلَكُهُم»(١). ووجَّه أُمته إلى قول ما يثير الهِمم لا ما يثبطها فقال ﷺ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنَفِّرُوا»(٢).

وكان الانتحار -وهو آخر مراتب اليأس- من أكبر الكبائر في الإسلام، «وقد قرر الفقهاء أن المنتحر أعظم وزرًا من قاتل غيره، وهو فاسق وباغ على نفسه، حتى قال بعضهم: لا يغسل ولا يصلى عليه كالبغاة، وقيل: لا تقبل توبته تغليظًا عليه، كما أن ظاهر بعض الأحاديث يدل على خلوده في النار»(٣).

ومن ذلك قوله ﷺ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ

---

(١) مسلم (٢٦٢٣).

(٢) البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٢).

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ٦/ ٢٨٣، ٢٨٤.

خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»(١).

وقوله ﷺ: «كَانَ بِرَجُلٍ جِرَاحٌ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ اللهُ: بَدَرَنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ حَرَّمْتُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»(٢).

لكل ما سبق، كان اليأس أبعد ما يكون من أخلاق المسلمين؛ ومن ثم كان استشعارهم المسئولية دافعًا لهم إلى العمل، ثم العمل، ثم التغلب على معوقات العمل حتى تزول.

مما سبق نرى أن «التكليفات الفردية» التي جاء بها الإسلام قد حققت الأمور الخمسة:

١. فليس في الإسلام عاطل أو مهمل، بل الكل مكلف مسئول وله دور في مهمة الإصلاح.

٢. والمسلم شخص مستقل متحرر من تقاليد الماضي وأعرافه الموروثة، ومن ضغوط الحاضر وقيوده وعوائقه.

٣. ويتخلق بالأخلاق الحسنة في نفسه ومع الناس.

٤. وإن بدر منه خطأ أو زلل وجد من يستدرك عليه أو استدرك هو على غيره بما سميناه «التكليفات المتكاملة».

٥. ومتسلح بالصبر والتوكل على الله ومنعه من اليأس والقنوط والانهزام أمام الواقع.

(١) البخاري (٥٤٤٢)، ومسلم (١٠٩).

(٢) البخاري (١٢٩٨).

الفصل الثالث

النظام العــام

مثلما كان للأساس العقدي تطبيق في تشكيل الفرد المسلم بما وضعه من «التكليفات الفردية» كان له تطبيق في بناء المجتمع، والمجتمع ببساطة، هو: سلطة، وأمة، والعلاقة بينهما.

وإذا تتبعنا طريقة بناء الإسلام للمجتمع فسنرى سعيًا لتقوية السلطة والأمة كل على حدة، ثم ضبط العلاقة بينهما بما لا يسمح للسلطة أن تطغى على الأمة أو تجور عليها، ثم بما لا يسمح بتهديد السلطة والتمرد عليها إلا بالحق، وحينما تُعْدَم وسائل التقويم الأخرى؛ ومجمل هذا أن:

١. نظام الحكم هو في الأساس من مسئوليات الأمة؛ فليس في الإسلام صاحب حق إلهي بالحكم، أو أحد أعطاه الله حق الوصاية على الناس، بل حارب الإسلام النموذج الفرعوني الطغياني، الذي يسلب الناس حقهم في الاختيار؛ ومن ثم يسلبهم شعور المسئولية؛ بل الأمة هي من تختار حاكمها، ولها حق الرقابة عليه كما لهم حق عزله كذلك، كما أن للحاكم على الأمة حق السمع والطاعة في المعروف، وهو مسئول عن «حراسة الدين وسياسة الدنيا» وحفظ مصالح الأمة.

٢. والأمة فيما بينها -وبعيدًا عن السلطة- ينبغي أن تكون مترابطة متماسكة إلى الغاية في هذا؛ فالإسلام عَظَّم روابط الأسرة والرَّحم، كما عَظَّم روابط الجوار، ثم الرابطة العامة: رابطة الدِّين، فلا تكون الأمة أفرادًا متناثرين؛ فيصيرون لقمة سائغة للعدو أو للسلطة الجائرة، وقد وضع الإسلام من المؤسسات والشعائر ما يزيد من تماسك الأمة وتمتين روابطها.

٣. وضَبَطَ الإسلام العلاقة بين الأمة والسلطة بما يتيح للأمة المجال الأوسع في الحركة والبناء الذاتي للحضارة، فلا تكون السلطة قيدًا ومعوقًا أمام جهد الأمة وانطلاقها في عمارة الأرض وفعل الخير وعملية الإصلاح، وبهذا يجد «الشعور بالمسئولية» مجاله للتحول إلى «إصلاح عملي» على أرض الواقع.

هذا الإجمال نناقشه ببعض تفصيل في هذه المباحث:

- المبحث الأول: طبيعة السلطة.
- المبحث الثاني: تقوية روابط الأمة.
- المبحث الثالث: السلطة الحافزة والأمة الفاعلة.

طبيعة السلطة

ضرب الله مثلاً على سُوء السلطان بفرعون الذي وصل به الطغيان والاستكبار إلى أن يصيح في الناس: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٤)﴾ [النازعات: ٢٤]، ويعلن فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، دون أن يجد في القوم مَنْ يتصدَّى له، فكان مفهومًا أن يقول بعدئذٍ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فتكون النتيجة: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

إذا رأى الحاكم أنه فوق الناس، والوصي عليهم، أو أنه يحكمهم بتفويض إلهي ويستطيع إقناعهم -أو حتى قهرهم- بهذا؛ فإن تحملهم للمسئولية واستشعارهم لها ينسحب -تلقائيًا- من الناس ليتركز في يد الحاكم، حتى ينشأ فيهم جيل يظنون الحاكم إلهًا؛ فلا يفكرون في إصلاحه أو عصيانه، ولو اتخذ قرارًا بذبح أبنائهم واستحياء بناتهم! ويطيعه جنوده ولو رأوا المعجزات الباهرة! ويخوضون معه البحر الذي تحول إلى يابس أمام أعينهم! فيلحقهم الجزاء معه جميعًا!

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦].

فللاستبداد آثار كارثية على الأمم تفوق آثار كل آثار الحروب والنكبات(١).

لقد حارب الإسلام الفرعونية الطاغية، وسمى الخضوع لغير الله خضوعًا للطاغوت، وجعل الحكم نوعيْن: حكم الله وحكم الجاهلية ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾ [المائدة: ٥٠].

---

(١) لمطالعة هذا نوصي بكتاب: «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» لعبد الرحمن الكواكبي.

ومن ثَمَّ كان نظام الحكم الإسلامي أبعد شيء عن نظام حكم الجاهلية الفرعونية الطاغية المستبدة، وانتزع الإسلام من الفراعنة والطغاة دعاواهم لأنفسهم، وسدَّ عليهم طرق الانفراد بالمسئولية من بين سائر الناس؛ ومن ذلك:

أولاً: هيمنة الشريعة

لم يعد الحاكم يملك التشريع؛ بل صار يحمل الأمانة والمسئولية في تطبيق الشريعة الربانية، وحيث كانت الشريعة من عند الله فإن أحدًا لا يملك صلاحية التبديل والتحريف من البشر، وإن كان حاكمًا: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]، بل خاطب الله نبيه ﷺ بقوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، وبقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٥]، فكيف بمن هو دون النبي ﷺ ؟

إن «سيادة الشريعة» لا تساوي «سيادة القانون»، فالشريعة ملزمة للجميع: سلطات التشريع والتنفيذ والقضاء، وهي تغل يد الحاكم والمشرع عن سن قوانين ظالمة، بينما «سيادة القانون» ملزمة لسلطة التنفيذ فقط، ويبقى الباب مفتوحًا لإصدار قوانين وضعية تسمح بالاستبداد والطغيان(١).

ولهذا فإن الجميع شركاء في المسئولية، مسئولية إقامة الشريعة، فلئن انحرفت سلطة التنفيذ عنها قاومتها سلطة التشريع والقضاء؛ ذلك أن الجميع خاضع لحكم الشرع لا لحكم السلطان، فإن انحرفت السلطات الثلاث قامت الأمة ذاتها بواجب الدفاع عن الشريعة؛ فهي مسئولة عن إقامتها ومواجهة الانحراف عنها؛ إذ «لا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ»(٢).

---

(١) د. توفيق الشاوي: سيادة الشريعة الإسلامية ص١٤.

(٢) مسلم (١٨٤٠).

وبهذا تكون «هيمنة الشريعة» على النظام العام هي الضامن الأكبر لاستثارة كل طاقات الأمة في مواجهة الظلم والطغيان؛ إذ الكل مسئول ومحاسب ومتحمل لهذه الأمانة.

إن هذا ينتج فارقًا دقيقًا ورائعًا بين النظام الإسلامي وغيره من النظم، وهو الفارق بين «الحق» و«الواجب»، فالحق يمكن التنازل عنه؛ بينما الواجب يتحتم أداؤه، يقول القانوني الإيطالي دافيد دي سانتيلانا: «ونتيجة هذه الروح الجميلة الخلابة في الشريعة ما كانت ممارسة الحق إلا إنجاز واجب؛ لأنه إن كان الحق شيئًا حسنًا، فلا يمكن إغفاله، وإهمال المطالبة به إثم، ومن يدعي بملكه من مغتصب لا حق له فيه إنما ينجز واجبًا أخلاقيًا، وفي بقائه ساكنًا مهملاً مطالبته بحقه يجعل الباغي متماديًا في بغيه»(١). وخلاصة ذلك أن أحدًا في الأمة لا يملك اختيار السكوت على الانحراف، وبهذا تكون «هيمنة الشريعة» أكبر دافع لعموم المسئولية على كل المسلمين، وبه تضيق على الحاكم مساحة الانحراف.

وبهذا صار المسلمون جميعًا حراس الشريعة، وهذا أمر تم منذ اللحظة الأولى لحكم البشر؛ حيث قال أبو بكر رضي الله عنه في أول خطبة بعد بيعته: «فإنْ أحسنتُ فأعينُوني، وإنْ أسأتُ فقوِّموني»(٢). وكان هذا نهج الخلفاء أن يُبايَعوا على «سُنَّة الله ورسوله»(٣).

والمسلمون على السمع والطاعة ما أقام الحاكم فيهم كتاب الله(٤)، فإن ظهر منه

---

(١) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، منشور في «تراث الإسلام» بإشراف توماس أرنولد، ص٤٣٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٦٦١، وقال ابن كثير (البداية والنهاية ٥/ ٢٦٩): هذا إسناد صحيح.

(٣) البخاري (٦٧٨١)، والقصة في ولاية الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٤) قال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ، وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللهِ». أحمد (١٦٧٠٠)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، الترمذي (١٧٠٦)، وصححه الألباني.

كفر بواح فهم يخرجون عليه ويعزلونه، كما قال عبادة بن الصامت ﷺ: «دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ»[1].

وأجمع العلماء على أن الحاكم ينعزل بالكُفر، وهم مختلفون في عزله والخروج عليه بالفسق أو الابتداع أو الظلم، ويجري كلامهم حول تقدير القوة على خلعه وتقدير الفتنة المترتبة على ذلك، والكلام في ذلك طويل ومشهور، إلا أن ما يعنينا -في هذا المقام- هو اتفاق العلماء على أن الأمة رقيبة على حكامها، وعلى أن الشريعة هي المهيمنة على الجميع، وأنها مسئولية الجميع، وأنه لا يسع أحدًا التفريط فيها.

ثانيًا: الحاكم وكيل عن الأمة

فالأُمة هي صاحبة الحق في تولية الحاكم ومراقبته وعزله كذلك، وليس لأحد تفويض إلهي بالحكم أو له وصاية على الناس، ولقد كانت أولى كلمات الخليفة الأول أبي بكر ﷺ: «وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم»[2].

ومن بعده قال عمر ﷺ: «مَن بايع رجلاً من غير مشورة المسلمين فلا يُتَابع هو، ولا الذي بايعه تغرة[3] أن يُقتلا»[4].

ومثله قول علي بن أبي طالب ﷺ: «أيها الناس، إن هذا الأمر (الحُكْم) ليس لأحد فيه حق إلا من أَمَّرْتُم»[5].

---

(١) البخاري (٦٦٤٧)، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٦٦١، وقال ابن كثير (البداية والنهاية ٥/ ٢٦٩): هذا إسناد صحيح.

(٣) تغرة أن يقتلا: أي من فعل ذلك فقد غرر بنفسه وصاحبه وتعرض للقتل.

(٤) البخاري (٦٤٤٢).

(٥) الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٧٠٠.

وحين تمرَّد قوم على عثمان ﵁ كان يرد على ادعاءاتهم بالحجة والبرهان، ولم يرَ أحد من الناس أنه لا حق لهم في حساب أميرهم، ولا في المطالبة بعزله؛ بل كان الأمر دائرًا حول استحقاق الخليفة الراشد للعزل أم لا.

وباختيار الناس ورضاهم اختير الخلفاء الراشدون: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، ولم يدَّعِ أحد منهم أنه أحق بولاية، أو أنه أفضل من غيره، فأبو بكر ﵁ تولى بعد اجتماع الأمر عليه في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة النبي ﷺ، وهو الذي رشح عمر ﵁ من بعده فاجتمع عليه الناس، وظل عبد الرحمن بن عوف يدير أمر اختيار الخليفة الثالث أيامًا حتى رأى أهل المدينة لا يعدلون أحدًا بعثمان ﵁، فلما قُتِل مظلومًا شهيدًا بايع الناس علي بن أبي طالب ﵁.

وبرغم انحراف المسار التاريخي للأمة عن الشورى بعد عصر الراشدين، ورسوخ الأمر فيمن لهم العصبية كبني أمية وبني العباس ثم العثمانيين، فإن القاعدة بقيت سائرة، فالخليفة يستمد شرعيته من رضا الناس به وبيعتهم له، حتى ولو كانت هذه البيعة إجراءً شكليًا أو صوريًا، بخلاف الحال في غير الممالك الإسلامية، التي كان الحكام فيه أوصياء على الناس؛ لا حق للناس في اختيارهم، يحصل ولي العهد منهم على منصب الولاية وهو ما يزال جنينًا في بطن أمه.

وبهذا نزع الإسلام من الطغاة ادعاءاتهم، وحَمَّل الأمة مسئولية اختيار أمرائها ومراقبتهم، وأعطاها صلاحيات عزلهم كذلك.

ثالثًا: الشورى واجبة

وهنا تكون الممارسة العملية لتحمل المسئولية؛ فلقد أمر الله نبيه ﷺ بالشورى فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، «وفي ذكر العزيمة عقيب المشاورة دلالة على أنها صدرت عن المشورة»(١).

---

(١) الجصاص: أحكام القرآن ٢/ ٣٣١.

وقد وصف الله عباده بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

ونجد معنى الشورى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]؛ إذ «أولي الأمر» جماعة وليسوا فردًا واحدًا «ولي الأمر»، ثم تضيف الآية: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩]؛ ففيها وقوع التنازع بين الأمة وأولي الأمر.

وقد حفلت سيرة النبي ﷺ بالشورى، لا سيما بعدما بدأت الدولة في المدينة المنورة، ووجدنا الصحابة يشيرون عليه، ففي موضع المعسكر يوم بدر ثم في أسرى المعركة، وفيما بين الخروج لملاقاة المشركين في أحد أو البقاء في المدينة، وفي غزوة الأحزاب ونزل الجميع على رأي سلمان بحفر الخندق، وفي إعطاء غطفان من ثمار المدينة، وفيما قاله أهل الإفك عن عائشة (رضي الله عنها)، وفي غيرها.

وقد عمت الشورى جميع المسلمين حتى من أسلم حديثًا، كما في استشارته للناس في رد سبي هوازن عليهم بعد أن جاءوا تائبين، فقبل عامة الصحابة، ورفض بعض من أسلم حديثًا، فتعهد النبي بتعويضهم من أول فيء قادم[1]، وفي الاستفتاء الذي قام به عبد الرحمن بن عوف لاختيار الخليفة الثالث كان الناس ينهمرون عليه ويشاورونه دون أن يقصي أحدًا من المشورة[2]، وتتبع مواقف الشورى يطول،

(١) البخاري (٢١٨٤)، ابن حجر: فتح الباري ٨/ ٣٣.

(٢) البخاري (٦٧٨١)، ولفظه: «فمال الناس على عبد الرحمن حتى ما أرى أحدًا من الناس يتبع أولئك الرهط (الخمسة المرشحين للخلافة)، ولا يطأ عقبه، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي». وفي رواية: «فانثال الناس» أي انهمروا (ابن حجر: فتح الباري ١٣/ ١٩٦)، بل ذكر ابن كثير (البداية والنهاية ٧/ ١٦٤) أن عبد الرحمن رضي الله عنه استشار «رءوس الناس وأقيادهم جميعًا وأشتاتًا، مثنى وفرادى، ومجتمعين، سرًّا وجهرًا، حتى خلص إلى النساء المخدرات في حجابهن، وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل من يرد من الركبان والأعراب إلى المدينة».

والخلاصة أنه اضطرد في عهد النبي وسنة الخلفاء الراشدين مشاورة الأمة، والنزول على رأيها، حتى قال بعض العلماء بأن «مَن لا يستشير أهل العِلم والدِّين فعزله واجبٌ»[(١)].

وغاية الكلام أن الإسلام وضع الشورى كنظام تتحمل به الأمة مسئوليتها في واقع الحياة، فلا يصير قرارها ومصيرها حكرًا بمن يتولى أمرها.

بهذه الأمور الأربعة: رفض النموذج الفرعوني الطغياني، وهيمنة الشريعة وسيادتها، وكون الحاكم وكيلاً عن الأمة تختاره بإرادتها الحرة، وتراقبه، ولها حق عزله، وبنظام الشورى.. بهذه الأمور الأربعة ترتسم ملامح «طبيعة السلطة» في المنهج الإسلامي.

* * *

(١) ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز ١/ ٥٣٤.

تقوية روابط الأمة

لا يبدأ الاستبداد والظلم دفعة واحدة، بل إن المنهج الفرعوني في ظلم الناس هو تفريقهم طوائف وأحزابًا، ثم يبدأ بالعدوان على طائفة، وهو يستجلب دعم الآخرين أو على الأقل سكوتهم، فإذا استقر له ظلم الطائفة انتقل منها إلى غيرها؛ حتى يصير واحدًا لا رأس معه، تحتمي به الطوائف من بعضها، وتتقرب إليه جميعها، وهو يظلمهم جميعًا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ﴾.

وحين ينفك الترابط بين الناس لا يبالي بعضهم بما يفعله غيرهم، ولا بما ينزل بغيرهم، فتضيع بينهم المروءة، حتى لو وصل الحال بالفرعون إلى أن ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]، فليس منهم أحد يستشعر المسئولية، أو يرى أن لديه التزامًا نحو غيره.

لقد جاء الإسلام بما يخضد شوكة الفرعون ويقوي شوكة الأمة، جاء بتمتين الروابط والعلائق والوشائج بين الناس، وذلك عبر مستويات ثلاثة: رابطة الدين، رابطة الرحم، رابطة الجوار أو الجغرافيا، وجميعها روابط متساندة متكاتفة غير متناقضة، وهي بمجموعها تحقق الانسجام النفسي للمسلم، فرابطة (الدين) تحقق انسجامه العقلي والروحي والفطري، ورابطة الرحم والدم تحقق انسجامه الفطري، ورابطة الجوار تحقق انسجامه العملي الواقعي.

وإذا تحقق في واقع المسلمين تقوية هذه الروابط والعلائق استقام أمر مجتمعاتهم، فتكون محصنة من ظلم الحكام، كما تكون محصنة من فساد الشهوات والشبهات؛ إذ تقوى العادات الحاكمة وترى الكل يستشعر المسئولية عن أخيه وصاحبه؛ فيجتهد في النصح له ورده عن الباطل بالرفق أو بالشدة، وحينئذٍ تختفي المعاصي فلا تُفعل إلا سرًّا

وعلى استحياء، فإذا استعلنت رماها الناس عن قوس واحدة.

أولاً: رابطة الدين

وهي الرابطة السامية التي تحرر الإنسان من العنصرية والاستعلاء، والفخر بما لا يملك وما لم يختر كاللون والوطن والعشيرة، وترده إلى أصل إنسانيته، التي يستوي فيها مع الناس جميعًا أبيضهم وأحمرهم وأسودهم، ثم ترفعه إلى الفخر بما اختاره وآمن به وهو الدين.

وهي الرابطة الملهمة، التي تمتد في أعماق التاريخ حتى آدم عليه السلام وتشتمل صفوة البشر من الأنبياء والمرسلين والعباد والمجاهدين والزاهدين، كما تتسع حتى تشمل المشارق والمغارب فيندرج فيها كل بلد يذكر فيها اسم الله وكل إنسان يشهد أن لا إله إلا الله.

لقد جاء الإسلام برابطة الدين ليجعلها فوق كل رابطة أخرى، لا لتكون عنصرية جديدة؛ بل لتكون ميزان الحق، فالمسلم يوالي ويعادي بحسب ما في المرء من حق وخير؛ ولهذا ينبغي أن تكون ولاية الحق أقوى الروابط لأن الحق دين، ولأنه لا يعلو على الحق رابطة عصبية أخرى.

ومن هنا نفهم كيف ذَكَرَ القرآن الكريم أخوَّةَ الدين في موقف الخصام والتنازع والقتال؛ فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

إنَّ أخوة الإيمان هي الرابطة القائمة بين أهل الحق، وإن اجتماعهم يعني أنه اجتماع على الحق، فإن تفرقوا وتنازعوا فهو إنما لأجل انحرافهم عن الحق، «فقد قال الله لهم: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾

[آل عمران: ١٠٣].

فلما نهاهم عن التفرق مطلقًا دَلَّ ذلك على أنهم لا يجتمعون على باطل؛ إذ لو اجتمعوا على باطل لوجب اتباع الحق المتضمن لتفرقهم، وبَيَّنَ أنه أَلَّف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخوانًا، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣] فإذا كانت قلوبهم متألفة غير مختلفة على أمر من الأمور كان ذلك من تمام نعمة الله عليهم»(١).

ولأنها رابطة ربانية مبنية على الحق فينبغي أن تكون أسمى الروابط وأقواها وأمتنها، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»(٢).

وذكر له النبي ﷺ تشبيها آخر: الجسد الواحد فقال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(٣).

ولهذا ينبغي ألا يكون بين المؤمنين أخلاق من جمعتهم رابطة جاهلية؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] .

قال رسول الله ﷺ: «لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١٩/ ٩٢.

(٢) البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٣) البخاري (٥٦٦٥)، ومسلم (٢٥٨٦).

أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ». وفي رواية البخاري: «وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ»(١). وأوضح ﷺ أنه «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢).

وينتصب نموذج الإخاء بين المهاجرين والأنصار في المدينة؛ كمثال فذٍّ على ما يمكن أن تبلغه الأخوة الإيمانية، فقد صار أخو الإسلام مقدمًا على أخي النسب، وظهرت في هذا الإخاء عجائب لا سوابق أو لواحق لها؛ فلقد استقبل الأنصار إخوانهم بكل ترحاب، فأحبوهم وأنفقوا عليهم من أموالهم وإن كانوا في حاجة، وآثروهم على أنفسهم، واقتسموا معهم أملاكهم، وتسابقوا على استضافتهم ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر:٩] حتى «ما نزل مهاجري على أنصاري إلا بقرعة»(٣).

ومثلما ظهرت عجائب الأنصار في الإيثار ظهرت عجائب المهاجرين في النبل والتعفف، وبادلهم المهاجرون الحب والاعتراف بالفضل حتى كانت خشيتهم أن يذهب أجرهم في الجهاد والتضحية أمام عظمة الأنصار، وقالوا للنبي ﷺ: «ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، وأحسن بذلاً في كثير، لقد كفونا المئونة، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله»(٤).

وكان الإخاء بين المهاجرين والأنصار هو النموذج الأول والأمثل في إنشاء رابطة الدين، وتقديمها على غيرها من العلائق والروابط، ونحن لا نستطيع أن نفهم جوهر

---

(١) البخاري (٥٧١٨)، ومسلم (٢٥٦٤).

(٢) البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٣) البخاري (١١٨٦).

(٤) د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ٢٤١ وما بعدها، د. إبراهيم العلي: صحيح السيرة ص١٣٨، ١٣٩.

هذا الإخاء وآثاره الهائلة على حقيقتها؛ إلا حين نقارن اليوم مشكلات اللاجئين في العالم، وكيف يمثلون مأساة إنسانية دائمة، ويزداد الفهم -ومعه الحسرة والأسى- حين نرى أوضاع اللاجئين المسلمين اليوم؛ وكيف لا يجدون من إخوانهم المسلمين سندًا ولا نصرة؛ بل إن قضية اللاجئين الفلسطينيين تحت الحكومات «العربية» تعد وحدها مأساة إنسانية بالغة المرارة، حتى صار الدم الفلسطيني شركة بين بني صهيون وبين أذيالهم من أهل العروبة!!

ثانيًا: رابطة الرحم

والإسلام الذي أنشأ رابطة الدين لم يهدم ما سواها، بل أكد الإسلام على رابطة الأرحام بين الناس، وكان هذا منذ اللحظات الأولى في عمر الرسالة بتوجيه المؤمنين إلى البر بالوالدين، وإن ظلوا على الشرك: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

وحين جاء عمرو بن عبسة في بداية الدعوة إلى النبي سأله: ما أنت؟ قال ﷺ: «أَنَا نَبِيٌّ». فقلت: وما نبي؟ قال: «أَرْسَلَنِي اللهُ». فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ»(١).

وحين أوجز جعفر بن أبي طالب معالم الرسالة أمام النجاشي قال: «وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار»(٢).

واستمر هذا حتى اكتمل الدين وتمت الرسالة، فكان الإحسان إلى ذوي الأرحام من أولويات التكاليف: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى

---

(١) مسلم (٨٣٢).

(٢) الألباني: صحيح السيرة ص١٧٤، د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/ ١٧٣، ١٧٤.

﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ...﴾ [النساء: ٣٦].

وكان الإنفاق عليهم من أفضل وجوه الصدقات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ...﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقد قَرَن الله بين قطع الأرحام والإفساد في الأرض؛ إذ قال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢].

كما قرن النبي ﷺ بين وصل الأرحام وتعمير الأرض؛ ففي الحديث: «صِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الْأَعْمَارِ»(١). وروي عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيُعَمِّرُ بِالْقَوْمِ الزَّمَانَ وَيُكْثِرُ لَهُمُ الْأَمْوَالَ وَمَا نَظَرَ إِلَيْهِمْ مُنْذُ خَلَقَهُمْ بُغْضًا لَهُمْ». قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «بِصِلَتِهِمْ لِأَرْحَامِهِمْ»(٢).

وبلغت صلة الرحم مقامًا عظيمًا في الإسلام؛ إذ أخبر النبي أن الله الرحم قالت لله: «هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟»(٣).

وقال ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أُطِيعُ اللهَ فِيهِ أَعْجَلَ ثَوَابًا مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْجَلَ عِقَابًا مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»(٤).

---

(١) أحمد (٢٥٢٩٨)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح.

(٢) الحاكم (٧٢٨٢)، وقال: غريب صحيح ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (١٢٥٨٦) وقال الهيثمي: إسناده حسن. (مجمع الزوائد ١٣٤٥٧)، وهو إن ضعفه بعض المحدثين كالألباني (صحيح وضعيف الترغيب والترهيب ١٤٩١) إلا أن معناه صحيح كما في الآية والحديث السابق له.

(٣) البخاري (٤٥٥٢)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٤) البيهقي (٢٠٣٦٤)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٩٧٧).

ومن هذا الثواب بسطة الرزق وطول العمر كما قال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ(١)، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(٢).

وخير الناس خيرهم لأهله كما قال ﷺ: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»(٣).

والنصوص في ذلك كثيرة ومشهورة.

قال القاضي عياض: «لا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة وقطيعتها معصية كبيرة... وصِلَتُها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة؛ فمنها واجب ومنها مستحب؛ لو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعًا، ولو قَصَّر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً»(٤).

ولا ريب أن العاطفة المركبة في النفس من حب الأهل هي أول وأكبر دواعي استشعار المسئولية نحوهم، وإنتاجها الحرص عليهم وحب الخير لهم، واستثمر الإسلام هذه الطبيعة الإنسانية، فقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، وفي الحديث: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». فذكر: «الرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا... وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٥).

لكن الضابط الذي وضعه الإسلام على رابطة الرحم أن لا تعلو على الحق، ولا تتحول إلى العصبية الجاهلية، فتكون مدخلاً إلى الكبر والاستعلاء واحتقار الناس؛

---

(١) يُنْسأ له في أثره: أي يؤخر ويبارك له في بقية عمره.

(٢) البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٣) الترمذي (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧)، وصححه الألباني.

(٤) النووي: شرح صحيح مسلم ١٦/ ١١٣.

(٥) البخاري (٢٢٧٨)، ومسلم (١٨٢٩).

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال ﷺ: «دَعُوهَا (أي العصبية) فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»(١).

وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قال رجُل: إن الرَّجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ(٢) النَّاسِ»(٣).

وبهذا بقيت القبلية وعصبيتها في عهد النبي ﷺ وزمن الخلافة الراشدة، ولم يسعَ الإسلام لتفكيكها أو إنهائها؛ بل على العكس من ذلك، اسْتُثْمِرَتْ عاطفة الرحم وروابط القربى في نصرة الدين؛ فقد ميز خالد بن الوليد الجيش المقاتل في اليمامة إلى القبائل؛ ليمتاز الناس ويُعرف من أين يؤتى الخلل، فدافع كل قوم أشد المدافعة لئلاً يقال أُتِي المسلمون من قبلهم(٤).

والدراسة العميقة المفصلة لتاريخ الفتوحات الإسلامية أدَّت إلى نتيجة تقول: «قد تأكد لدينا أن قبائل المسلمين العرب كانت تتحرك كوحدات حربية في الميدان، خلافًا لما ذهب إليه كثير من الكتاب المُحْدَثين من أن الإسلام قضى على النزعة القبلية، وصهر القبائل كلها في بوتقة واحدة لا تدين بالولاء للقبيلة.. كلا، إن ما أذابه الإسلام وقاومه هو العصبية القبلية والتفاخر بالأنساب؛ ولكنه لم يحارب القبيلة في حد ذاتها كوحدة لها وجود عميق في البيئة العربية، لقد ظلت القبيلة هي الوحدة

---

(١) البخاري (٤٦٢٢)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٢) بطر الحق: دفعه ورفضه استعلاء وترفعًا، غمط الناس: احتقارهم.

(٣) مسلم (٩١).

(٤) الطبري: تاريخ الطبري ٢/ ٢٧٨، ابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٣٥٧، وانظر: محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ٣/ ٦٣ (قسم الصحيح)، د. أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٤٠٧، ٤٠٨.

الاجتماعية والوحدة الحربية المعترف بها في الفتوح الأولى، واستفاد الكيان الإسلامي من هذا الوجود إلى أقصى حد»(١).

ومن أظهر الأدلة على هذا المعنى أن كتاب ابن مزين (أبي بكر محمد بن عيسى بن مزين) الذي أرخ فيه لفتح الأندلس كان اسمه «الرايات» وتعني أن كل قبيلة كانت كتيبة ولها راية في جيش الفتح.

والأمر لم يكن هكذا فقط في حال الحرب؛ بل في حال السلم؛ فمنذ نزل النبي ﷺ المدينة وزَّع على المهاجرين ما لم يكن مملوكا من أرضها وما تنازل عنه الأنصار أو ما غنمه من ديار اليهود، فأقطع كل قبيلة أرضا، فكانت كل قبيلة في ناحية لها(٢)، وبهذا بقيت القبيلة كوحدة قائمة، وعلى هذا جرى العمل في المدن التي بناها المسلمون في البصرة والكوفة والفسطاط والقيرون وبغداد والقطائع والعسكر، مما يؤكد المعنى المراد بأن تظل القبيلة قوة متماسكة ومترابطة(٣).

ولم يجد المسلمون بأسا في استدعاء أحلاف القبلية القديمة طالما كان الأمر في الحق، ففي عهد معاوية رضي الله عنه وقعت منازعة بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان -ابن أخي معاوية، والوالي على المدينة- «فكأن الوليد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه؛ فقال له الحسين: أحلف بالله لتنصفني من حقي أو لآخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعون بحلف الفضول. قال: فقال عبد الله بن الزبير -وهو عند الوليد حين قال له الحسين ما قال-: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو

(١) أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن ص٢٠، وإن كُتُبَ أحمد عادل كمال «سلسلة استراتيجية الفتوحات الإسلامية» هي -على حد ما نعلم- أفضل ما كُتِبَ مطلقًا في دراسة الفتوحات.

(٢) ابن شبة: تاريخ المدينة ١/ ٢٦٠ وما بعدها.

(٣) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية ص٤٩، ٥٧، ٥٨، ٦١.

نموت جميعًا. قال: وبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمي فقال مثل ذلك، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقِّه حتى رضِي»(١).

وذلك الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما لما استشعر ظلمًا من والي مكة والطائف عنبسة بن أبي سفيان جاء بمواليه وسلاحه، وتصدى للدفاع عن بستانه، وقال: «والله لا تخرقون حائطنا حتى لا يبقى منا أحد»(٢).

ولا ريب أن قوة القبيلة واتحاد كلمتها منعت من ظلم الحكام، أو هي على الأقل مهدت السبيل لحل المشكلات بالسلم والمفاوضة؛ إذ لم تكن السلطة قادرة على إشعال معركة وفي القوم من إذا غضب غضب له عشرة آلاف أو مائة ألف سيف!

ويبقى المذموم شرعًا هو رفع رابطة الرحم فوق الحق والدين.

ثالثًا: رابطة الجوار

وهي رابطة قد تجمع ما سبق، فيجتمع في المكان الواحد المسلمون وذوي الأرحام، وقد لا تجمع شيئًا مما سبق؛ فيجتمع في المكان الواحد المسلم مع غير المسلم البعيد.

ولهذه الرابطة كانت المساجد؛ فالمسجد هو الذي يجمع أهل الأرض في مكان واحد وفي لحظة واحدة، والمسجد هو صاحب أكبر إنجاز تاريخي في التأليف بين الأغراب والمتباعدين ومزجهم مزجًا استعصى على كل محاولات التاريخ..

كان ذلك في بداية الدولة الإسلامية حيث كان المسلمون أطيافًا شتى؛ مهاجرين وأنصار وهم غرباء على بعضهم في الطباع والعادات وأسلوب الحياة، والمهاجرون

---

(١) الألباني: صحيح السيرة النبوية ص٣٦، ٣٧.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٥/ ١٢٣.

أنفسهم هم مجموعات غير متجانسة ممن آمنوا من كافة قبائل العرب، كما أن الأنصار -أيضًا- حديثو عهد بالنزاع الطويل بين الأوس والخزرج، فهو -بهذه الصورة- أبعد ما يكون عن التماسك والانسجام، وما كان هذا بالذي يغيب عن النبي ﷺ.

لهذا وقبل أن يدخل النبي ﷺ أرض المهجر أمر ببناء المسجد في قباء قبل المدينة، وقبل أن تطأ قدمه ﷺ أرض المدينة كان قد حدَّد موضع المسجد، لقد كان المسجد هو المؤسسة الأولى والمركزية في الدولة الإسلامية، لم يكن فقط دار عبادة، بل هو مدرسة تعليم الدين، ووسيلة الإعلام، وهو قصر الرئاسة الذي يستقبل فيه الوفود وتتخذ فيه القرارات، وهو بعد ذلك مأوى من لا مأوى له من المسلمين الفقراء، وقد يكون أحد جوانبه مستشفى لعلاج الجروح، أو سجنًا للأسرى(١)!

وكان الإسلام يدفع المسلمين للالتقاء في هذا المسجد خمس مرات يوميًّا على الأقل، ويرغبهم في كثرة الترداد عليه، وإقامة مجالس الذكر فيه؛ فهي من أسباب رفع الدرجات وغفران السيئات، ومن أسباب نزول الملائكة والرحمة والسكينة، ومن موجبات النور التام في ظلمات يوم القيامة، حتى الخطوة إلى المسجد لها أجر، وبلغ اندفاع المسلمين في هذا حدًّا وصفه ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: «ما يتخلف عن الصلاة إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان يؤتى بالرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»(٢).

وبهذا تم التلاحم بين القيادة (النبي) والأتباع، وبين الأتباع بعضهم بعضًا بأسرع وقت ممكن، لقد عرف الجميع بعضهم بعضًا، واختلطوا ببعضهم، فعرفوا أخبارهم وأحوالهم، وفقراءهم وأغنياءهم، فمن كان لديه فضل مال أو طعام ذهب به إلى الفقراء في المسجد، فَعَمَّ التكافل هذا المجتمع الصغير، وصاروا بعد الاغتراب

---

(١) د. علي الصلابي: السيرة النبوية ص٣٠٦ وما بعدها.

(٢) مسلم (٦٥٤).

والانقسام كتلة واحدة.

ولا نكاد نعرف عبر التاريخ وسيلة أسرع في اندماج المجتمعات من التقائهم يوميًّا خمس مرات على الأقل!

وقد كانت المدن الإسلامية في القرون الأولى ليس بها إلا مسجد واحد جامع يصلي فيه الناس جميعا يوم الجمعة معا، ما يؤدي إلى التعارف والاندماج بين أهل المدينة جميعا عبر الالتقاء لمرة واحدة أسبوعيا بحد أدنى، حتى توسعت المدن اتساعا كبيرا جعل من الضرورة تعدد المساجد الجامعة في المدينة الواحدة فكانت الجمعة تُصلى فيها بالتعاقب، ثم زاد توسع المدن وكثر سكانها بحيث صار من العسير التقاؤهم جميعا في مسجد واحد فتعددت المساجد الجامعة التي تقام فيها الجمعة في المدينة الواحدة.

وأما من لم يكن مسلمًا، أو كان مسلمًا عاصيًا ليس من أهل المسجد؛ فقد جعل الإسلام له حق الجار، ويوصي بحسن الجوار والمعاملة والمعاشرة، قال ابن حجر: «واسم الجار يشمل المسلم والكافر والعابد والفاسق، والصديق والعدو، والغريب والبلدي، والنافع والضار، والقريب والأجنبي، والأقرب دارًا والأبعد»[١].

ونزل القرآن يقول: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النساء: ٣٦].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «إنَّ خليلي ﷺ أوصاني: إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ»[٢].

وذكر النبي ﷺ أن «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٤١.

(٢) مسلم (٢٦٢٥).

خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»(١).

وبلغت الوصية حد أن يكون جوع الجار أو خوفه مما يهدد الإيمان؛ يقول النبي ﷺ: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَشْبَعُ، وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ»(٢).

ويقول ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ (أي: شروره)»(٣).

ولقد ظن النبي ﷺ من كثرة الوصية بالجار أنه سيكون في جملة الوارثين: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»(٤).

وبالإجمال فإن «حفظ الجار من كمال الإيمان، وكان أهل الجاهلية يحافظون عليه، ويحصل امتثال الوصية به بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة؛ كالهدية والسلام وطلاقة الوجه عند لقائه، وتفقد حاله، ومعاونته فيما يحتاج إليه.. إلى غير ذلك، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه حسية كانت أو معنوية، وقد نفى ﷺ الإيمان عمن لم يأمن جاره بوائقه، وهي مبالغة تُنبئ عن تعظيم حق الجار، وأن إضراره من الكبائر، قال (الشيخ ابن أبي جمرة): ويفترق الحال في ذلك بالنسبة للجار الصالح وغير الصالح، والذي يشمل الجميع: إرادة الخير له، وموعظته بالحسنى، والدعاء له بالهداية، وترك الإضرار له؛ إلا في الموضع الذي يجب فيه الإضرار له بالقول والفعل، والذي يخص الصالح هو جميع ما تقدَّم، وغير الصالح كَفُّه عن الذي يرتكبه بالحسنى على حسب مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) أحمد (٦٥٦٦) وقال شعيب الأرناءوط: إسناد قوي على شرط مسلم. والترمذي (١٩٤٤)، وصححه الألباني.

(٢) أبو يعلى (٢٦٩٩) والبيهقي (٢٠١٦٠)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ١٤٩).

(٣) البخاري (٥٦٧٠)، ومسلم (٤٦).

(٤) البخاري (٥٦٦٩)، ومسلم (٢٦٢٤).

المنكر، ويعظ الكافر بعرض الإسلام عليه، ويبين محاسنه والترغيب فيه برفق، ويعظ الفاسق بما يناسبه بالرفق أيضًا، ويستر عليه زَلَلَه عن غيره، وينهاه برفق، فإن أفاد فبه، وإلا فيهجره قاصدًا تأديبه على ذلك مع إعلامه بالسبب ليكف»(١).

وقد حثَّ الإسلام على مظاهر الود والتراحم مثل عيادة المريض والحرص على صلاة الجنائز والمواساة في الشدائد، بل في أبسط من هذا كإفشاء السلام وتشميت العاطس.

وإن مجتمعًا يتبادل أفراده السلام غادين رائحين لهو مجتمع سائر في طريق التحابب والترابط كما قال النبي ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»(٢).

بهذه الروابط الثلاث تحفظ المجتمعات نفسها، وتكون مواجهة المنكر فيها أفضل ما تكون، ولقد كانت عقوبة المسلمين للثلاثة الذين تخلَّفوا عن الغزو هي مجرد مقاطعتهم؛ فكانت عقوبة شديدة صورها الله بقوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وما كان ممكنًا لمثل هذه العقوبة أن تكون مؤثِّرة إلا بما بلغه المجتمع من تماسك متين.

إن المجتمعات المتماسكة هي التي تستطيع الحفاظ على ذاتها وخصوصيتها، ولو تطاول عليها العمر، وهؤلاء اليهود حين قَطَّعَهم الله أسباطًا أممًا كانوا في حاراتهم ومناطقهم يحيون مجتمعهم القديم؛ فحافظوا بذلك على وجودهم من الذوبان، وكانت هذه المجتمعات هي نواة تجددهم وإعادة انبعاثهم في دولة، فحتى «الحديث اليومي بين اليهود في المجتمع لم يكن يتمُّ بلغة البلاد، وإنما برطانة يهودية خاصة تُسَمَّى باليديش، وحين كان يهودي الجيتو يتعلَّم لغة جديدة، فإنه كان يتعلَّم (لشون

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ١٠/ ٤٤٢. والقول لابن أبي جمرة.

(٢) مسلم (٥٤).

هاقدوش)؛ أي: اللسان المقدس أو اللغة العبرية؛ لأن مجرَّد النظر إلى أبجدية الأغيار كان يُعَدُّ كفرًا ما بعده كفر، يستحقُّ اليهودي عليه حرق عينيه»[1]، فاستطاعوا بعد آلاف السنين أن يعيدوا بعث لغتهم من جديد في عملية مثيرة للانبهار على الرغم من أي شيء آخر.

والمجتمعات المتماسكة هي الأوسع تأثيرًا في صباغة غيرها بصبغتها، فحتى اليهود أنفسهم حين عاشوا بجانب العرب تأثروا بأخلاقهم على نحو لافت للنظر، فهم وإن كانوا أحرص الناس على حياة فقد تسرب إليهم بعض من طباع شجاعة العرب؛ فهذا حيي بن أخطب يضمن لبني قريظة أنه إن فشلت خطته في ضمهم لحلف المشركين؛ فإنه سيدخل معهم في حصنهم؛ ليقع عليه ما يقع عليهم، وقد كان: فلقد غدروا بعهدهم مع النبي، وتحالفوا مع الأحزاب؛ فلما نصر الله المؤمنين دخل معهم حيي بن أخطب وقُتِل معهم[2]، وقبل ذلك بأعوام كلَّف النبي ﷺ فريقًا من الصحابة بقتل اليهودي كعب بن الأشرف الذي نقض عهده مع المسلمين، وكان يهجو النبي، ويحرض عليه، ويرثى قتلى المشركين، فذهب هذا الفريق -وهو المكون من محمد بن مسلمة وأبو نائلة وآخرين- إلى كعب بن الأشرف، وبعد تحضير وتدبير نادوا عليه، فخافت زوجته، وحاولت منعه من النزول قائلة: «أسمع صوتًا يقطر منه الدم». فكان من ضمن ما قاله لها: «إن الكريم إذا دُعِي إلى طعنة بليل أجاب». وقد كان في هذا مقتله[3]، وقد ضرب العرب مثلا للوفاء بيهودي في عصر الجاهلية هو السموأل بن عادياء، وذلك أن امرؤ القيس استودع عنده دروعًا، فلما مات امرؤ القيس في رحلته إلى قيصر الروم أقبل ملك من ملوك الشام يريد أن يأخذ ميراث امرئ القيس من السموأل فأبَى واعتصم بحصنه، لكن الملك أمسك بابن السمؤال الذي كان

(١) د. عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية ١/ ٣١، ٣٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٤/ ١١٨، د. أكرم العمري: السيرة النبوية الصحيحة ص٤٢٧، ٤٢٨.

(٣) البخاري (٣٨١١)، ومسلم (١٨٠١).

خارج الحصن وساومه أن يعطيه دروع امرئ القيس وإلا قتل ابنه، فأبَى فذبح الملك ابنه وهو ينظر إليه، فصار السموأل مثلا في الوفاء[1].

(١) الميداني: مجمع الأمثال ٢/ ٣٧٤.

السلطة الحافزة والأمة الفاعلة

رأينا في السطور السابقة كيف أنشأ الإسلام السلطة السياسية، ثم كيف بنى المجتمع المتماسك المترابط، وبقي أن ننظر في العلاقة بينهما ليكتمل تصور «النظام العام» في البناء الإسلامي.

وخلاصة ما نراه في العلاقة بينهما أن السلطة تقوم بالمهام التي لا تنعقد بغير القوة والنظام؛ لتنطلق طاقة الأمة بذاتها في عمارة الأرض ونشر الحضارة، ففي ظلِّ السلطة الإسلامية تكون المساحة مفتوحة أمام الأمة في الانطلاق الحضاري بغير تعويق من السلطة؛ بل إن من مهام السلطة ما يجعلها محفزة لمجهود الأمة، فالحد الأدنى هو إقرار الأمن، وكلما رشدت السلطة كان تحفيزها أقوى وأوسع، فمن السلطة تندلع «شرارة الحضارة» لتتلقفها الأمة فتكون نورًا عظيمًا، وتفصيل ذلك كالآتي:

أولاً: واجبات السلطة

قال الماوردي: «يلزمه (أي الخليفة) من الأمور العامة عشرة أشياء:

أحدها: حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن نَجَمَ مبتدع أو زَاغَ ذو شبهة عنه، أوضح له الحجة، وبيَّن له الصواب، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود؛ ليكون الدين محروسًا من خلل، والأمة ممنوعة من زلل.

الثاني: تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعم النصفة، فلا يتعدَّى ظالم، ولا يضعف مظلوم.

الثالث: حماية البيضة والذب عن الحريم؛ ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال.

والرابع: إقامة الحدود؛ لتصان محارم الله تعالى عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

والخامس: تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا تظفر الأعداء بغرة ينتهكون فيها محرمًا، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دمًا.

والسادس: جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة؛ ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله.

والسابع: جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصًّا واجتهادًا من غير خوف ولا عسف.

والثامن: تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

التاسع: استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأموال؛ لتكون الأعمال بالكفاءة مضبوطة، والأموال بالأمناء محفوظة.

العاشر: أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفُّح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملَّة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذَّة أو عبادة»[1].

وإذا أردنا تلخيص هذه العشرة فهي: إقامة الأمن في بلاد المسلمين؛ سواء بحماية الداخل من الاضطرابات بإقامة الدين وحفظ حقوق الناس، أو حماية الثغور وجهاد الخارج وحفظ دولة الإسلام من أعاديها، فكأن واجب السلطة يمكن إجماله في «ضبط وتنظيم أوضاع الأمة».

ثانيًا: واجبات الأمة نحو السلطة

وقد أجملها الماوردي بقوله: «إذا قام الإمام بما ذكرناه من حقوق الأمة؛ فقد

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٤٠.

أدّى حق الله تعالى فيما لهم وعليهم، ووجب له عليهم حقان: الطاعة والنصرة ما لم يتغير حاله، والذي يتغير به حاله فيخرج به عن الإمامة شيئان: أحدهما: جرح في عدالته. والثاني: نقص في بدنه»[١].

فعلى الأمة الطاعة في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر ما دامت الطاعة في المعروف، وهذا يوفر للسلطة القدرة على القيام بأمر الحكم بأيسر سبيل؛ إذ الطاعة ليست للسلطة وإنما هي لله؛ بل ويكون التعاون على إقامة أمر الله درجة أعلى من مجرد الطاعة؛ فهي مشاركة في المسئولية وتحمل للأمانة.

ثالثًا: استقلال الأمة بحركتها عن السلطة

حيث تمثل المساجد مراكز اجتماعية لتعاون الناس على البر والتقوى، ويمكن لأي تجمع أن ينشئ من وجوه الخير ما استطاع دون أن يُواجَه بمعوقات من قِبَل السلطة، وجاء الإسلام بما أعطى للأمة القدرة على تمويل ذاتها وحركتها الحضارية دون لجوء إلى السلطة، وتلك هي فكرة «الوقف».

إن الأوقاف من الابتكارات الحضارية الإسلامية، فلم يكن موجودًا في العالم القديم إنفاق على أوجه الخير -اللهم إلا ما كان ينفق منه على المعابد وكهنتها، مما لا يمثل إلا جزءًا ضئيلاً من فكرة الأوقاف[٢]- حتى جاء الإسلام فأوقف رسول الله ﷺ ثم أوقف صحابته جميعًا أوقافًا كثيرة حتى قال جابر رضي الله عنه: «لم يكن لواحد من أصحاب رسول الله مقدرة إلا وأوقف».

وقال أهل العلم بأن هذا «نقل للإجماع فلا يلتفت إلى خلاف ذلك»[٣].

واستمرَّ نمو مؤسسة الوقف في العالم الإسلامي؛ لتشكل المصدر الذاتي الذي

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٤٢.

(٢) د. منذر قحف: الوقف الإسلامي ص٢٣ وما بعدها.

(٣) ابن قدامة: الشرح الكبير ٦/ ١٨٥.

تمول الأمة به مشاريعها الحضارية، فبما أوقف المسلمون من ممتلكاتهم توفرت أموال غزيرة أُنْفِق بها على العلماء وطلبة العلم والمكتبات والكتاتيب وشيوخها، وعلى إنشاء المدارس والمستشفيات، وعلى الجهاد وبناء الثغور وتحرير الأسرى، وعلى الفقراء والأيتام والضعفاء والمحتاجين والمسنين والعجزة واللاجئين والمشردين، وعلى تنمية البلدان بشقِّ الأنهار وتعبيد الطرق وإنشاء الجسور، وعلى دعم المعوزين كحمل من عجز عن الحج، وإيواء المطلقات، وتأجير ملابس الأفراح، وتوزيع الحلوى في رمضان، وتبديل الثياب الملوثة، وتعويض الأواني المكسورة، بل وعلى رعاية الحيوانات التي مرضت أو عجزت أو كبرت، وسائر ما يُمكن أن يُتَخَّيل من وجوه الخير ضربت فيه الأمة بسهم عبر مؤسسة الأوقاف[١].

ومن بين الآثار الكثيرة للوقف يهمنا التركيز على أثر استقلال مسار الأمة عن مسار السلطة، فلم يكن انهيار السلطة أو ضعفها السياسي والعسكري منعكسًا -بقوة- على نمو الأمة الحضاري؛ بل قد تسقط البلدان عسكريًّا ثم تأسر الغازين حضاريًّا وثقافيًّا كما حدث مع الصليبيين في الشام، والنورمان في صقلية، والإسبان في الأندلس، والمغول في الشرق الإسلامي.

إذًا، فالنتيجة النهائية أن الحضارة لا بد لها من أرضٍ تنشأ عليها، ولابد لها من دولةٍ توفر لها مقومات الحياة (الأمن والكرامة والراية والجيش والإدارة)، وهكذا بدأت حضارة الإسلام من «دولة» المدينة المنورة، ففيها نزلت الأحكام الربانية التي تنظم شئون المجتمع، فالدولة تُطلق «الشرارة الحضارية»؛ كقرارات تدوين الدواوين، وتعريب المكاتبات والنقود، وترجمة علوم اليونان والفرس والهند

---

(١) انظر في الأوقاف وآثارها: محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف، محمد بن أحمد الصالح: الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، د. راغب السرجاني: روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية. وانظر: بحوث مؤتمر الأوقاف الأول، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٢هـ.

والصين، ثم بعدئذٍ تتمكن الأمة من تمويل هذه البدايات الحضاريَّة ورعايتها ودعمها؛ حتى تتمكن من الاستقرار والمواصلة ولو ضعفت السلطة السياسية(١).

صحيح أنَّ الحضارة الإسلاميَّة لم تكن تنتهي حين ينتهي النظام السياسي؛ إلا أنها كانت تتأثر بمناخ الضعف والانحدار ولا شك، وحين يطول عليها الانهيار في الحالة السياسيَّة فإن أعراض الضعف تبدأ فيها حتى نصل إلى التخلُّف الحضاري.

هكذا يبني الإسلام نظامه العام:

١. السلطة تُبْنَى على هيمنة الشريعة، والحاكم فيها وكيل عن الأمة، وتدار فيها الأمور بالشورى.. فبهذا تتحمل الأمة مسئولية إقامة السلطة، ومسئولية مراقبتها، ومسئولية تصحيح انحرافها.

٢. والأمة وحدة مترابطة متماسكة متينة، تشملها رابطة الدين ورابطة الرحم ورابطة الجوار، وهي العلائق التي تحفظها من ظلم الحكام كما تجعل الجميع مستشعرًا للمسئولية تجاه الجميع، فلا يُفعل الذنب إلا خفية واستتارًا، فإن ظهر سارعت الأمة إلى مقاومته وإصلاحه.

٣. ثم تتعاون السلطة والدولة في إصلاح أمر الأمة وأمر الناس جميعًا؛ فالسلطة تؤمن استقرار الأمة وقوتها، وتشعل شرارة الحضارة فيها، والأمة تنطلق لبناء الحضارة ونشر الدعوة، والارتقاء بحالها وبحال البشر أجمعين.

فتلك الثلاثية بفروعها وتفاصيلها تُجَيِّش طاقات الأمة في إصلاح أحوال الدنيا، وتترجم بطريقة عملية مهمتها في الحياة ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١].

---

(١) محمد إلهامي: الدولة تبني الحضارة.. والأمة أيضًا.

الفصل الرابع

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

بدأ البناء الإسلامي للمجتمع من الأساس العقدي الذي هو مادة البناء وخامته، فالعقيدة تشكل الفرد -الذي هو لبنة البناء- كما تشكل «النظام العام» لهذا البناء وغايته وهدفه وطريقته، كما استعرضنا هذا في الفصول الثلاثة السابقة.

وبقي أن ندرس هذا العنصر الرابع، وهو أشبه ما يكون بجهاز الرقابة والحماية العامة، أي جهاز الإنذار، فبعد أن صحَّ الفرد في ذاته باتباع «التكليفات الفردية»، ثم صحَّ البناء في «نظامه العام» فتمتعت أجزاؤه في ذاتها بالقوة، ثم فيما بينها بالتماسك والانضباط، لم يبق إلا نظام الحماية هذا؛ حيث ينتشر في كافة أرجائه، فما إن يحدث خطأ أو خلل أو خطر في ناحية منه إلا وانبعث صداه في الأنحاء جميعها؛ فيأتيه المدد والغوث والتصحيح والتقويم.

فذلك هو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ففيه يقوم المسلم بواجب التصحيح لكل خطأ في كل مكونات ذلك البناء؛ سواء ارتبط معه برابطة مباشرة أم لا، وسواء كان قريبًا منه أم بعيدًا، وسواء كان الخلل في فرد آخر أم في جماعة أخرى.. ذلك هو التطبيق العملي للمسئولية الشاملة التي يستشعرها كل أحد تجاه كل أحد.

ولقد تميزت الأمة الإسلامية بنظام الحماية العامة هذا[1]، وبه صارت خير أمة

---

(١) وقد نقلنا من قبل كلمة المستشرق الأمريكي مايكل كوك التي يعترف فيها بأن الثقافة الغربية لم تعرف اسمًا لمسئولية الإنسان تجاه الآخرين. انظر الباب الأول، الفصل الثاني، مبحث: فلسفة المسؤولية في =

أخرجت للناس؛ إذ «سائر الأمم لم يأمروا كل أحد بكل معروف، ولا نهوا كل أحد عن كل منكر، ولا جاهدوا على ذلك»[(١)].

وبه احتفظت الأمة الإسلامية ببقائها على سبيل الجادة وعلى صراط الله المستقيم، دون انحراف عقدي أو فكري في مجموعها، وبه طال عمر حضارتها وحُفِظت سفينتها.

وفي هذا الفصل نلقي النظر على «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وقد قصرنا البحث فيما يخص موضوعنا «فقه المسئولية»؛ وبقدر ما يسمح به المقام من إيجاز، فاستعرضناه في مبْحَثَيْن هما:

- **المبحث الأول:** المسئولية الشاملة.
- **المبحث الثاني:** ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

= المناهج الوضعية، وهذا النقل من باب «وشهد شاهد من أهلها» أما نحن فيكفينا قول ربنا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

(١) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص١٢.

المسئولية الشاملة

قال الأصفهاني: «المعروف: اسم لكل فعل يُعْرَف بالعقل أو الشرع حَسَّنَه، والمنكر: ما يُنْكَر بهما»(١). ولأن الشرع هو أساس تكوين العقل المسلم -كما قدَّمنا في فصل «التكليفات الفردية»- فإن المسلم قادر في عموم الأحوال على معرفة المعروف وإنكار المنكر بما استقر في وجدانه من روح الشريعة، التي صارت عُرْفًا وضميرًا جمعيًا شائعًا في أفراد الأمة(٢).

ولذا يشيع في الآيات والأحاديث أن كل مؤمن قائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [التوبة: ٧١].

وفي السورة ذاتها -أيضًا- وصف الله المؤمنين بأنهم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

---

(١) الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص٥٦١.

(٢) وقد اقتصر بعض العلماء في تعريفه على مقياس «الشرع» فحسب ويُرى في كلامهم -أحيانًا- خشية أن يكون دخول «العقل» فيه فتحًا لباب الحكم بالهوى؛ سواء بالتشديد أو التفريط (مثلاً: البهوتي: كشف القناع ٣/ ٣٥، الشوكاني: إرشاد الفحول ١/ ٢٠٦)، فيما قال البعض الآخر: إن العقل غير الهوى وأنه محمول على العقل السوي والفطرة السليمة. ويُلمح في أقوالهم -أحيانًا- خشيةً من أن يؤول ذلك إلى قصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على العلماء فحسب، (مثلاً: القاسمي: محاسن التأويل ٩/ ٥٣٧، محمد رشيد رضا: تفسير المنار ٤/ ٢٣). وقد كثر التفصيل في الأمر للخلاف الشهير بين أهل السنة والمعتزلة في مسألة العقل وأصولهم الخمسة، التي منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر: الماوردي: أدب الدنيا والدين ص٩٥ وما بعدها، وشرحه: خان زاده: منهاج اليقين ص١٥٨ وما بعدها.

ومن التاريخ قصَّ الله علينا قصة رجل عامي يسكن أقصى المدينة - وأقصى المدينة حينئذٍ هو مسكن عوام الناس وفقرائهم- فجـاء ناصحًا: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يس: ٢٠]، فقتلوه فحاز منزلاً رفيعًا، هذا في زمن الاضطهاد.

وأما في زمان التمكين - وهو في المستقبل- فقد قال الله: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

وأما في الحاضر فلقد جاء أمر الله صريحًا مباشرًا للمؤمنين بعمومهم: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وفي كل ما سبق من آيات عموم يكون تخصيصه بنصوص أخرى شديد التكلف؛ ولذلك طال الخلاف بين العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤]؛ فلقد توقفوا عند لفظ: «منكم». وهل هي «تبعيضية»؛ تعني انفراد مجموعة من المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أم هي «بيانية» أي لجميع المؤمنين، فبعضهم قال: هي لجميع المؤمنين؛ «أي لتكونوا كلكم أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر»(١).

وبعضهم قال: إنها لطائفة من المؤمنين مؤهلة بالعلم أو بالولاية للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعلم وعدل(٢).

---

(١) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٥٢، وانظر أيضًا: أبو حيان: البحر المحيط ٣/ ٢٩٠، الواحدي: الوجيز ص٢٢٦، البغوي: معالم التنزيل ١/ ٤٨٦، محمد رشيد رضا: تفسير المنار ٤/ ٢٣، الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٤/ ٣٨.

(٢) ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص٢٤٩، الطبري: جامع البيان ٧/ ٩٠، الجصاص: أحكام القرآن =

وخلاصة هذه المسألة وما جرى فيها من أقوال العلماء: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مساحة واسعة متفاوتة؛ فمنه ما يكون عامًّا يقوم به كل المؤمنين تجاه من يستطيعون، وبقدر ما تسمح به طاقتهم من العلم والموهبة والقدرة، ومنه ما يحتاج إلى تعمق في العلم أو بلاغة وفصاحة في العرض أو في موهبة في الدعوة والدخول إلى القلوب، أو يحتاج إلى منصب تقوم به القدرة على الإلزام بالمعروف وتغيير المنكر؛ فهذا مما يكون واجبًا على الكفاية لا واجبًا عينيًّا(١).

وبهذا يستبين أن الأمر ليس خلافًا في المسألة بقدر ما هو ضبط لها، فلا تتكلف نفس إلا وسعها، ولا تتذرع نفس أوتيت وسعًا بما لا يجوز لها، أو كما قال ابن كثير: «المقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من الأمة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبًا على كل فرد من الأمة بحسبه»(٢).

وبهذا رسخ في الأمة نظام الحماية الشامل هذا، فالنصيحة مبذولة لكل أحد كما قال رسول الله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ». قلنا لمن؟ قال: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»(٣). وقال النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»(٤).

وفي حديث آخر ينفي النبي الإيمان على من لا ينكر المنكر؛ فقال ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ

= ٢/ ٣١٥، النيسابوري: إيجاز البيان ١/ ٢٠٠، ٢٠١، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٦٥، الشوكاني: فتح القدير ١/ ٤٢٣، السعدي: تيسير الكريم الرحمن ص١٤٢.

(١) ابن عطية: المحرر الوجيز ١/ ٤٨٦، الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير ٤/ ٣٩.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ٩١.

(٣) مسلم (٥٥).

(٤) مسلم (٤٩).

جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ»(١).

وغير مقبول أن يجهل المسلم المعروف من المنكر، وقد سئل ابن مسعود رضي الله عنه: «من ميت الأحياء؟ فقال: من لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا»(٢).

ثم من غير المقبول أن يسكت عنه؛ ففيما روى قتادة أن عمر بن الخطاب قال في حجَّة حجَّها ورأى من الناس رِعَة سيئة(٣)، فقرأ هذه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية [آل عمران: ١١٠]. ثم قال: يا أيها الناس، من سره أن يكون من تلك الأمة، فليؤد شرط الله منها(٤).

ومن هنا فاضت أقوال العلماء في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال ابن حزم: «الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنكر فرضٌ على كُلِّ مُسلِم إن قَدِرَ بيده فبيده، وإن لم يقدر بيده فبلسانه، وإن لم يقدر بلسانه فبقلبه ولا بُدَّ، وذلك أضعف الإيمان، فإن لم يفعل فلا إيمان له»(٥).

وقد «أجمع المسلمون -فيما ذكر ابن عبد البر- أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وإنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم، الذي لا يتعدى إلى الأذى؛ فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر فبلسانه، فإن لم يقدر فبقلبه»(٦).

ويلخص ابن تيمية الأمر بقوله: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على

---

(١) مسلم (٥٠).

(٢) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص١٨.

(٣) رِعَة سيئة: سوء أدب.

(٤) الطبري: جامع البيان ٧/ ١٠٢.

(٥) ابن حزم: المحلى ٨/ ٤٢٣.

(٦) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٨.

كل إنسان بحسب قدرته»[١].

وسمى الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر: «أطِبَّاء الأديان، الذين تُشفَى بهم القلوب المريضة، وتهتدي بهم القلوب الضالة، وترشُدُ بهم القلوبُ الغاوية، وتستقيم بهم القلوبُ الزائغة، وهم أعلامُ الهدى ومصابيح الدُّجى»[٢].

وقد بلغ تعظيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شأنًا بعيدًا إلى حد أن قال بعض العلماء وهو الحصفكي الحنفي: إن «القائل لمن يأمر بالمعروف: أنت فضوليّ يُخشَى عليه الكفر»[٣].

ولا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى على من اختار العزلة عن الناس؛ ما دام قادرًا على الأمر والنهي، على أن الاختلاط بالناس -لا الانعزال عنهم- هو سبيل النبي ﷺ وصحابته والتابعين، وقد قَسَّم عبد الرحمن بن أبي بكر الحنبلي تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى سبع طبقات ذَمَّهم جميعًا؛ هم:

١. مَن تركه إيثارًا للدنيا على الدِّين، واستجابة لوسوسة الشياطين، بالخشية من وقوع الشر أو انقطاع البر؛ إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر.

٢. مَن تركه خوفًا على ماله وذهاب جاهه وزوال حاله، فلا يتكلم رهبة من سقوط جاهه.

٣. مَن تركه لِما للمنصوح من أيادٍ وفضائل عليه.

٤. مَن تركه ليحوز محبة الناس إذا رأى أن محبتهم له بسكوته أكثر.

٥. مَن تركه ليحوز مدح الناس وثنائهم؛ مما يرى أنه قد يذهب بالأمر والنهي.

---

(١) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص١٥.

(٢) ابن تيمية: جامع المسائل ٥/ ٢٣٧.

(٣) ابن عابدين: حاشية ابن عابدين على الحصفكي (رد المحتار على الدر المختار) ٥/ ١٠٦.

٦. مَن تركه تكبرًا وعجبًا.

٧. مَن تركه زهدًا وانعزالاً عن الناس.

ثم قال: «فهذه الطبقات كلها مذمومة، وبعضها شر من بعض»[١].

كما لا يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قلبيًّا أبدًا، بل تغيير المنكر بالقلب -وهي كراهته ورجاء زواله- هي أضعف الإيمان، وإنما يسقط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حال العجز، أو في زمان الفتنة الشديدة، أو حين يأتي آخر الزمان فتكثر الفتن[٢]، أو حال وجود مكروه معتبر يقوم مقام العجز؛ كخوف القتل، وهلكة المال، لا سيما إن لم يغلب على الظن انتفاع المنصوح بهذا[٣].

وقد ثار خلاف طويل حول مدى الخوف المعتبر الذي يُسقط وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما معياره، وهو خلاف يسعى لضبط حدود الأمر؛ فلا يتوسع الناس في ترك الأمر والنهي بذريعة الخوف، ولا يتوسعون في الجرأة؛ حتى يؤدي بهم الأمر إلى فتنة أو فوضى أو هلكة بغير انتفاع، ومن أجمع ما اطلعنا عليه في هذا الموضوع ما كتبه الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين، وهذا خلاصته وضعناها في نقاط:

---

(١) ابن داود الحنبلي: الكنز الأكبر ص٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) ومما يلاحظ هنا أنه قد وُجِد في كل زمان من رأى زمانه آخرَ الزمان، ورأى فيه اشتداد الفتن وأفتى لنفسه أو لغيره بالاعتزال وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم جاءت أزمنة بعده بما هو أشد بكثير مما كان في زمانه، فوجدت أقوامًا آخرين يرونها أزمان الفتن.. وهكذا، ونحسب أن هذا مما ينبغي ألا يؤخذ فيه بقول الفرد، وإنما يفتي به جماعة من العلماء في المجامع الفقهية أو نحو ذلك، فكم جرَّ هذا التصور على الأمة من البلاء؛ إذ الفساد ينتشر وبعض الصالحين يفتون أنفسهم بالعزلة والانعزال.

(٣) خالد السبت: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص١٠٨ وما بعدها.

أولاً: حالة اليقين

١. إذا كان إنكار المنكر لا ينفع ويجلب ضررًا فلا يجب عليه الإنكار؛ بل ربما يحرم أحيانًا.

٢. إذا كان إنكار المنكر يزيله ولا يجلب ضررًا فيجب عليه الإنكار.

٣. إذا كان إنكار المنكر لا يزيله؛ ولكنه لا يخاف مكروهًا، فيستحب الإنكار لإظهار شعائر الإسلام، وتذكير الناس بأمر الدين.

٤. إذا كان إنكار المنكر يزيله؛ ولكنه يعود بالضرر عليه فهو مستحب، لما له من تأثير في رفع المنكر، أو في كسر جاه الفاسق، أو في تقوية قلوب أهل الدين.

ثانيًا: حالة الظن

إذا غلب عليه الظن أن يصيبه مكروه، أو أنه لا تفيد حسبته؛ فالظن الغالب في هذه الأبواب في معنى العلم:

١. إن كان غالب ظنه أنه لا يفيد (في إزالة المنكر)؛ ولكن يحتمل أن يفيد، وهو مع ذلك لا يتوقع مكروهًا فالأظهر أنه واجب؛ إذ عموم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقتضي الوجوب بكل حال، ونحن إنما نستثني عنه بطريق التخصيص.

٢. وإن كان غالب ظنه أنه يصاب بمكروه لم يجب (عليه إزالة المنكر)، وإن غلب (على ظنه) أنه لا يصاب وَجَبَ (إنكار المنكر).

٣. ومجرد التجويز لا يُسْقِط الوجوب، فالأصل (في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) الوجوب بحكم العمومات، وإنما يسقط بمكروه، والمكروه هو الذي يظن أو يعلم حتى يكون متوقعًا.

ثالثًا: معايير قياس الضرر

١. فإن قيل: فالتوقع للمكروه يختلف بالجبن والجراءة. قلنا: التعويل على

اعتدال الطبع وسلامة العقل والمزاج، وعلى الجبان والجريء دفع الجبن والتهور عنهما بالعلم وبالاجتهاد في اكتساب الشجاعة والاتزان.

٢. فإن قيل: فالمكروه المتوقع ما حده؟! فإن الإنسان قد يكره كلمة وقد يكره ضربة وقد يكره، وما من شخص يؤمر بالمعروف إلا يتوقع منه نوع من الأذى. قلنا: مطالب الخلق في الدنيا ترجع إلى أربعة أمور: العلم والصحة والمال والجاه، ويكره في هذه الأربعة أمران: زوال ما هو حاصل موجود، وامتناع ما هو منتظر مفقود.

- فأما امتناع ما هو منتظر مفقود، وهذا ينبغي ألا يكون مُرَخِّصًا في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- وأما زوال ما هو حاصل موجود: فالعلم لا سبيل إلى سلبه وهذا من شرف العلم، وأما الصحة (التي تذهب بالضرب المؤلم أو القطع أو القتل)، والثروة (التي تذهب بنهب البيت أو هلاك المال الكثير)، والجاه (الذي يذهب بالإهانة والتعيير الشديد)، فلا يجب الإنكار في هذه الأحوال؛ وإن كان يُستحب له ذلك؛ إذ لا بأس أن يفدي دينه بدنياه.

ولو تُرِكَت الحسبة بلوم لائم أو باغتياب فاسق أو شتمة وتعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه وقلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلاً؛ إذ لا تنفك الحسبة عنه، وقد دلت العمومات على تأكد وجوب الحسبة، وعظم الخطر في السكوت عنها، فلا يقابله إلا ما عظم في الدين خطره والمال والنفس والمروءة قد ظهر في الشرع خطرها، فأما مزايا الجاه والحشمة ودرجات التجمل وطلب ثناء الخلق فكل ذلك لا خطر له[١].

ولم يكن الغرض من هذا النقل ضبط المسألة، وإنما إثبات معنى المسئولية الشاملة التي يقوم بها المسلم، ولا تسقط عنه إلا في حالات قاهرة نادرة، وسيأتي مزيد

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/ ٣١٩ وما بعدها باختصار.

من الكلام عن تحمل الأذى في سبيل القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المبحث القادم، لكن المهم -في سياقنا الآن- هو هذه المسئولية التي يقوم بها المسلم تجاه المنكرات، ومتى يمكن أن يُعذر إن لم يقم بها، وقد رأينا عمومها وشموليتها بما لا يُعرف في فلسفة أخرى على الإطلاق.

ومما يهمنا أن نشير إليه في هذا الموطن أن الفريضة أمر بالمعروف ونهي عن المنكر؛ وليس نهيًا فقط، فجانب التعاون على الخير مقدم على النهي عن الشر والإثم.

ولشيخ الإسلام كلام لطيف ينقد فيه قومًا اهتموا بالنهي عن المنكر، ولم يقوموا بالأمر بالمعروف، يقول: «كثير من المنكرين لبدع العبادات والعادات تجدهم مقصرين في فعل السنن من ذلك، أو الأمر به. ولعل حال كثير منهم يكون أسوأ من حال من يأتي بتلك العبادات المشتملة على نوع من الكراهة. بل الدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، فلا ينهى عن منكر إلا ويؤمر بمعروف يغني عنه كما يؤمر بعبادة الله سبحانه، وينهى عن عبادة ما سواه؛ إذ رأس الأمر شهادة أن لا إله إلا الله، والنفوس خلقت لتعمل، لا لتترك، وإنما الترك مقصود لغيره، فإن لم يشتغل بعمل صالح، وإلا لم يترك العلم السيئ، أو الناقص، لكن لما كان من الأعمال السيئة ما يفسد عليها العمل الصالح، نهيت عنه حفظًا للعمل الصالح»(١).

وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابط وآداب وأصول، وبيانها ليس مما يدخل في بحثنا هذا؛ لذا نكتفي بإشارة سريعة، وجماعها ثلاثة: العلم، والرفق، والصبر:

فأما العلم فلكي يكون الأمر والنهي في محله، فلا يأمر بمنكر -وهو يظنه

---

(١) ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ١٢٦.

معروفًا- أو ينهى عن معروف -وهو يظنه منكرًا- أو ينهى عن منكر فيؤدي إلى منكر أشد منه، أو تزدحم أمامه المصالح فلا يقدر أيها أولى، وقد قيل للإمام أحمد عن بعض الأمراء: إنه أنفق على مصحف ألف دينار، أو نحو ذلك. فقال: دعهم، فهذا أفضل ما أنفقوا فيه الذهب. مع أن مذهبه أن زخرفة المصاحف مكروهة؛ وذلك لأنهم إن لم ينفقوا على المصاحف فسينفقونها في كتاب من كتب الفجور: مثل كتب الأسمار أو الأشعار أو الفلسفة(١).

وأما الرفق فلكي يحصل المقصود من الأمر والنهي، فلا يكون بين القائم به والمنصوح به نفرة وجفوة وابتعاد، بل هو حبٌّ يدعو إلى حرصٍ ويُبذل في ظلال الشفقة.

ولقد قيل للنبي ﷺ وهو أكمل البشر: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقيل لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

فالدعوة مع الرفق أبلغ في حصول المأمول كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»(٢).

وفي حديث آخر رأى النبي أن حظ الإنسان من الرفق هو حظه من الخير، قال ﷺ: «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الْخَيْرَ»(٣).

وأما الصبر فأصله في قول الله تعالى على لسان لقمان الحكيم: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان: ١٧]، والوصية بالصبر موجهة لكل ذي رسالة، ولقد كان من أوائل ما نزل على

---

(١) السابق ٢/ ١٢٦، ١٢٧.

(٢) مسلم (٢٥٩٤).

(٣) مسلم (٢٥٩٢).

النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر: ١ - ٧]، وأفضل الأنبياء هُم أكثرهم صبرًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ولا يزال كل داعية مأمورًا بالصبر حتى يرى موعود الله إما في الدنيا أو في الآخرة، فلا غنى للإنسان عن الصبر.

وعلى المسلم أن يتخلق بهذه الصفات في قيامة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يتدرب على التخلق بها إذ يقوم بهذه الفريضة، وليس له أن يترك الأمر والنهي لأنه لم يتخلق بها.

بل يقول ابن تيمية: «وليُعلم أن اشتراط هذه الخصال (العلم، الرفق، الصبر) في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب الصعوبة على كثير من النفوس، فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه؛ وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر من دون هذه الخصال أو أقل، وفعل ما نهى الله عنه في الأمر معصية. فالمنتقل من معصية إلى معصية كالمستجير من الرمضاء بالنار، أو كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل قد يكون الثاني شرًا من الأول، وقد يكون دينه، وقد يكونان سواء، فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي، والمعتدي فيه قد يكون ذنب هذا أعظم، وقد يكون ذنب ذاك أعظم، وقد يكونان سواء»(١).

---

(١) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص٣١.

ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الغزالي: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفترة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد»(١).

لقد سلك الغزالي منهج توضيح ما لو تعطل القيام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلم يكن الأمر مجرد الخراب والفساد فحسب؛ بل هو انعدام شعور الناس بالخراب والفساد، ثم الاستيقاظ بعد وقوع الكارثة وفوات زمان استدراكها.

وقد نعجب حين نجد هذا الفهم قد قال به قبل ذلك نملة، نملة وقفت ناصحةً قومها، فكان خطابها درسًا في الفصاحة والإنصاف:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨].

ويوحي قول الله تعالى «نملة» بالتنكير على أنها كانت من العامَّة لا من القادة، ويظهر في كلامها الحرص على نجاة المجموع لا النجاة بالنفس، كما يظهر العدل في الوصف في قولها: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ فليس ذلك عن تعدٍّ منهم أو ظلم.

ومثل النملة هدهد رأى الباطل وعلم أن القوم لا يدرون أنهم هلكى، فقصَّ ما رأى على هذا النحو: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٦.

عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤].

ومن هنا نعلم أن بقاء المجتمعات مرتبط بمن يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأن وجود الصالحين في أنفسهم ليس عاصمًا من الهلكة؛ بل لا بد من وجود المُصلحين: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٦، ١١٧].

ولذلك كانت مهمة الأنبياء نصح أقوامهم وإلا حلَّ بهم العذاب والفناء، حتى كانت عاقبة المكذبين كما وصفها رب العالمين: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وحين شاءت إرادة الله ألا يهلك المكذبين بكارثة كونية من بعد إهلاك فرعون؛ فإنه بعث أمة تقوم بالحق وتجاهد في سبيله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ ذلك هم بنو إسرائيل(١) فلمَّا لم يقم هؤلاء بذلك الأمر لعنهم الله: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وكان أهل النجاة منهم هم مَن أنكروا المنكر: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ فَتَحْنَا

---

(١) قال أبو سعيد الخدري: إن الله تعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم؛ بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين. الطبري: جامع البيان ١٩/ ٥٨٤، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٣٩.

عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[الأعراف: ١٦٥].

وحين انتهى زمان الرسل كلَّف الله هذه الأمة بالقيام بهذا الواجب، وبسط أمامهم قصص الأنبياء من قبل، وكذلك قصة بني إسرائيل الأمة الفاشلة، التي لم تحمل رسالة الله، ولم تقم بواجبها، صارت أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس لقيامها بهذا الواجب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

وفي هذا يقول القرطبي: «قوله تعالى: (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به. فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم، وكان ذلك سببًا لهلاكهم»(١).

ولقد جاءت أحاديث النبي ﷺ تحذر من عاقبة ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أشهرها حديث السفينة، وفيه قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»(٢). وحين سألته زينب بنت جحش: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»(٣).

وقد حرص أبو بكر الصديق على تصحيح المفاهيم، فقال رضي الله عنه: يا أيها الناس

---

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤/ ١٧٣.

(٢) البخاري (٢٣٦١).

(٣) البخاري (٣١٦٨)، ومسلم (٢٨٨٠).

إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا، فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ»(١).

لكل هذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يُتحمَّل فيه الأذى، وقد يتعرض فيه الإنسان إلى المخاطر؛ فهو فداء بالنفس إنقاذًا للأمة كلها من الهلاك، ووردت روايات تفيد أن قول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٧]، نزل فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيُقْتَل(٢)، ولأجل هذا عرض صاحب القرية نفسه للقتل وهو ينصح: ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠].

ولأجل هذا كشف مؤمن آل فرعون عن إيمانه بعدما ظل يكتمه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ ﴾ [غافر: ٢٨].

ولأجل هذا أوصى لقمان ابنه: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان: ١٧].

وقد أخبر النبي ﷺ أن سيد الشهداء: «رَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ، فَقَتَلَهُ»(٣).

ونَقَلَ عبادة بن الصامت رضي الله عنه بيعة رسول الله فقال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم -أو نقول-

---

(١) أحمد (١)، وقال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح، والترمذي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، وصححه الألباني.

(٢) الطبري: جامع البيان ٤/ ٢٥٠، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٢١.

(٣) الحاكم (٤٨٨٤) وقال: صحيح الإسناد. وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة ٣٧٤).

بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم»(١).

وقد «جرت سنة الأنبياء والمرسلين والسلف الصالحين على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان محفوفًا بالمكاره والمخاوف، وكم قُتِل في سبيل ذلك منهم من نبي وصديق!»(٢).

وبرغم الأذى لا يكف المصلح عن الإصلاح.

وقد قال التابعي الجليل أويس القرني: «إن قيام المؤمن بأمر الله لم يبق له صديقًا، والله إنا لنأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيتخذونا أعداء ويجدون على ذلك من الفساق أعوانًا، حتى والله! لقد رموني بالعظائم. وايم الله لا يمنعني ذلك أن أقوم لله بالحق»(٣).

إن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقوي ما يمكن أن نسميه: «مناعة المجتمع»؛ ولهذا فإن القيام بالأمر والنهي حَسَّاس لحال المجتمع أكثر من حساسيته لحال الفرد، لا سيما إن كان المرء يتخفى بالمعصية، وفي مثل هذا قيل لابن مسعود ﵁ -وقد أُتِي له برجل-: «هذا فلان تقطر لحيته خمرًا. فقال عبد الله: إنا قد نُهِينا عن التجسُّس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به»(٤).

قال أبو يعلى: ما لم يظهر من المحظورات فليس للمحتسب أن يتجسس عنها، ولا أن يهتك الأستار حذرًا من الاستسرار بها(٥).

وسئل الإمام أحمد بن حنبل عن الرجل، يمر بالقوم يغنون؟ قال: إذا ظهر له، هم

---

(١) البخاري (٦٧٧٤).

(٢) محمد رشيد رضا: تفسير المنار ٤/ ٢٧.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦/ ٢٠٧.

(٤) أبو داود (٤٨٩٠)، وصحح إسناده الألباني.

(٥) أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية ص٢٩٥.

داخل، قلت (أي: السائل): لكن الصوت يسمع في الطريق؟ قال: هذا قد ظهر، عليه أن ينهاهم، ورأى أن ينكر الطبل، يعني إذا سُمِع حسه(١).

وبهذا يُحفظ المجتمع، وإلا انتشر الفساد؛ وذلك أن أغلب أحوال الفساد تكون بالاجتماع والمجاهرة لا بالاختفاء؛ فكثير «من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه، ويبغضون من لا يوافقهم... إما للمعاونة على ذلك كما في المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطريق.. ونحو ذلك، وإما لتلذذهم بالموافقة، كما في المجتمعين على شرب الخمر مثلاً؛ فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم، لكراهيتهم امتيازه عنهم بالخير إما حسدًا له على ذلك، أو لئلاً يعلو عليهم بذلك ويحمده الناس دونهم، أو لئلاً يكون له عليهم حجة، أو لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه، أو بمن يرفع ذلك إليهم، أو لئلاً يكونوا تحت منته وخطره، ونحو ذلك من الأسباب»(٢)، فإن عجز المسلم عن هذا فلا أقل من الهجران والمقاطعة.

وإن العزل المجتمعي لأهل المنكرات كفيل بردهم عنه، ولقد عانى الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله من أثر مقاطعة المسلمين لهم؛ حتى صاروا كما وصفهم الله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨]، فصاروا يلتمسون توبة الله عليهم، وكان أسعد ما جاءهم من الأخبار هو خبر هذه التوبة(٣).

بغير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا فرق بين مجتمع البشر وقطيع الحيوان، يقول الشيخ محمد عبده: «إن ما نحن فيه الآن من سوء الحال أثر تفريط كبير تمادى في زمن طويل بعدما عظم التساهل في ترك التناصح، وبطل ردُّ ما يتنازع فيه المسلمون إلى الله ورسوله -أي إلى كتاب الله وسنة رسوله- وخوت القلوب من

---

(١) الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص٣٩.

(٢) ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص٤٥.

(٣) البخاري (٤١٥٦)، ومسلم (٢٧٦٩).

احترام الدين؛ حتى لم يعد له سلطان على الإرادة، بل صار كل شخص أسير هواه. ومتى أمسى الناس هكذا -لا دين ولا مروءة ولا أدب- فأي فرق بين الطائفة منهم والقطيع من المعز أو البقر؟»[١].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يمثل نظام الحماية الشاملة في البناء الإسلامي، فأينما جاء الخطر أو الخلل انبعث له مَنْ يُقيمه ويعالجه؛ وذلك فوق كونه فريضة شرعية فإنه ضرورة كونية إن لم يقم به الناس جاءهم الفناء والهلاك.

* * *

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار ٤/ ٢٥.

الفصل الخامس

الإنجاز الإسلامي

لقد أكملنا في الفصول الأربعة السابقة رسم البناء الإسلامي للمجتمعات؛ فالأساس العقدي هو مادته وخامته، والتكليفات الفردية هي تكوين اللبنات، والنظام العام هو تكوين البناء وضم أجزائه وإخراجها مترابطة متزنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو نظام الحماية الشامل الذي يحفظ كيان هذا البناء؛ فيجعل كل خلل فيه مهمة يتداعى إلى إصلاحها سائر البناء، كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر.

وقد بقي في هذا الباب أن نثبت بالواقع وعبر التاريخ أن هذا البناء لم يكن نظريًا فحسب، ولم يكن -كغيره من الأفكار والفلسفات ونظريات المدن الفاضلة- أحلامًا تفرزها العقول وتداعب الخيال، بل لقد كان بناء حقيقيًا، أُنشئ وقام ورسخ، وظل يعطي ويفيض من خيره قرونًا على أهله ومن عداهم؛ بل ومن عاداه، وبهذا لم يتميز على غيره بحسن الصنعة فحسب؛ بل تميز عليه بالواقعية وإمكانية التطبيق.

في هذا الباب لن نتجول في النصوص والأقوال؛ بل سنُقَلِّب صفحات التاريخ ونتجوَّل في الأفعال والمواقف، فنرصد «الإنجاز» من بعد ما رصدنا «المنهج»؛ فجعلنا هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: قوة الإنجاز
- المبحث الثاني: شذرات تاريخية
- المبحث الثالث: نماذج فارقة في لحظات فاصلة.

قوة الإنجاز

كتب مايكل هارت كتابًا حول أعظم مائة شخصية في التاريخ الإنساني، وعلى الرغم من أنه مسيحي لا يؤمن بالإسلام ولا بمحمد ﷺ إلا أنه جعل النبي ﷺ على رأس هذه المائة، وقال: «لقد اخترت محمدًا ﷺ ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار، ومعهم حق في ذلك، ولكن محمدًا ﷺ هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحًا مطلقًا على المستوى الديني والدنيوي. وهو قد دعا إلى الإسلام، ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائدًا سياسيًا وعسكريًا ودينيًا، وبعد ثلاثة عشر قرنًا من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قويًا متجددًا»(١).

ويفسّر هارت حيثيات هذا الاختيار بالقول: «كان البدو من سكان شبه الجزيرة مشهورين بشراستهم في القتال، وكانوا ممزقين -أيضًا- رغم أنهم قليلو العدد، ولم تكن لهم قوة أو سطوة العرب في الشمال الذين عاشوا على الأرض المزروعة. ولكن الرسول استطاع لأول مرة في التاريخ أن يوحّد بينهم وأن يملأهم بالإيمان وأن يهديهم جميعًا بالدعوة إلى الإله الواحد؛ ولذلك استطاعت جيوش المسلمين الصغيرة المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية... وإذا استعرضنا التاريخ .. فإننا نجد أحداثًا كثيرة من الممكن أن تقع دون أبطالها المعروفين... مثلاً كان يمكن أن تستقل مستعمرات أمريكا الجنوبية عن إسبانيا دون أن يتزعم حركاتها الاستقلالية رجل مثل: سيمون بوليفار.. هذا ممكن جدًّا، على أن يجيء بعد ذلك أي إنسان ويقوم بنفس العمل، ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو وعن العرب عمومًا، وعن إمبراطوريتهم الواسعة دون أن يكون هناك محمد ﷺ، فلم يعرف

---

(١) مايكل هارت: الخالدون مائة ص١٣.

العالم كله رجلاً بهذه العظمة قبل ذلك، وما كان من الممكن أن تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته، وإيمان الجميع به»(١).

كان الإنجاز بمنزلة انقلاب كامل كما يقول المستشرق الإنجليزي توماس أرنولد: «إن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرَّد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب؛ وإنما كان انقلابًا كاملاً لِمُثُل الحياة التي كانت من قبل»(٢).

ويصف مؤرخ الحضارة ول ديورانت ملامح هذا الانقلاب بقوله: «إذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس قلنا: إن محمدًا ﷺ كان من أعظم عظماء التاريخ؛ فلقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الروحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجية حرارة الجو وجدب الصحراء، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحًا لم يدانه فيه أي مصلح آخر في التاريخ كله، وقل أن نجد إنسانًا غيره حقق ما كان يحلم به، ولم يكن ذلك لأنه هو نفسه كان شديد التمسك بالدين وكفى؛ بل لأنه لم يكن ثمة قوة غير قوة الدين تدفع العرب في أيامه إلى سلوك ذلك الطريق الذي سلكوه، وكانت بلاد العرب -لما بدأ الدعوة- صحراء جدباء، تسكنها قبائل من عبدة الأوثان قليل عددها، متفرقة كلمتها، وكانت عند وفاته أمة موحدة متماسكة، وقد كبح جماح التعصب والخرافات، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينًا سهلاً واضحًا قويًّا، وصرحًا خلقيًّا قوامه البسالة والعزة القومية، واستطاع في جيل واحد أن ينتصر في مائة معركة، وفي قرن واحد أن ينشئ دولة عظيمة، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة ذات خطر عظيم في نصف العالم»(٣).

---

(١) السابق ص١٦ وما بعدها.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٦١.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ٤٧.

إن أفعل أثر في التطبيق العملي للفكرة المجردة هي أن الإسلام لم يكن مجرد فكرة؛ بل كان دينًا يرى فيه المرء نجاة الآخرة، وإن فاته نصيب الدنيا، وقد صار الإيمان بدين ضرورة مُسَلَّم بها وبأثرها في الحياة حتى لدى فلاسفة المادية النفعية الذين -وإن لم يؤمنوا بدين- يعترفون بنفع وجود الدين في حياة البشر[١].

وقد ظل أثر الدين قائمًا في حياة المسلمين ومجتمعاتهم حتى وهم في أضعف حالاتهم من الأخذ بنصيب الدنيا، يشهد الفيلسوف والمستشرق الفرنسي جوستاف لوبون بأنه «يوجد فرق بين التعاليم المكتوبة والعمل بها في الغالب، وإذا ما أراد الإنسان أن يعلم أهمية هذه التعاليم وجب عليه أن يدرس درجة تأثيرها في الحياة، وحدود هذا التأثير هو الذي تهم معرفته الآن... تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفة التي اتخذت القرآن مرشدًا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا[٢]... وعلى من يرغب في فهم حقيقة أمم الشرق التي لم يدرك الأوروبيون أمرها إلا قليلاً، أن يتمثل سلطان الدين الكبير على نفوس أبنائها، وللدين ذي التأثير الضئيل فينا[٣] نفوذ عظيم فيهم، وبالدين يُؤَثَّر في نفوسهم»[٤].

لكن التأثير الإسلامي لم يكن فحسب فيما أنجزه للعرب، بل ثمة تأثير شامل فاض به الإسلام على العالمين، وقد شمل هذا التأثير كافة الميادين الإنسانية:

ففي ميدان العلوم تقول المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه: «لقد طوَّر العرب بتجاربهم وأبحاثهم العلمية ما أخذوه من مادَّة خام عن الإغريق، وشكَّلوه تشكيلاً

(١) محمد إلهامي: التأمل ص١٢ وما بعدها.

(٢) توفي لوبون (١٣ من ديسمبر ١٩٣١م = ٣ من شعبان ١٣٥٠هـ).

(٣) أي: الأوروبيين.

(٤) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٤١٧.

جديدًا، فالعرب -في الواقع- هم الذين ابتدعوا طريقة البحث العلمي الحقّ القائم على التجربة... إن العرب لم يُنْقِذُوا الحضارة الإغريقية من الزوال ونَظَّمُوها ورتَّبُوهَا ثم أَهْدَوْهَا إلى الغرب فحسب؛ إنهم مُؤَسِّسُو الطُّرُقَ التجريبية في الكيمياء، والطبيعة، والحساب، والجبر، والجيولوجيا، وحساب المثلثات، وعلم الاجتماع، وبالإضافة إلى عددٍ لا يُحْصَى من الاكتشافات والاختراعات الفردية في مخْتَلَفِ فروع العلوم -والتي سُرق أغلبها ونُسب لآخرين- قدَّم العرب أثمن هدية؛ وهي طريقة البحث العلمي الصحيح، التي مَهَّدَتْ أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتَسَلُّطِهِ عليها اليوم»(١).

ويشهد المستشرق الفرنسي كارا دي فو بأن: «العرب ارتفعوا بالحياة العقلية والدراسة العلمية إلى المقام الأسمى»(٢).

وفي ميدان التشريع يقول القانوني والمستشرق الإيطالي دافيد دي سانتيلانا: «إننا لو ضربنا صفحًا عن كل ما تقدَّم (من ذِكْرِه مزايا الشريعة الإسلامية)، فلا شك وأن المستوى الأخلاقي الرفيع الذي يسم الجانب الأكبر من شريعة العرب قد عمل على تطوير وترقية مفاهيمنا العصرية، وهنا يكمن فضل هذه الشريعة الباقي على مر الدهور»(٣).

وفي ميدان الاجتماع يقول المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون: «العرب يتصفون بروح المساواة المطلقة وفقًا لنُظُمهم السياسية، وأن مبدأ المساواة الذي أعلن في أوروبا -قولاً لا فعلاً- راسخٌ في طبائع الشرع رسوخًا تامًّا، وأنه لا عهد

---

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٤٠١، ٤٠٢.

(٢) كارا دي فو: الفلك والرياضيات بحث منشور بكتاب تراث الإسلام بإشراف (أرنولد) ص٥٦٤.

(٣) دافيد دي سانتيلانا: القانون والمجتمع، دراسة منشورة في «تراث الإسلام» بإشراف توماس أرنولد ص٤٣٩.

للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدَّى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي»[١].

وفي ميدان الأخلاق نرى المستشرق والكولونيل البريطاني رونالد فيكتور بودلي يتعجب قائلاً: «إن مما يؤثر في الغريب اليوم أدب العربي الصميم، ورقة قلبه، وحسن ضيافته، ولا يوجد جنس بشري آخر يبلغ في الكرم ما يبلغه العربي، كرم يصدر عن نفس صادقة، لقد انقضى ثلاثة عشر قرنًا منذ أعطى محمد ﷺ دروس الأخلاق في المدينة، ولكن تلك الدروس لم تُنْسَ إلى الآن».

وهو يبدو منبهرًا إذ يطالع هذه النتيجة فيقول: «يبدو هذا العمل عظيمًا لمن لا يعرف العرب عن كثب؛ ولكنه أعظم خطورة مما يظهر؛ فالعرب فوضويون بطبعهم، لا يخضعون لقانون، فإذا ما اشتغل العربي أو حارب، فإنما يفعل ذلك بدافع من حماسته الشخصية، ولا يتحلَّى العربي بروح الجماعة... إن طريقة صهر محمد ﷺ العرب في فريق واحد لا يهزم، لإحدى معجزاته العظمى، وإن الفضل كل الفضل له»[٢].

وفي ميدان اللغة والأدب يقول المستشرق الإسباني أميركو كاسترو: «أغلب المتخصصين يعرفون أن صدى الإسلام ظلَّ باقيًا في الآثار التي خلفها في قرطبة وغرناطة وإشبيلية وطليطلة، وكذلك العديد من المدن الأخرى قليلة الأهمية في هذا المقام، أما فيما يتعلق باللغة فهناك الآلاف من الألفاظ والمصطلحات العربية التي ما زال بعضها حيًّا، بينما عفا الزمان على بعضها الآخر، كما أن الأدب استلهم المصادر العربية، ووضح هذا الإلهام في قواعد الكهنوت... بل إن هناك تعبيرات قرآنية يتم تداولها في لغة الحياة اليومية، ومن يقرأ القرآن بعناية سيعثر على الكثير، ونقول على

---

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٩١.

(٢) ر. ف. بودلي: الرسول ص١٣٨، ١٤٠.

الآلاف من الأقوال والأمثال الإسبانية، فيقال بالإسبانية -مجازًا- «إن فلانًا حمار محمل بالعلوم»، وهذا معناه أن القيمة الثقافية لذلك الإنسان ضعيفة رغم أنه يعرف الكثير... وفي البرتغالية عبارة مرحة تقول: (إن الحمار المحمل بالكتب دكتور). وهنا يتضح معنى الاستعارة بشكل أفضل، وعندما نقرأ القرآن نجد أنه يوضِّحها بجلاء لا لبس فيه؛ إذ تقول الآية: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]»(١).

ويشهد المستشرق البريطاني ألفريد جيوم بأنه «عندما ترى ضوءَ النهار جميعُ المواد النفيسة المختزنة في مكتبات أوروبا، فسيتضح لنا أن التأثير العربي الباقي في الحضارة الوسيطة لهو أعظم بكثير مما عرف عنه حتى الآن»(٢).

إن هذه ليست أكثر من لمحات خاطفة، فإن أثر الإسلام في العرب وفي الدنيا كلها كُتبت فيه المجلدات الكثيرة، وما زال يُكتب المزيد، ويبقى أن نؤكد معنى مهمًّا، وهو أن هذا الأثر لم يعد تاريخًا قد مضى، بل ما زال الإسلام منشودًا ومرغوبًا في أرضه وخارج أرضه أيضًا.

فأما داخل أرضه فتثبته كل انتخابات ولو شبه نزيهة؛ إذ يكتسحها الإسلاميون في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وأما خارج أرضه فهو مبثوث في العديد من كتابات المفكرين غير المسلمين، وقد ارتفعت الوتيرة كثيرًا بعد الأزمة المالية العالمية، التي لم يصمد فيها إلا المؤسسات المصرفية الإسلامية، بل إن المتعصبين ضد الإسلام؛ إذ يصرحون بأن الإسلام هو الخطر، وهو القادر على تقديم بديل حقيقي للفكر الغربي فإنهم -بهذا- يعترفون بأنه الأمل الذي يداعب خيال العالم بعد فشل النماذج الغربية(٣).

---

(١) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها ص٦٣، ٩٢.

(٢) ألفريد جيوم: الفلسفة وعلم الكلام، منشور في «تراث الإسلام» بإشراف توماس أرنولد، ص٤٠١.

(٣) على الرغم من الخلاف الأساسي بين طرحي فرانسيس فوكوياما وصمويل هنتنجتون، فإنهما يتفقان =

إن رسوخ الإسلام كواقع حضاري بعد نحو ألف وخمسمائة عام، بل ووجوده كبديل مطروح قوي حتى في ظل ضعف البلاد الإسلامية، إن هذا الخلود بحد ذاته دليل لا يقبل الشك على قوة الإنجاز الإسلامي على أرض الواقع لا في مساحات التنظير فحسب.

* * *

= في أن العقبة الرئيسية أمام انتشار الحضارة الغربية هي الإسلام والدول الإسلامية، وبينما يأمل فوكوياما في أن الوقت سيأتي بهم إلى محراب الحضارة الغربية (فيما بعد تراجع فوكوياما عن نظريته «نهاية التاريخ»)، يرى هنتنجتون أن هذا من الأحلام المستحيلة وأن المسلمين أبدًا لن يتغربوا، وأن الصدام لا محالة واقع بين الغرب والإسلام. انظر: فوكوياما: نهاية التاريخ ص٥٦، ٥٧، هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٦٦، ١٦٨.

شذرات تاريخية

يقدم لنا التاريخ الإسلامي مادة ثرية في التطبيق العملي للمنهج الإسلامي، وبوسع الباحثين في مجال التاريخ والحضارة الإسلامية أن يكتبوا الكثير والكثير عن قوة المجتمع الإسلامي وترابطه وتحمل أبنائه للمسئولية تجاه أنفسهم وأمتهم والعالمين.

وعلى الرغم من دخول الخلل على المسلمين -لا سيما بعد عصر الخلافة الراشدة- فإن آثار هذا الخلل لم تؤدِ لما هو متوقع في الظروف المماثلة من انهيار سريع للدولة والحضارة، بل ظل العالم الإسلامي يتألق حضاريًا وعلميًا وفكريًا طوال ألف سنة بلا منافس تقريبًا، وهو ما زال -حتى هذه اللحظة- يقدم النموذج الأرقى في العلاقات الإنسانية والاجتماعية التراحمية، وخاصة في المناطق التي لم تتأثر كثيرًا بآثار الاحتلال والعلمنة.

وقد قدَّمنا في الفصول السابقة أن منهج الإسلام في تكوين الفرد وبناء النظام العام يجعل الفرد -في نفسه- مستشعرًا للمسئولية ومنبعثًا لحركة الإصلاح، ويجعل النظام العام مهيأً وقابلاً للإصلاح والتغيير.. وعلى ضوء هذا سنجعل كلامنا في ذكر هذه الحوادث التاريخية منقسمًا إلى(١):

---

(١) ونحن نعترف بأن هذا التقسيم مجحف، ولا يعبر عن سمو المنهج الإسلامي؛ ولكننا لم نجد أفضل منه في ظل المساحة المتاحة، وإذا ضربنا مثلاً فنقول: إن نصيحة فرد للحاكم قد جعلناها ضمن المواقف الفردية، على الرغم من أنه ما كان لهذا الفرد أن يفعل ذلك لولا أن النظام العام يسمح بمثل هذا؛ (في الفلسفات والمناهج السلطوية لم يكن الفرد العامي يجرؤ على مناقشة الإمبراطور، ولم يكن الإمبراطور يتخيل أن شيئًا من هذا يجوز في حقه)، وكذلك جعلنا عجز الحاكم عن إنفاذ أمره لتماسك المجتمع ضمن المواقف الجماعية، في حين أنه يمكن -في كثير من الأحيان- إرجاع الفضل لا لقوة المجموع فحسب؛ بل للتكوين الأخلاقي والنفسي لهذا الحاكم، الذي نزل عن إنفاذ أمره ولم يفكر في استعمال طرائق غير شرعية.

- مواقف فردية. -ومواقف جماعية.

أولاً: مواقف الأفراد

لقد استوعب الضمير الجمعي المسلم مركزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قضايا الدين، حتى لم يكن أحد من الفرق والطوائف الإسلامية إلا معتمدًا لها، ومنهم من غلا فيها كالخوارج والشيعة، ومنهم من جعلها أصلاً من أصول الطائفة كالمعتزلة، وكثيرًا ما يطالع قارئ كتب الطبقات والتراجم عبارة: «كان من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر».

وقد كثر المتطوعون بالقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ حتى إن كثيرًا منهم لم نعرف أسماءهم، وكانت مواجهة السلطان -وهي ذروة المخاطرة- أكثر ما ينتشر من أخبار هؤلاء، وقد لاحظ مايكل كوك -بعد استقصاء واسع- أن مؤرخي التراجم يهتمون بإيراد وقائع مواجهة السلطان أكثر من اهتمامهم بتفصيل واقعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي بدأت بها هذه المواجهة(١)، وهذا يدل على أمرين: تعظيم المؤرخين لهذه البطولة، كما يدل على انتشار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى الحد الذي يجعل المؤرخ عازفًا عن إيراد تفصيله؛ لأنه معروف مشهور مفهوم ليس في ذكره كثير فائدة.

وقد التقطنا هذه المواقف من كثير مما تفيض به كتب التاريخ(٢):

١ . حجَّ هشام بن عبد الملك -وكان ذلك قبل أن يتولَّى الخلافة- فلم يتمكن من استلام الحجر الأسود لكثرة الزحام؛ فنُصِب له منبر، ووقف أهل الشام حوله حتى استطاع استلام الحجر، ثم إذا بالناس يوسعون لعلي بن الحسين من تلقاء أنفسهم، فقال رجل من أهل الشام لهشام: مَن هذا؟ فخشي هشام أن يتعلق به أهل الشام فقال:

(١) مايكل كوك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص١٣٧.

(٢) اخترنا عشرة مواقف راعينا فيها التنوع، وآثرنا ألا تكون مشهورة.

لا أعرفه. فقام الشاعر الفرزدق وقال: ولكني أعرفه. ثم أنشد:

هَـذَا الَّـذِي تَعْـرِفُ الْبَطْحَـاءُ وَطْأَتَـهُ ... وَالْبَيْـتُ يَعْرِفُـهُ وَالْحِـلُّ وَالْحَـرَمُ

هَـذَا ابْـنُ خيـرِ عِبَـادِ اللهِ كُلِّهِـمُ ... هَـذَا التَّقِـيُّ النَّقِـيُّ الطَّـاهِرُ الْعَلِـمُ

وَلَـيْسَ قَوْلُـكَ: مَـن هـذا؟ بـضَائرِه ... العُـرْبُ تَعـرِفُ مَـن أنكَـرْتَ وَالعَجَـمُ

إِذَا رَأَتْـهُ قُـرَيشٌ قَـالَ قَائِلُهَـا ... إِلَـى مَكَـارِمِ هَـذَا يَنْتَهِـي الْكَـرَمُ

مُـشْتَقَّةٌ مِـنْ رَسُـولِ الله نَبْعَتُـهُ ... طَابَـتْ مَغارِسُـهُ والخِـيمُ وَالـشِّيَمُ

وأبيات أخرى رائقة في مدحه والتعريض بالأمويين وتفضيله عليهم(١).

٢. وكان عبد الله بن عبد العزيز العمري قوالاً بالحق أمّارًا بالمعروف، وكان ذا هيبة وجلالة، وكان يقول: «إن من غفلتك عن نفسك، إعراضك عن الله بأن ترى ما يسخطه فتجاوزه، ولا تأمر ولا تنهى، خوفًا من المخلوق، من ترك الأمر بالمعروف خوف المخلوقين، نزعت منه الهيبة، فلو أمر ولده لاستخف به». وكان هارون الرشيد إذا ذهب مكة أو المدينة زاره فطلب منه الموعظة أو فاجأه عبد الله فوعظه، فيتأثر الرشيد ويبكي، ولا يستطيع الرشيد -مهما اشتد عليه بالكلام- إلا أن يرفق ويتلطف في الردّ عليه، وشاء عبد الله مرة أن يذهب إلى بغداد فتهيب الرشيد مجيئه؛ كأنما نزل به مائة ألف من جيش العدو، وجمع العُمَريين وقال لهم: ما لي ولابن عمكم، احتملته بالحجاز، فأتى إلى دار ملكي، يريد أن يفسد علي أوليائي، ردوه عني! فقالوا: لا يقبل منا. فأرسل الرشيد إلى أمير الكوفة موسى بن عيسى أن يتلطف به حتى يرده فلا يصل إلى بغداد، وقد كان(٢).

---

(١) المزي: تهذيب الكمال ٢٠/ ٤٠١، الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٩٨، ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٢٦.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٣ وما بعدها، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٥/ ٣٠٢، ٣٠٣.

٣. اتخذ الإمام أبو إسحاق الفزاري لنفسه مهمة تربية وتعليم أهل الثغور حيث المجاهدين، فذهب إلى المصيصة وأقام بها، وكانت في ذلك الوقت من أهم مدن الثغور، ومع إمامته ومكانته صار يُذكر له هذا الفضل: «هو الذي أدب أهل الثغر، وعلمهم السنة، وكان يأمرهم وينهاهم، وإذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه، وكان كثير الحديث، وكان له فقه». كما يُذكر له تعرضه لسلطان -لعله والي المصيصة أو غيره- بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فضُرب مائة سوط أو أكثر، وأغلب الظن أن أبا حاتم الرازي كان يقصد ما فعل في الثغور حين قال: كان عظيم الغناء في الإسلام[١].

٤. وفي عهد المعتضد بالله العباسي سَكِر أمير تركي؛ فلما مرَّت به امرأة حسناء راودها عن نفسها، واستغاثت المرأة بالناس الذين حاولوا إنقاذها؛ ولكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا أمام حراسة الأمير، الذين ضربوهم لا سيما رجل خياط تزعم محاولة إنقاذ المرأة، فرجع الخياط إلى بيته جريحًا، ثم ألهمه الله أن يؤذن في منتصف الليل كأنه أذان الفجر، فجاءته فرقة من الشرطة من عند الخليفة المعتضد فقبضوا عليه، وذهبوا به إلى المعتضد الذي هَدَّأ من روعه، وسأله: ما حملك على أن أذَّنتَ هذه الساعة، وقد بقي من الليل أكثر مما مضَى منه، فتَغِرُّ بذلك الصائم والمسافر والمصلي وغيرهم؟! فحكى له الرجل قصة الأمير التركي، فغضب غضبًا شديدًا، وأمر بإحضار الأمير والمرأة، ثم أوصل المرأة إلى زوجها في حراسة ثقات منه، وأمرهم أن يقصُّوا للزوج قصَّتها وأنها معذورة ليعفو عنها، ثم أمر بضرب الأمير التركي، كما ضرب مَن أمروه بالمعروف ونهوه عن المنكر، ثم أُلْقِي به في نهر دجلة، وأمر الخياط أنه إذا رأى شيئًا فليدخل عليه في أي وقت؛ فإن منعه أحد من الحرس

(١) العجلي: تاريخ الثقات ص٥٤، ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ١/ ٢٨١ وما بعدها، ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ١٢٦.

فليؤذِّن في أي وقت، فصار هذا الخياط واسطة كل مظلوم له حق عند أي رجل من رجال الدولة، الذين كانوا يهابونه ويخافون من أذانه(١).

٥. وثمة موقف ينبغي إيراده ويحتاج لبعض التفصيل:

لقد كان الخلفاء الأوائل من بني العباس يفسحون للعلماء ويسمعون منهم، هكذا كان المنصور والمهدي، ثم بلغ الأمر غايته مع هارون الرشيد، الذي كان يكثر القدوم على العلماء وطلب الموعظة منهم والتأثر بها، وبعد الرشيد وقعت الاضطرابات بين الأمين والمأمون، وقد خَفَّف من حدة هذه الاضطرابات ما قام به الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، حتى جاء عهد المأمون فكثر في الناس مَن يتصدَّى للأمر والنهي حتى قام به الجُهلاء المجترئون، وحتى صار الشيوخ -لأنهم في زمن الفتنة وافتقاد الإمام- يحبسون ويعاقبون، فمنع المأمون -بعد استقرار الأمور- أحدًا أن يقوم بالحِسبة إلا بإذن، فمَن وثق في علمه أطلق له الإذن بهذا.

فمِن الجُهلاء المجترئين هذا الذي خرج على المأمون متحنطًا متكفنًا، وكان هذا في إحدى الغزوات، فاتهمه بترك الخمر يُباع في المعسكر، وبارتكاب الحرام، وبتحريمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلما ناظره المأمون تبين له أنه لا يعرف الخمر، ولا يُقَدِّر التدبير في الحرب فيظنه منكرًا ينهى عنه، ثم سأله المأمون:

رأيتك لو أنك أصبتَ فتاة مع فتًى في هذا الفج، قد خضعَا على حديث لهما، ما كنتَ صانعًا لهما؟ قال: كنتُ أسألهما: مَن أنتما؟ قال: كنتَ تسأل الرجل، فيقول: امرأتي. وتسأل المرأة: فتقول زوجي. ما كنتَ صانعًا بهما؟ قال: كنتُ أحول بينهما وأحبسهما. قال: حتى يكون ماذا؟ قال: حتى أسأل عنهما. قال: ومَن تسأل؟ قال: كنتُ أسألهما مِن أين أنتما؟ قال: أحسنتَ، سألت الرجل مِن أين أنتَ؟ قال: من أسبيجاب. وسألت المرأة، قالت: من أسبيجاب؛ ابن عمي تزوَّجنا وجئنا. أكنتَ

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٠٢، ١٠٣.

حابسًا الرجل والمرأة بسُوء ظنِّك الرديء وتوهمك الكاذب، إلى أن يرجع الرسول من أسبيجاب، ماتَ الرسول، أو ماتَا إلى أن يعود رسولك؟ قال: كنتُ أسأل في عسكرك؟ قال: فلعلك لا تصادف في عسكري من أهل أسبيجاب إلا رجلاً أو رجلين، فيقولان لك: لا نعرف.

على هذا لبستَ الكفن يا صاحب الكفن؟! ما أحسبك إلا أحد رجال: إما رجل مديون، وإما رجل مظلوم، وإما رجل تأوّلتَ في حديث أبي سعيد الخدري (وسرد الحديث حتى بلغ) إلى قوله: «أَلا إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». فجعلتني جائرًا وأنت الجائر، وجعلتَ نفسك تقوم مقام الآمر بالمعروف وقد ركبت من المنكر ما هو أعظم عليك، لا والله لا ضربتك سوطًا، ولا زدت على تخريق كفنك، ونُفِيتُ من آبائي الراشدين المهديين لئن قام أحد مقامك، لا يقوم فيه بالحجة، لا نقصته من ألف سوط، وأمرت بصلبه في الموضع الذي يقوم فيه (١).

فأما إن كان عالمًا بالمعروف والمنكر فلم يمنعه المأمون؛ فهذا أبو نعيم الفضل بن دكين رأى جنديًا يلمس امرأة في بغداد فصاح به وزجره، فأخذه الجندي إلى الشرطة، ورفعت الشرطة أمره إلى المأمون، فلما دخل على المأمون سلَّم عليه فردَّ المأمون السلام ردًّا ضعيفًا -وهي علامة غضب- ثم جيء له بماء ليتوضأ فتوضأ على بصر المأمون، ثم صلى ركعتين أمامه، ثم سأله المأمون أسئلة في الميراث، فأجاب عنها أبو نعيم، فقال المأمون: «يا هذا من نهى مثلك أن يأمر بالمعروف؟! إنما نهينا أقوامًا يجعلون المعروف منكرًا. قال: فقلت: فليكن في ندائك لا يأمر بالمعروف إلا من أحسن أن يأمر به»(٢).

وما يهمنا من سرد هذه الأخبار هو القول بأن كل هذه المواقف وغيرها،

---

(١) الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات ص٨ وما بعدها.

(٢) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٢/ ٣٥٠.

وباختلاف الأحوال وردود الأفعال -حتى التي وصل فيها الأمر إلى قتل السلطان لمن ينصحه- فلا ريب أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد آتى ثماره، إن لم يكن بالاستجابة المباشرة الفورية؛ فبما يلقيه من التردد والحذر في نفس السلطان، فينعكس هذا على عامة أعماله فيما بعد.

ثانيًا: مواقف جماعية

١. أول ما نعرف من مجموعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجموعة كَوَّنها الصحابي هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه ؛ إذ جمع حوله نفرًا من أهل الشام، وكانوا يسيحون في الأرض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر؛ ليس لأحد عليهم إمارة، وقد تفرغ هشام رضي الله عنه لهذه المهمة؛ حتى لم يتخذ زوجة ولا ولدًا، وكان مهتمًّا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منذ عرف الإسلام -أسلم يوم فتح مكة- حتى صار معروفًا ومشهورًا بهذا في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، الذي كان إذا بلغه منكر قال: أما مَا بقيت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون ذلك. وكأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أطلق يده؛ إذ كان هشام بن حكيم يهدد الوالي في مدن الشام إذا أراد فعل شيء من المنكر أنه سيكتب إلى عمر بهذا فيمتنع، وقد رأى يومًا عياض بن غنم -وكان والي حمص- أوقف ناسًا من أهل الذمة في الشمس؛ لأنهم لم يدفعوا الجزية، فواجهه بحديث النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا»[١].

٢. وقد كانت قوة القبائل والعشائر تقف أمام الحكام عبر التاريخ الإسلامي، وقد قلنا فيما سبق: إن الإسلام جاء بتقوية الروابط بين الناس حتى يصير المجتمع جسدًا واحدًا؛ فيمتنعوا بهذا من ظلم الحكام؛ بل وتنفذ إرادتهم في بعض الأمور وعلى رغم أنف الحاكم أحيانًا، وبهذا يوضع جهد كل قبيلة قوية -كانت قوتها سببًا في إقرار

---

(١) ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/ ١٥٣٨، ١٥٣٩، المزي: تهذيب الكمال ٣٠/ ١٩٧، والحديث عند مسلم (٢٦١٣).

الأمور وتوازن القوى بينها وبين السلطة- في هذا الباب.

فمن ذلك مواجهات الأحنف بن قيس التميمي لمعاوية بن أبي سفيان ﵁، ومنها قول معاوية له: «والله يا أحنف ما أذكر يوم صفين إلا كانت حزازة في قلبي إلى يوم القيامة. فقال له الأحنف: والله يا معاوية إن القلوب التي أبغضناك بها لفي صدورنا، وإن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، وإن تدن من الحرب فترًا ندن منها شبرًا، وإن تمش إليها نهرول إليها. ثم قام وخرج، وكانت أخت معاوية من وراء حجاب تسمع كلامه، فقالت: يا أمير المؤمنين، مَن هذا الذي يتهدَّد ويتوعَّد؟ قال: هذا الذي إذا غضب غضب لغضبه مائة ألف من بني تميم لا يدرون فيم غضب؟»[1].

٣. كانت بغداد في ختام القرن الثاني الهجري ومطلع القرن الثالث الهجري مسرحًا للاضطرابات والانفلات الأمني، فلقد قُتِل الأمين لكن المأمون ظل في مرو، ولم يقدم إلى بغداد، وشاع في أهل بغداد أن الفضل بن سهل -الوزير الفارسي- هو المسيطر على المأمون وهو المتحكم على الحقيقة، فرفض أهل بغداد أن يظل الخليفة خارج بغداد وتحت سيطرة فارسي غير عربي، ثم رفضوا الحسن بن سهل - أخا الوزير الفارسي- واليًا عليهم، وشاع التمرد على المأمون من الناس ومن فرق الجيش كذلك، فعاشت بغداد أجواء الانفلات الأمني والسرقات وقطع الطرق واختطاف النساء والأطفال وفرض الإتاوات على الناس. كانت العصابات تأتي الرجل فيسألونه مالاً، فإذا رفض أخذوا جميع ما في منزله، وربما تعرضوا للغلمان والنسوان، ويأتون أهل القرية فيستاقون من الأنعام والمواشي ويأخذون ما شاءوا من الغلمان والنسوان، ونهبوا أهل قطربل ولم يدعوا لهم شيئًا أصلاً.

فانبعث رجلان؛ وهما: خالد الدريوش، وسهل بن سلامة الأنصاري؛ فكَوَّنا «لجانًا شعبية» لحماية الناس، وانضم إليهم متطوعون، فكانوا يقبضون على

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٥٠٠.

اللصوص وقطاع الطريق فيعاقبونهم أو يحبسونهم ثم يسلمونهم للسلطان، وقد استطاعت هذه «اللجان الشعبية» إنهاء حالة الفوضى بعد استمرارها نحو العام (شعبان، رمضان ٢٠٠ هـ - شعبان، رمضان ٢٠١هـ)(١).

٤. في واحدة من لحظات انهيار الأندلس -بعد سقوط دولة الموحِّدين- في الربع الأول من القرن السابع الهجري، كان المشهد على هذا النحو:

اقتتال أمراء البيت الموحِّدي وثورة بعضهم على بعض، يتحالف بعضهم مع النصارى ضد إخوانه في النسب والدِّين ليحفظ المُلك لنفسه، ثم يثور على هؤلاء مغامرون آخرون، والنصارى يأكلون الأندلس قطعة قطعة ويأخذون -عبر شروط التحالف- ما لا يمكنهم أن يأخذوه بكل السيوف، وكان المستولي على شرق الأندلس يُدعى أبو جميل زيان الذي ما كاد يخرج من صراعاته مع زعماء التمرد حتى دهمه خايمة الأول (ملك أرجون، الذي لجأ إليه أمير بلنسية السابق أبو زيد عبد الرحمن الموحدي، وبلغ من خيانة هذا الأمير أن تنازل للصليبي عن ما كان يملكه من أرض الأندلس، بل لقد تنصَّر هو نفسه وصار منهم)، ولكن أبا جميل بدل أن يقاتل سار في مسار التسليم، فنهض أهل بلنسية بأنفسهم وبقيادة علمائهم وعلى رأسهم الإمام سليمان الكلاعي -شيخ المحدِّثين في ذلك الوقت- فأنشبوا معركة هائلة بإمكانياتهم المحدودة وتسليحهم الخفيف ضد النصارى، وحمل الكلاعي راية المسلمين، وظلوا يجاهدون، لكن ميزان المعركة أسفر عن التفوق الكبير للنصارى، فثبت الكلاعي في قلة ممن معه، وصار ينادي في الناس: «أعن الجنة تفرون؟!» فما زال كذلك حتى نال الشهادة (الخميس ٢٠ من ذي الحجة ٦٣٤هـ) بعد أن أعذر هو ومن معه إلى ربهم(٢).

---

(١) الطبري: تاريخ الطبري ٥/ ١٣٦، وانظر: محمد إلهامي: العباسيون الأقوياء ص٥٠٩.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ١/ ١١٩، ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ٤/ ١٠٣، د. حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس ص١١٨ وما بعدها.

٥. أراد الظاهر بيبرس البندقداري الاستيلاء على أموال وأملاك الأوقاف؛ ليغطي بها تكاليف الحرب مع المغول، فقرَّر أن يسأل صاحب الوقف عن مستنده؛ فإن وجده تركه وإلا استولى عليه، فوقف أمامه في هذا جمع العلماء يتقدمهم الإمام النووي، الذي كان صلبًا راسخًا في وجهه، واشتدت بينهم المراسلات والمكاتبات؛ حتى بلغ الأمر في المواجهة الأخيرة أن قال له النووي: «أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثم مَنَّ الله عليك وجعلك ملكًا، وسمعت أن عندك ألف مملوك، وكل مملوك له حياصة[1] من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حقٌّ من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليك بالبنود الصوف بدلًا عن الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، أفتيتك بأخذ المال من الرعية». فأمره الظاهر بالخروج من دمشق، وهنا وقف له الفقهاء وقالوا: «إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا، وممن يقتدى به، فأعده إلى دمشق». واضطرَّ الظاهر تحت ضغط موقف العلماء أن يكتب برجوعه، لكن النووي رفض الرجوع، وصارت أزمة بليغة جاء حلها من السماء بوفاة الظاهر بيبرس بعد شهر من هذه الواقعة، وحُفِظت بهذا الموقف أموال المسلمين وأوقافهم قرونًا أخرى[2].

فتلك عشرة مواقف، خمسة فردية وخمسة جماعية، تعطي لمحات عن تحمل المسئولية لدى أفراد الناس وجماعاتهم، تجاه من يعرفون ومن لا يعرفون؛ سواء أكانوا من العامة أم من الحكام والمتسلطين، وهي من المواقف التي تحدث اتفاقًا بدافع الظروف وتطور الحدث لا تحتاج ترتيبًا أو تهيئة طويلة، فأما ما كان يحتاج هذه التهيئة وهذا الترتيب فقد جعلناه في المبحث القادم.

---

(١) حياصة: ثياب موشاة بالذهب.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ١٠٥.

نماذج فارقة في لحظات فاصلة

كم تكون سعادة الأمم حين ينبعث فيها من يقودها إلى الخير ويبلغ بها المجد، فحينها يأتي ذلك الفرد كما ينزل المطر على الأرض الجدباء، وكما ينزل الماء الروي على الظمآن، وأحيانًا ما تنادي الأمم على ذلك «البطل» فلا تجده، فإذا ما جاء كان حدثًا فارقًا في حياتها؛ ولذلك تعظم الأمم أبطالها وتحفظ لهم جميلهم عبر التاريخ.

وفي تاريخنا الإسلامي صفحات غزيرة من سير الأبطال والمصلحين، الذين انبعثوا من تلقاء أنفسهم لإصلاح أحوالها، فجدوا واجتهدوا وبذلوا؛ فمنهم من أسس دولة غيرت سير التاريخ، ومنهم من كان فضله الإمساك بمسار انهيار الأمة وإيقافه أو حتى تأجيله.

وقد اخترنا ثلاثة نماذج ذات أثر بالغ، كلهم كانوا من أواسط الناس وعوامهم، وكلهم انبعثوا بدافع من استشعارهم المسئولية وتحملهم الأمانة، فأولهم أسس دولة، وثانيهم كان ضلعًا ركينًا في تأسيس الدولة، وثالثهم كان شوكة قوية في حلق عدو الأمة، وكان صخرة أمسكت بمسار الانهيار وأوقفته من بعد ما بدا أن لا شيء يمنع من الهاوية، أولئك هم: عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين، والشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الحركة الإصلاحية الواسعة وشريك تأسيس الدولة السعودية، والشيخ أحمد ياسين مؤسس حركة المقاومة الإسلامية في فلسطين، وهي الحركة الإسلامية السنية الوحيدة التي أنزلت الهزائم بإسرائيل التي هي أقوى من الدول العربية مجتمعة!

أولًا: عبد الله بن ياسين

كان شابًّا من طلبة العلم في حلقة الفقيه المغربي وجاج بن زلو اللمطي، فجاءهم

في مجلسهم زعيم قبائل صنهاجة المغربية يحيى بن إبراهيم الجدالي يحدثهم بالأهوال؛ فأهل هذه القبائل بلغوا من الجهل وانقطاع العِلم والمُعلِّمين لديهم أن عادوا إلى الجاهلية: لا يعرفون من الإسلام إلا الشهادتين ويقتتلون على العصبية وتنتشر بينهم الفواحش؛ حتى إن البنت لتحمل من أخاها، ويزني الزوج بحليلة جاره فلا ينكر عليهما، وهو الآن يطلب فقيهًا ينزل معه إلى مضارب القبائل ليعلِّمهم، فخشي الطلبة من وعورة المكان وانقطاعه، ومن طبائع القبائل فلم ينبعث لهذه المهمة إلا هذا الشاب: عبد الله بن ياسين.

وهناك وُوجه عبد الله بصدود كبير، ولم تنفع حماية زعيم جدالة -الفرع الأكبر من الصنهاجيين- في إنقاذه، وبعد مدة بين شدٍّ وجذب لم يكن منهم إلا أن ضربوه وأهانوه وطردوه من أرضهم، غير أنه لم يزدد إلا عزمًا وإصرارًا، فاتَّجه جنوبًا إلى الصحراء حتى وصل إلى جزيرة؛ يرجح أنها في منحنى نهر النيجر، بالقرب من مدينة تمبكتو (في مالي الآن)، وبدأ من هناك في تكوين جماعة من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، والمتحمِّلين لمسئولية إصلاح أحوال المغرب، وبدأ في استقطاب ودعوة أهل الخير، وانحاز إليه بعض الصنهاجيين ممن تأثروا به، فبدأ الأمر بسبعة من جدالة، ثم فتح الله عليهم بانحياز اثنين من كبار قبيلة لمتونة -الفرع الكبير والمنافس لجدالة من الصنهاجيين- هما: يحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبو بكر.

ومن الخيمة الواحدة المنزوية في هذه الجزيرة في أعماق الصحراء ولدت إحدى الدول المؤثرة في تاريخ الإسلام، فما زالت الدعوة تنجح في جذب المزيد، والمزيد يأتون بالمزيد، حتى صاروا قوة ضاربة بدأت الجهاد في سبيل الله، فانطلقت إلى دعوة القبائل وجهادهم، وكانت مرحلة مريرة كلها صبر وفداء وعنت ومشقة حتى تحققت الغاية الكبرى: توحد المغرب الكبير المتفرق المتمزق تحت دولة واحدة رايتها لا إله إلا الله، وخرجت من الجهالة والشر إلى العلم والخير، وتأسست مدينة الرباط

(عاصمة المغرب الآن) كقاعدة للجهاد، واستقر أمر المغرب قويًا مكينًا راسخًا.

ثم لبَّى المرابطون نداء إخوانهم في الأندلس؛ إذ كانت الأندلس آنذاك تعيش تحت عصر ملوك الطوائف الذين يتقاتلون فيما بينهم، ثم يتحالفون مع الصليبيين، حتى صار ملوك الإسلام -بعد المجد الزاهر- يدفعون الجزية للصليبيين ويفقدون من أراضيهم شيئًا بعد الآخر، حتى جاءت القاصمة بسقوط طليطلة عاصمة الأندلس الأولى، وإحدى الممالك الأربعة الكبرى (غرناطة، إشبيلية، طليطلة، سرقسطة)، فاستغاث المعتمد بن عباد (ملك إشبيلية وغرناطة، وأكبر ملوك الطوائف) بالمرابطين بعد أن حاصره الصليبيون في إشبيلية، فعبر المرابطون البحر ونزلوا الأندلس، واتحد المسلمون فحققوا واحدة من أعظم انتصاراتهم التاريخية في الزلاقة (٤٧٩هـ)، وهي المعركة التي أجّلت انهيار الأندلس قرونًا، وأوقفت ما أطلق عليه الصليبيون حرب الاسترداد.

لكن ملوك الطوائف لم يكونوا يستأهلون العِزَّة، فما هم إلا أن عادوا للتقاتل والتحارب ودفع الجزية للصليبيين، فدخل المرابطون الأندلس وأزالوا حكم ملوك الطوائف، وأعادوا وحدة الأندلس والمغرب كما كانت في العصور الزاهرة أيام عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والمنصور بن أبي عامر.

كل هذا بدأ من خيمة في جزيرة معزولة في طرف الصحراء المغربية، بهمة وعزم طالب العلم عبد الله بن ياسين.. مؤسِّس دولة المرابطين[1].

ثانيًا: محمد بن عبد الوهاب

في أواخر القرن الحادي عشر الهجري وأوائل القرن الثاني عشر فَشَتْ مظاهر الشرك في هذه أنحاء نجد؛ كالاستغاثة بالصالحين، وقصد القبور والدعاء عندها، ورجاء الأموات فيها، والتبرك بالأشجار، والنذر لغير الله، واعتقاد النفع والضر في

(١) للتوسع: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، د. علي الصلابي: دولة المرابطين.

المخلوقين، وعند القبور تزيد البدع وتحدث المنكرات؛ لا سيما في أيام الأعياد والمناسبات المخترعة، كما فشا بينهم التنازع والتقاتل؛ إذ كل قبيلة تسيطر على ناحية وقد تطمع إلى غيرها، وكان موقع نجد بين قوتي الحجاز والبحرين مما يجعلها منطقة اضطراب دائمة، ثم موقع هذه الأنحاء في الجزيرة العربية وبعدها عن عاصمة الدولة العثمانية الآخذة في الضعف جعل الأمور تبدو بلا أمل في حل حاسم.

ثم وُلِد محمد بن عبد الوهاب من عائلة علمية معروفة، وبرحلته في طلب العلم عرف مدى الفاجعة التي وصل إليها حال الناس باعتناقهم البدع والخرافات ومظاهر الشرك كدين يتقربون به إلى الله، وكان في البصرة حين بدأ في الجهر على الناس وإنكار ما هم فيه من منكرات، فصد الناس عنه، ثم سبوه وضربوه وأخرجوه من البصرة، وآذوا شيخه محمد المجموعي، ثم كرر الجهر بالدعوة في حريملاء؛ لكنه لم يحقق نتيجة كبيرة، فذهب إلى العيينة وهناك كانت بداية الفرج؛ إذ استطاع محمد بن عبد الوهاب إقناع حاكمها عثمان بن حمد بن معمر بدعوته، ورجا أن يكون هذا الأمير كما كان الأنصار لرسول الله ﷺ، وهناك قطع الشيخ الأشجار التي يعظمها الناس وهدم القبة المبنية على قبر زيد بن الخطاب، التي كان يقصدها الناس، وحين لم ينزل شر بالناس بدأت تتكسر عقائد الجاهلية في القلوب، وأقام الشيخ حد الزنا على زانية، ورفع الضرائب عن الناس، وأقر الزكاة فحسب، وهنا ثارت ثائرة الأمراء؛ فأرسلوا إلى ابن معمر أن يقتل ابن عبد الوهاب وإلا حاربوه، فأخرجه ابن معمر وآثر استقرار أمره.

وما أمَّله ابن عبد الوهاب في ابن معمر وجده في محمد بن سعود حاكم الدرعية، التي توجه إليها، فصارت الدرعية مركزه يحظى فيها بدعم محمد بن سعود وتأتيه فيها الوفود التي تسمع عنه وتميل إليه، وسار إليه من تأثروا به في العيينة، ومنها انتشر أمر الشيخ وتحسن حاله، وتجمعت قوته، وبدأت مرحلة الجهاد بجهاد الدفع أول الأمر

ضد غارات بعض الحكام، ولما توفي محمد بن سعود خلفه ابنه عبد العزيز، الذي كان لا يقطع أمرًا بغير مشورة ابن عبد الوهاب وفتح الله عليه كثيرًا من الأنحاء.

وعلى الرغم من وفاة محمد بن عبد الوهاب (١٢٠٦هـ = ١٧٩٢م) ثم مجيء جيوش محمد علي من مصر وتحطيمها للدرعية (١٢٣٤هـ = ١٨١٩م)؛ فإن دعوة الشيخ كانت قد شاعت وانتشرت، وبقيت تحت الرماد حتى انبعث بها مرة أخرى عبد العزيز آل سعود[١].

ثالثًا: أحمد ياسين

وُلِد أحمد ياسين في عام عصيب على أمة العرب والمسلمين، ففي ذلك الوقت اغتيل أهم قائد مقاوم للاحتلال الإنجليزي وهو عزُّ الدِّين القسَّام، وقد عايش وهو في الثانية عشرة من عُمره ذروة النكبة الإسلامية الحديثة، التي هي سقوط فلسطين بيد اليهود المدعومين بالقوة الصليبية والمحاطة بالدعم الصليبي في البلاد العربية المحتلة المحيطة بها: مصر والأردن وسوريا، وبهذا يكون وعيه قد تفتح في لحظة من أقسى اللحظات التي مرت على الأمة الإسلامية.

وعلى الرغم من أنه أصيب بحادث أثناء ممارسته للرياضة أسفرت عن شلل كلي وهو في الرابعة والعشرين من عمره؛ فإنه أكمل تعليمه وعمله بالتدريس؛ بل صار أشهر خطيب في غزة، فكان شوكة في حلق الاحتلال ودعمًا وسندًا لأهالي الشهداء والمعتقلين؛ بجمع التبرعات التي تحولت إلى أكبر جمعية خيرية في غزَّة، إلا أن الأهم في مسيرته هو تأسيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس) لجهاد اليهود المحتلين، وهي الحركة التي صارت الإزعاج المقيم لسلطة الاحتلال الصهيوني ولعملائه وأذياله، واعتقل مرتين، ثم أفرج عنه في صفقة لتبادل الأسرى أول مرة، وفي

(١) للتوسع: ابن غنام: تاريخ نجد، عثمان بن بشر: عنوان المجد في تاريخ نجد، جلال كشك: السعوديون والحل الإسلامي.

مقايضة بعملاء الاستخبارات الصهيونية بعد أن ألقي القبض عليهم وفشلوا في اغتيال رئيس الجناح السياسي للحركة خالد مشعل في الأردن (١٩٩٨م).

لقد طورت حركة المقاومة الإسلامية وسائل المقاومة من الحجارة والمقلاع إلى السكين إلى الجهاد بالسلاح، إلى العمليات الاستشهادية، واستطاعت تصنيع صواريخ محلية؛ وهي الآن في طور تصنيع طائرة، واستطاعت بما أبدته من مقاومة -مع غيرها من الفصائل- أن تجبر الاحتلال على الانسحاب من قطاع غزة (٢٠٠٤م) ثم أوقعت به هزيمتين في (٢٠٠٩، ٢٠١٢م)؛ ففي الأولى فشل الاحتلال في مجرَّد فتح طريق في قطاع غزة، على الرغم من الفارق المهول في كل شيء، وفي الثانية قبل الاحتلال بشروط حماس لوقف إطلاق النار، وتعد هذه هي الهزائم الأكبر وتكاد تكون الوحيدة[(١)] التي تلقاها الإسرائيليون في كل تاريخ الصراع بين العرب واليهود.

لم يشهد الشيخ أحمد ياسين كل هذا، فقد نال الشهادة -بإذن الله- في عملية اغتيال عقب خروجه من صلاة الفجر (٢٢ من مارس ٢٠٠٤م)؛ لكن البناء الذي أرساه ما يزال يحمل الراية، غير أن حياته -وهو القعيد المشلول الذي استطاع أن يفعل كل هذا- تظل درسًا بليغًا على ما تفعل الهمة وإن عجز الجسد، حتى تداول الناس في ذلك الوقت -عبر الهواتف والإنترنت- رسالة بليغة تقول: «شيخ قعيد نال الشهادة وأيقظ الأمة، فمتى يتحرك صحيح الجسد قعيد الهمة»!

---

(١) بالميزان العسكري وطبقًا للمراجع العلمية العسكرية لا تعتبر حرب أكتوبر نصرًا للمصريين ، لأن الحرب شهدت انكسارًا وتقدمًا للإسرائيليين في الأيام الأخيرة، وانتهى الأمر باتفاق وقف إطلاق نار ثم معاهدة سلام حققت الحفاظ على الأمن الإسرائيلي. أما الذي يعتبر نصرًا حقيقيًّا فهو ما حققه حزب الله اللبناني؛ الذي أجبرت عملياته إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان بغير شرط، ثم فشلها في القضاء عليه عام ٢٠٠٦م، على الرغم من كل فارق التسليح والدعم. ولا يجرمنا شنآن حزب الله أن نعدل مهما كان بغضنا له كبيرًا؛ لما في تاريخه من سوءات ومخازٍ في قتل أهل السنة من الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين وغيرهم.

وأنشد له كثير من الشعراء وكتبت فيه كثير من المقالات والدراسات، وكان من أرق ما قيل فيه من الشعر ما أنشده عبد الرحمن العشماوي، ومنه:

هـم أكـسبوك مـن الـسباق رهانـا فربحـت أنـت وأدركـوا الخـسرانا
إني لأرجـو أن تكـون بنـارهم لمـا رمـوك بهـا بلغـت جنانـا
أنـا إن بكيـت فإنمـا أبكـي علـى مليارنـا لمـا غَـدَوْا قطعانـا
يـا فـارس الكرسـي وجهـك لـم يكـن إلا ربيعًـا بالهـدى مزدانـا
سـتظل نجمًـا في سـماء جهادنـا يـا مُقْعَـدًا جعـل العـدو جبانـا[1]

لن نقدر هذه النماذج حق قدرها إلا إذا حاولنا تخيل مسار التاريخ بدونهم، وإنها لصورة موحشة كئيبة ينفر منها الخيال.. حينئذٍ نعلم كيف صنع الدين رجالاً انبعثوا من تلقاء أنفسهم، استشعارًا للمسئولية، وحملاً للأمانة؛ ليصلحوا أحوال أهلهم وأوطانهم وأمتهم والناس أجمعين.

خلاصة الباب الثاني:

رأينا في هذا الباب كيف هو منهج الإسلام في بناء الفرد السوي والمجتمعات الفاضلة، وكلاهما يتهيأ لحمل المسئولية الكبرى والأمانة العظمى في هذه الأرض.

فعقيدته هي الأساس؛ منها يأخذ البناء خامته ومادته، فهي تحرر الفرد من الخضوع لغير الله، ثم تحمله مسئولية إصلاح هذه الدنيا، بعهد وثيق غليظ، جزاءه جنة أبدًا أو نار أبدًا.

---

(١) للتوسع: أحمد منصور: أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة الفلسطينية، سيد حسين العفاني: شذا الرياحين من سيرة واستشهاد أحمد ياسين.

والأفراد هم لبنات البناء، مكلفون في أنفسهم بما يصلحهم، ليس فيهم عاطل أو مهمل؛ بل كلهم مسئول، مستقلون في تصوراتهم وأفكارهم، لا يخضعون لضغط أو ينجذبون لإغراء، يتشربون أخلاق الفضلاء الأحرار المصلحين، يتكافأ بعضهم على بعض إن صدر عن أحدهم خلل استوعبه آخرون، لا ييأسون ولا يملون، ولا يتراجعون حتى يأتيهم وعد الله.

والنظام العام ذو ثلاث شُعب: سلطة تأتي بالشورى بين الناس، وتحكم بالعدل، يراقبونها ويقومونها ولهم حق عزلها. وأُمة مترابطة كالجسد الواحد، تشملها رابطة الدين، وتتقوى في داخلها بروابط الأرحام والجوار. والشعبة الثالثة هي علاقتهما معًا؛ فالسلطة حافزة والأمة فاعلة لكل منهما حقوق فلا الناس يحق لهم الإفساد، ولا السلطة يحق لها تعويق عمل الناس بالخير.

ثم يأتي نظام الحماية الشاملة، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبه يتداعى هذا البناء إلى موضع الخلل بالإصلاح والتقويم، كلٌّ يرى أن بقاء الخلل في جزء من البناء نذير بانهيار البناء كله.

هذا البناء مصمم بحيث يكون الإصلاح سجيته وطبعه؛ فالفرد منبعث للإصلاح والبناء مهيأ له، وبهذا يتم إصلاحه بأيسر سبيل!

ذلك البناء لم يكن حلمًا أو خيالاً، بل نشأ واقعًا وظل راسخًا يفيض على غيره بالنور والهدى ويكتب تاريخًا لم تعرف الإنسانية له مثيلاً.

البَابُ الثَّالِثُ

نكبة «خير الأمم»

الباب الثالث

نكبة «خير الأمم»

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤]

جرت سنة الله في الأمم على أمة المسلمين، فانتقلوا من القوة والازدهار إلى الضعف والانهيار؛ ذلك أن سنن الله في كونها لا تحابي أحدًا، ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦]، فذاق المسلمون حصاد أيديهم، وتكالبت عليهم الأمم، وبدأ عصر الهوان والذل ينزل بهم.

لقد استفاد الغرب من علوم المسلمين وقيمهم، ثم نهض وأضاف وابتكر، وأكثر في الإبداع، فالتفَّ على المسلمين فاستولى على بلادهم، وتسلَّط على أجسادهم، ومضت القرون والمسلمون قد صاروا تحت أيدي أعدائهم، وصحيحٌ أن المقاومة الإسلامية منعت الأعداء من تحقيق أهدافهم في إزالة الإسلام وإخراج المسلمين منه، إلا أن الصحيح -أيضًا- أن المسلمين ما زالوا الأضعف والأقل جندًا!

عاش المسلمون عصور التخلف والتراجع، فأسلمتهم إلى عصور الاحتلال، ثم أسلمتهم حقبة الاحتلال إلى حقبة الاستبداد والطغيان، وها هي الثورات العربية تحاول إنهاء تلك الحقب السوداء جميعًا؛ لتبدأ في نهضة جديدة تعيد الأمة إلى مكانها الصحيح.

أسفرت هذه العصور عن تغيرات عميقة في مجتمعات المسلمين وأنظمة الحكم والإدارة في بلادهم، تغيرات استنبتها الاحتلال، ورعاها ثم حافظ عليها الاستبداد وأنماها ورسخها، وقد استهدفت تلك التغيرات أن تضع الداء في أصل المسلمين

وجذورهم؛ بحيث إنهم يصيرون تبعًا، ولو تحررت أراضيهم، ولو امتلكوا قرارهم، فهذا أسوأ صنوف الاحتلال: احتلال النفوس والعقول!

وقد جعلنا هذا الباب لكي نفهم ماذا حدث، وماذا كانت آثاره في واقع المسلمين؛ خصوصًا فيما يخص موضوعنا: فقه المسئولية في الإسلام، وطريقة الدين في بناء المجتمعات المتماسكة المترابطة، فجاء هذا في ثلاثة فصول هي:

- **الفصل الأول:** موجز قصة النكبة.
- **الفصل الثاني:** أخذوا أفضل ما عندنا.
- **الفصل الثالث:** تركوا أسوأ ما عندهم.

الفصل الأول

موجز قصة النكبة

هي قصة النكبة، أو بالأحرى قصتان..

قصة احتلال البلاد واستنزاف ثرواتها ومواردها، وقصة احتلال الأفكار والعقول..

في القصة الأولى نرى البنادق والقنابل والجيوش، وفي القصة الأخرى نرى الكتب والنشرات، والإذاعات، وإنشاء المؤسسات التعليمية والثقافية، وهيكلة الإدارات الحاكمة.

تستدعي القصة الأولى أن نرصد حركة النهوض الغربي وانقضاضه على العالم الإسلامي، وتستدعي القصة الثانية أن نرصد أهم الفوارق المؤثرة بين الشرق والغرب؛ لنفهم كيف أراد الغرب أن يعيد صياغة العالم الإسلامي على مثاله، فزرع قِيَمه وأفكاره وأنظمته، كما استفاد مما وجده فيها ليُعيد زراعته عنده.

ولكل قصة جعلنا مبحثًا على هذا النحو:

- المبحث الأول: تاريخ النكبة
- المبحث الثاني: فوارق رئيسية بين الشرق والغرب.

تاريخ النكبة

في ذات لحظة من عمر هذا الزمان اجتمعت أربعة عوامل لتصوغ تاريخ القرون القادمة، كان ذلك منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، على هذا النحو:

١. الضعف الإسلامي:

شمل الضعفُ عالم المسلمين فسقطت غرناطة آخر معاقل الأندلس (١٤٩٢م)، وانساح الإسبان والبرتغال ليُحْكِموا سيطرتهم لا على الأندلس فحسب؛ بل هاجموا سواحل المغرب والجزائر، واحتلوا عددًا من أراضيها، وكانت الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وشرقها قد أصابها الضعف والتفكك ذاته، وكذلك كان الحال في اليمن وعُمان وسواحل الهند وما وراءها من السواحل الجنوبية لآسيا.

٢. النهضة الأوروبية:

وفي ذلك الوقت وُلِدت النهضة الأوروبية التي بدأت من إيطاليا، وعلى الرغم من أن جذور تلك النهضة قد تمتد إلى نحو قرنين قبل ذلك الوقت، فإن إيطاليا حينئذٍ أخرجت بدائع جديدة في الأدب والعلم والفن والعمارة وغيرها، وظهر رواد النهضة الأوروبية؛ مثل: ليوناردو دافنشي، ومايكل أنجلو، وميكافيللي، وأصبحت بعض المدن تمثل مراكز حضارية؛ مثل: فلورنسا، وسيينا، والبندقية، ثم فاضت تلك النهضة على أوروبا بشكل عام.

٣. الرحلات.. وتطور علم الخرائط:

كان من آثار الضعف الإسلامي واستيلاء البرتغال والإسبان على الأندلس أن انطلقوا يكتشفون البحار دون عوائق، البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، فاستطاع الرحالة أن يصلوا إلى العالم الجديد «الأمريكتين»، كما استطاعوا الدوران حول

إفريقيا، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، الذي وصلوا عبره إلى الهند والسواحل الجنوبية والشرقية لآسيا.

وكان من آثار النهضة الأوروبية ومن آثار هذه الرحلات أن تطوَّر علم الخرائط، وابتدأ رسم خرائط أكثر دقة لهذه الأرض، قاراتها وبحارها، فكل تطور علمي وكل رحلة كشفية تضيف جديدًا في علم الخرائط.

٤. بُعْد مركز الخلافة الإسلامية:

لم يعد في العالم الإسلامي مملكة قوية، إلا أولئك العثمانيون في عاصمتهم البعيدة القسطنطينية، تلك المدينة المنيعة الراقدة شمالاً عند مضيق البوسفور، والتي تقوم بدورها الجهادي في شرق أوروبا وفي روسيا، وتقاوم الصفويين في العراق وإيران، فما كان بإمكانها في ظل هذا الوضع الجغرافي أن تعتني بأمر الأندلس الذي يسقط وينهار، وتتبعه سواحل الشمال الغربي لإفريقيا، ثم سواحل الغرب والشرق الإفريقية، والسواحل الجنوبية الآسيوية.

ولقد حاولت الدولة جهدها الدفاع عن مسلمي الأندلس وعن سواحل اليمن، وخاض الأسطول العثماني معارك ضارية مع الأساطيل البرتغالية والإسبانية، واستطاع تحقيق إنجازات مهمة؛ منع بها الأعداء من دخول البحر الأحمر -حيث أرادوا مهاجمة مكة وإنهاء أمر الإسلام- كما حفظوا بها ما استطاعوا من سواحل الشمال الإفريقي، وأنقذوا ما أمكنهم من مسلمي الأندلس ويهودها، الذين كانت تفترسهم محاكم التفتيش الكاثوليكية.

كان اجتماع هذه العوامل معًا في الفترة الزمنية ذاتها قادرًا على رسم صورة جديدة للعالم وموازين القوة فيه، خلاصة هذه الصورة أن الأيام قد دالت على المسلمين، وأن الأعداء قد التهموا -تقريبًا- أطراف العالم الإسلامي على السواحل الإفريقية والآسيوية، بل وتنافسوا عليها؛ فلقد لحق بالإسبان والبرتغال الهولنديون والإنجليز

والفرنسيون وغيرهم، ولم تكن المقاومة المحلية في تلك البلدان -على الرغم من بسالتها وصلابتها- بقادرة على تغيير ميزان القوة هذا.

وبعد قرنين من الزمان أخذت الأزمة منحًى جديدًا؛ إذ استطاع الفرنسيون احتلال مصر والشام، فلم يكن هذا مجرد احتلال لأطراف العالم الإسلامي بل لقلبه، ولم تكن بينه وبين الخلافة مسافات بعيدة؛ بل ليس بينهما إلا البحر المتوسط، فكانت صدمة بالغة هائلة الأثر للمسلمين، حتى قال الجبرتي: إنه «اختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع»[1]. فقد ثبت ما وصل إليه المسلمون من ضعف، وكذلك ما وصلت إليه خلافتهم «الدولة العثمانية العَلِيّة» من عجز، وابتدأ من هاهنا سؤال: كيف حدث هذا؟ وكيف سبيل الخروج؟

«سؤال النهضة» هذا لم يُترك لتُجيب عنه الشعوب، بل قام به الحكام المستبدون الذين هم سبب أصيل في نكبة المسلمين، لقد اتجه الأقوياء منهم إلى تعلُّم ما عند الغرب، أو الإتيان بخبراء الغرب؛ لنقل خبراتهم إلى بلاد المسلمين، ولم يكن في هذا من بأس لو أن الناقل كان واعيًا حريصًا على أخذ ما لديهم من علوم مادية، دون استلهام رؤاهم الفكرية والفلسفية؛ لكن الذي حدث كان على العكس من هذا، ولعل المشهد المصري يكون خير نموذج على هذا التطور باعتباره الأسبق زمنًا والأغزر مادة.

لقد تولى الحكم في مصر محمد علي باشا، فكان -على الرغم من إصلاحاته المادية الكثيرة الهائلة- أحد أهم النكبات في تاريخ المسلمين، فهو الذي اعتمد سبيل بناء دولة قوية يكون الحاكم فيها الرجل الأوحد، فأخذ في تدمير النظام الاجتماعي؛ ليملك وحده مقاليد البلاد، فضرب العائلات الكبرى، ومنع على الأهالي تملك السلاح، وضم الأوقاف إلى الدولة، وأسس جيشًا على النظام الأوروبي؛ يكون ولاء

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار ٢/ ١٧٩.

الجندي فيه للأمر العسكري مهما خالف الدين أو العرف أو الخُلُق، وعلى الرغم من أن محمد علي أتى إلى الحكم باختيار جماعة العلماء؛ فإنه لم يلبث أن تخلص منهم، ولم يعد يسمح بوجود أحد إلا علماء السلطان.

فما إن ذهب عصر محمد علي حتى كانت «الدولة» قد زُرِعت، والناس قد صاروا عبيدًا للدولة لا أصحابًا لها، ولما لم يكن خلفاؤه على قدر همَّته في العمران؛ فقد فسد العمران، وانهارت آثار محمد علي، ثم جاء الاحتلال الاقتصادي الأجنبي الذي تبعه النفوذ الأجنبي، ثم تبعهما الاحتلال الأجنبي البريطاني، فوجد أمامه شعبًا أعزل، ودولة منهارة، وبذورًا علمانية مغروسة، فظل في البلاد سبعين سنة يُفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، ويصنع منها نخبة على مثاله وبصبغته.

مثل الذي حدث في مصر حدث في غيرها من البلدان بالقدر ذاته تقريبًا؛ فقد وقعت ديار الإسلام إلا قليلاً منها تحت احتلال أجنبي، ثم سقطت الدولة العثمانية، التي كانت تمثِّل خلافة المسلمين، فصار المسلمون كالغنم المتفرقة لا راعي لها، وامتلكت أزمَّتها تلك النخبة التي صنعها الاحتلال على عينه، وسلم لها أمر البلاد، وما نستطيع أن نبرئ الحركات الإصلاحية في ذلك الوقت، والتي تكررت منها السذاجة في أقطار المسلمين؛ حتى سُرِقت الثورات وحركات المقاومة جميعًا؛ لتسقط كل ثمارها في يد أتباع الاحتلال.

حين خرج الاحتلال حَكَم أتباعه، فبدأ عصر الاستبداد العلماني العسكري، الذي كان على المسلمين أشد وأقسى وأكثر نكالاً من الاحتلال؛ إذ صارت العلمانية نظاما حقيقيًا حاكمًا مقدسًا، وصارت حدود المحتل مقدسة، وترسَّخ نظام الدولة المركزية القومية الحديثة باعتباره شكل الحكم المقدس أيضًا، وقبل كل هذا وبعده صارت الخلافة من الأوهام والخرافات، وصار العمل للإسلام والدعوة للوحدة الإسلامية من الجرائم، وذاق المسلمون ويلات النظم العلمانية والعسكرية، واستمر تساقط

العواصم الإسلامية على أيدي اليهود والصليبيين والهندوس والملاحدة.

وها هو الأمل يتجدد بثورات الربيع العربي أن تنهي هذا المسلسل من السقوط والتراجع، وأن تعيد تمكين الأمة من حكم نفسها بشريعتها وقِيَمها، وأن تكتب الفصل الأول في رحلة التحرر من الاحتلال الأجنبي العسكري والاقتصادي والثقافي.

* * *

فوارق رئيسية بين الشرق والغرب

لم يكن الاحتلال مجرد تفوق عسكري، بل سعى المحتلون إلى زراعة ثقافتهم ونظمهم وقيمهم وأفكارهم وفلسفتهم في الشعوب المُحْتَلَّة، واهتموا بصناعة النخب، التي تتشرب روحهم وتمكينهم من مواطن الحكم والتأثير، ثم سلموا إليهم تلك البلاد قبل أن يرحلوا منها، فواصل هؤلاء مسيرة أولئك!

وأهم ما يعنينا في هذا الموضوع هو رصد الفوارق بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي والعلماني؛ لكي نرى بعدها كيف أن الغرب والشرق كالزيت والماء لا يختلطان إلا قَسْرًا وبعمليات كيمائية قاهرة، فهما يحملان من التاريخ والثقافة والنظم وطبائع البشر ما يجعلهما متناقضان، فما كان بالإمكان فرض النموذج الغربي إلا بتحطيم النظام الإسلامي.

وبطبيعة الحال فليس بالإمكان تتبع كل الفوارق المؤثرة في هذا المقام؛ لذا اقتصر حديثنا على أهم هذه الفوارق؛ لا سيما ما كان منها مؤثر في موضوع بحثنا هذا.

١. الحضارة والدين

يمثل هذا أهم الفوارق قاطبة؛ ذلك أن العرب كانوا قومًا بلا حضارة ولا فلسفة ولا دولة حتى نزل عليهم الإسلام، فأنشأهم خلقًا آخر؛ فجعلهم ذوي تصور ورؤية ودولة وحضارة، وكل هذا مستمد منه، بينما جذور الغرب الحضارية امتداد للفلسفة اليونانية، وما تعرضت له من تعديل وتبديل على مر العصور، فلما اعتنق قسطنطين المسيحية لم يكن للدين كبير أثر في تعديل شكل الحياة؛ بل تأثرت المسيحية بما هو موجود[1].

---

(١) لأن المسيحية أصلاً ليس لها تطبيقات سياسية واجتماعية، فهي مجرد تعاليم أخلاقية روحية، ولعل

هذا الفارق له آثاره الهائلة على كل السياق التاريخي والحضاري للشرق والغرب، فالدين أساس رئيسي في نهضة الشرق وانبعاثه وحضارته، بينما لم يكن الأمر كذلك في الغرب.

٢. الصّلات الاجتماعية

تُحَدِّد طبيعة الصلات الاجتماعية شكل المجتمع وفكره وميوله، ومن ثم شكل الدولة ونظامها وسياستها.

ففي صلات الأقارب والأرحام سنجد أن النظرة الأوروبية تميل إلى العائلة الصغيرة على حساب العائلة الكبيرة أو العشيرة، وعلى خلاف القرآن فإن الكتاب المقدس أميل إلى الفرد والأسرة الصغيرة والخلاص الفردي، وعبر التاريخ كان الغربيون أميل إلى الزواج المتأخر وإنجاب أطفال أقل؛ إذ كان الطلاق مستحيلاً عمليًا، وكان زواج الأقارب المقربين ممنوعًا؛ فعمل كل ذلك على منع تكوُّن العائلات الكبيرة أو العشائر، وبعضُ الغربيين[(١)] يرى أن الكنيسة أرادت ذلك؛ لأن هذا يسهل لها الاستيلاء على الملكيات، التي لن تظل بيد عائلات كبيرة، كما أن عزوبية الكهنة تحظى برسوخ وقداسة في أوروبا أكثر منها في أي مكان آخر.. لهذا وغيره كانت أوروبا أميل إلى الأسر الصغيرة، واختفت فيها القبائل والعشائر منذ القرن الحادي عشر[(٢)].

وفي العلاقات بين الطبقات الاجتماعية سنجد أن العلاقة الأهم في أوروبا هي «الإقطاع» الذي أنتج علاقة السيد – الخادم، وكان المجتمع الغربي عبارة عن سلسلة

= هذا ما دعا قسطنطين لاعتناقها لتوفير اقتتال داخلي في الإمبراطورية الرومانية.

(١) مثل: جاك جودي في دراسته «تطور العائلة والزواج في أوروبا» (صَدَر في كامبريدج ١٩٨٣م).

(٢) أنتوني بلاك: الغرب والإسلام ص١١٧، ١١٨.

من أناس يخضعون لبعضهم من أول الملك، الذي كان يخدمه طبقة من النبلاء، والذين هم أسياد لرجال أقل منهم في الرتبة، وهكذا حتى الوصول إلى الفلاح البسيط الذي يزرع الأرض، وجدير بالذكر أن الإقطاع كان وراثيًا، فكانت علاقة السيد والخادم قابلة للتجديد عند موت أحدهما، وهو ما انطبق على كل العلاقات: الحاكم والمواطن، الراعي والزبون، صاحب العمل والأجير، الضابط والجندي.. وهكذا، وهذا خلاف رئيسي مع العلاقات الاجتماعية في الإسلام؛ إذ لا يملك أحد أحدًا، ولا يملك أن يورثه ويُعاد توزيع الأرض إن مات صاحبها أو نزعت منه، ولم يكن لأصحاب الأملاك تأثير في الحرب والسياسة مثلما كان في أوروبا[1].

ولهذا كان المجتمع الغربي مُوَلِّدًا لـ «رابطة الدولة»، باعتبارها الرابطة الأهم وتقريبًا الوحيدة، فالأفراد – وهم الوحدات الاجتماعية- يلتقون عند «المصلحة المشتركة»، ويلتزمون بقانون وبعلاقات اجتماعية وُجِدت لتحقيق هذه المصلحة، وكل العلاقات قابلة للتغير والتكيف تبعًا لتقدير المصلحة المشتركة، وذلك على العكس من المجتمع الذي تشده الروابط العائلية والقبلية والعشائرية، وتكون صلاته مبنية على ما لا يمكن أن يتغير –الدم والعرق والنسب- وعلى قيم موروثة متأصلة ذات نزعة أخلاقية هي أهم وآكد وأرسخ من مجرد «المصلحة المشتركة» بين مواطنين في دولة.

---

(١) أنتوني بلاك: الغرب والإسلام ص١١٩.

٣. التصور السياسي

كان للجغرافيا حكمها في تشكيل الحضارة الغربية، تلك الحضارة التي تمتد جذورها الأولى إلى اليونان؛ فلقد مثلت فلسفة اليونان الأساس الراسخ للحضارة الغربية في سائر عصورها حتى الآن، فحتى روما عندما صارت الأقوى عسكريًّا كانت الأضعف حضاريًّا فأسرتها فلسفة اليونان، وحين تَنَصَّر قسطنطين فإن «النصارى ترومت ولم تتنصر الروم»(١)، وفلاسفة الغرب ومنظروه يبدءون تاريخهم من اليونان ويعتزون به، ويعترفون بأنه الأساس الأول لحضارتهم(٢).



خريطة اليونان الطبيعية ويظهر طبيعتها الجبلية الخشنة

إن «اليونان الأصلية بلد خشن في مظهره وفي مناخه؛ إذ توجد سلاسل من الجبال القاحلة تقسم الأرض مما يجعل الانتقال البري من واد إلى واد أمرًا عسيرًا.. ومن ثم فقد نمت في السهول الخصبة مجتمعات محلية منفصلة، وحين كانت الأرض تعجز عن إعاشة الجميع، كان البعض منهم يشد عصا الترحال إلى عبر البحر لإنشاء مستوطنات، وهكذا تناثرت المدن اليونانية على سواحل صقلية وجنوب إيطاليا والبحر الأسود منذ القرن الثامن ق. م»(٣).

وكان الأثر المباشر لهذه الجغرافيا أن تأصلت فكرة «الوطنية» في النفسية

---

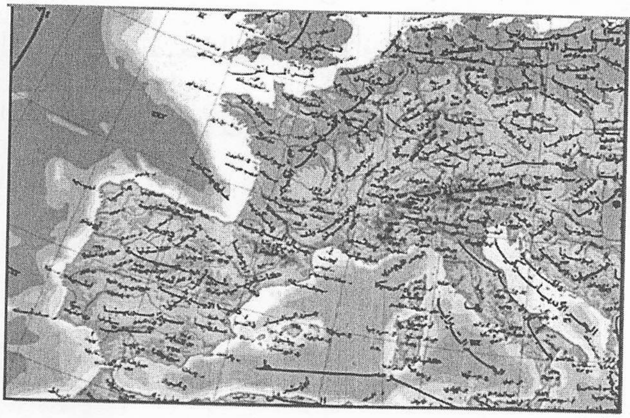
(١) القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة ص١٧٣.

(٢) انظر مثلاً: برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ١/ ١٨٣، رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص١٩.

(٣) برتراند رسل: حكمة الغرب ١/ ٣٠.

اليونانية؛ حتى تحولت إلى «عنصرية» تنفر من الأجانب وتحتقرهم، ولا ترى بأسًا في قهرهم(١)، وكانت الشعوب المقهورة ملزمة بتموين «المواطنين» اليونان(٢).

وإذا كانت الفلسفة اليونانية هي جذور الحضارة الغربية، فإن عنصر «الوطنية» هذا صار من «لوازم الطبيعة الأوروبية» التي لا تختلف كثيرًا عن جغرافيا اليونان؛ إذ «التنازع على البقاء فيها شديد، والكفاح للحياة دائم مستمر لتزاحم العمران وضيق المناطق وقلة وسائل المعيشة، وقد حصرت الجبال والأنهار والأجناس الأوروبية



خريطة أوروبا الطبيعية ويظهر انتشار الجبال لا سيما في المناطق الوسطى والجنوبية

في نطاقٍ طبعي دائمٍ، وبالأخص الجزء الأوسط الغربي والجزء الجنوبي؛ ولذلك كان التصور السياسي في أوروبا في القديم لا يكاد يجاوز ممالك بلدية لا تزيد منطقتها على أميال مستقلة استقلالاً تامًا»؛ بينما «المناطق الطبيعية في آسيا [وإفريقيا] واسعة جدًا، وتشتمل على مناخات وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر؛ فالمملكة في آسيا تجنح بحكم الطبيعة إلى السعة والعموم»(٣).

ولذلك فبينما «كان مجتمع اللغة والدين، والشعور التاريخي المشترك والوعي العام لدى المواطنين والغرباء في العالم الإسلامي متوجهًا كله إلى الأمة، كان هذا

(١) برتراند رسل: حكمة الغرب ١/ ١٠٠، ١٤٣، ١٥٧، أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ ١/ ٩٣.

(٢) مونتسكيو: روح الشرائع ٢/ ١٤٦.

(٣) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٤٤، ١٤٥ باختصار وتصرف بسيط.

موجهًا في أوروبا نحو القوميات، ولا يزال هذا إحدى السمات المميزة للثقافة السياسية الأوروبية»(١).

وحيث لا اتفاق في أسس الحضارة ومنبعها، ولا في صورة العلاقات الاجتماعية التي تحدد طبيعة النظم والثقافة والسلوك، ولا في التصور السياسي -الداخلي أو الخارجي- النابع من طبيعة مجتمعاتهم وجغرافية بلدانهم؛ حيث كان هذا فإننا إزاء اختلاف هائل، سيتبدى أثره أكثر في السطور القادمة.

(١) أنتوني بلاك: الغرب والإسلام ص١٢١.

الفصل الثاني

أخذوا أفضل ما عندنا

كان الخلاف الذي بين الشرق والغرب مثيرًا للتأمل، ومن خلال الاحتكاك بين الطرفين في الأندلس وصقلية والشام ومصر -أيام الحروب الصليبية- استوعب الطرفان كثيرًا من أوجه الخلاف بينهما، لكن اليد الحضارية العليا كانت للمسلمين، بينما جاءت أيام الاحتلال والاستبداد لينقلب الحال، وقديمًا بدأ المصلحون عندهم يقتبسون من أفكارنا وأنظمتنا وعقائدنا؛ لكنهم وُوجهوا بالكنيسة والاستبداد، حتى إذا تخلصوا من ذلك وبدأت نهضتهم كان نقلهم لما لدينا أسهل وأيسر وأسرع.

ومما ينبغي أن يُلاحظ في هذا الاقتباس أمران؛ الأول: أن ثمة اقتباسات اجتماعية حضارية طويلة بطيئة سارت عبر الزمن سيرًا بطيئًا؛ لطبيعة ما بين الطرفين من خلافات، وهي أمور لا يمكن نسبتها لأحد بعينه ولا لحادثة بعينها، والثاني: هي الاقتباسات الواعية التي قام بها مفكرون وفلاسفة ومصلحون، وهؤلاء -كعادة كل معتز بدينه وهويته- كان حريصًا على اقتباس العلم والفكرة دون جذورها العقدية الدينية، بل كان أكثرهم اقتباسًا لما لدى المسلمين هم أكثرهم هجومًا على المسلمين ودينهم ونبيهم[1].

وفيما يخص بحثنا هذا يهمنا أن نركز على ثلاثة اقتباسات فحسب عبر مباحث ثلاثة هي:

- المبحث الأول: التحرر من سلطتي الكنيسة والإقطاع
- المبحث الثاني: تقوية المجتمع
- المبحث الثالث: تكوين «أمة واحدة»

---

(١) مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية ص١٠٦ وما بعدها.

التحرر من سلطتي الكنيسة والإقطاع

على الرغم من أن المسيحية لا تحتوي نُظُمًا سياسية واجتماعية -اللهم إلا الزواج والأحكام الشخصية الضيقة جدًّا- فإن تطور المسيحية في الغرب كان ناحيًا إلى السيطرة على المؤسسات الدنيوية، وفيما كانت بداية المسيحيين انعزالية عن السلطة والدولة؛ نابعة من العبارة الشهيرة «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فإن الكنيسة سعت تدريجيًّا لتكون فوق السُّلطة وفوق الإمبراطور، وبلغت ذروة هذا في الثورة البابوية التي قادها البابا جريجوري السابع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، وبلغ انتصاره فيها حد أن اضطر الإمبراطور الألماني هنري الرابع إلى أن يتقدم إلى البابا (١٠٧٧م) حافيًا لابسًا الصوف في البرد الرهيب ليقف على باب قلعة كانوسا -حيث البابا- يطلب الغفران، ويعلن التوبة لثلاث ليال حتى عفا عنه البابا[١].

وبالإضافة إلى هذه السلطة الروحية القاهرة للكنيسة، فقد كانت لها أملاك وأراضٍ تمثل إقطاعيات كبيرة، وكان على الأجراء والفلاحين أن يعملوا يومًا في الأسبوع في أملاك الكنيسة بلا أجر، وكان لها -بعد هذا- فرق عسكرية تطورت أحيانًا إلى جيوش كبيرة لا تتبع إلا البابا؛ تدافع عن أملاك الكنيسة أو تضم إليها أملاكًا جديدة؛ وبهذا كانت الكنيسة سلطة أخرى بجوار سلطة الأباطرة، فهي تملك السلطة الروحية منفردة وتشارك في السلطة الدنيوية[٢].

ولم تقصر الكنيسة في استعمال سلطتها متى أرادت واستطاعت، فقد أعلنتها

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٣٩٥ وما بعدها، أنتوني بلاك: الغرب والإسلام ص١٩٣ وما بعدها.

(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٤٠٩، إدوار بروي: تاريخ الحضارات العام ٣/ ٢٨٤ وما بعدها.

حربًا شعواء على أي اكتشاف علمي أو نظرية قد تخالف الكتاب المقدَّس، وأباحت لنفسها التفتيش في ضمائر الناس ومعاقبة من لم تره مخلصًا للمسيحية، فاندلع في أوروبا عصر النزاع بين العلم والكنيسة، فكانت سنوات الدماء والمحارق.

وبينما كانت الكنيسة هي السلطة الروحية، فقد كان الملوك والنبلاء هم السلطة الواقعية، حيث تنقسم الأرض في أوروبا إلى إقطاعيات، يملك كل إقطاعية منها نبيل من النبلاء، وهو يمتلك من عليها من العمال والفلاحين، الذين يعملون في الخدمة ثم يدفعون له الضريبة، التي تستنزف معظم دخلهم؛ مقابل الحماية التي يوفرها السادة الإقطاعيون لهم، وكان هذا النظام فلسفة ضاربة بجذورها إلى أرسطو، وتحظى برضا المسيحية كذلك، فقد «كان القديس توماس أكويناس يفسر الاسترقاق بأنه نتيجة لخطيئة آدم، وأنه وسيلة اقتصادية في عالم يجب أن يكدح فيه بعض الناس ليمكنوا بعضهم الآخر من الدفاع عنهم»[1].

وكان رقيق الأرض محكومين بقوانين وقواعد متوحشة، فالمسترق يؤدي ضرائب قاسية، ويعمل في أملاك المالك بلا أجر، وهو ملزم أن يطحن خبزه أو يعصر عنبه في مطاحن ومصانع المالك مقابل أجر يدفعه، ويدفع أجرًا إذا أراد أن يصيد سمكًا أو حيوانًا بريًّا أو رعى ماشية، ويرفع قضاياه أمام محاكم المالك، ويلبي طلبه إن أراده جنديًّا، ويساهم في افتدائه إن أُسِر ويقدم هدية لابنه إن بلغ سن الفرسان، ويدفع الضرائب عن بيع محاصيله، وهو لا يبيع المحاصيل إلا بعد نزول محاصيل المالك في الأسواق بأسبوعين على الأقل، وعليه أن يؤدي غرامة عن ابنه إذا تعلم -لأن هذه خسارة يد عاملة بالنسبة للمالك- وكذلك إذا تزوج ابنه أو ابنته من خارج ضيعة المالك، وكان لبعض الملاك في بعض الأماكن «حق الليلة الأولى»؛ وهو حق المبيت مع العروس أول ليلة، والمقام لا يتسع لاستقصاء المزيد، ولكن نختم بأنه إذا

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٤٠٩.

بيعت الأرض وانتقلت الملكية إلى نبيل آخر فهي تُباع بما ومن عليها من الفلاحين، وإذا مات رقيق الأرض فلا تنتقل أرضه إلى أبنائه إلا بموافقة السيد، ويجوز للسيد بيعه أو تأجير خدماته، وكان في وسع هذا الرقيق في فرنسا أن يحل العقد الإقطاعي إذا أسلم الأرض وكل ما يملك إلى سيده، أما في إنجلترا فقد حرم حتى من «حق مغادرة الأرض» هذا، وكان إذا هرب قُبِض عليه وأعيد[1].

لقد كان العالم الإسلامي يمثل النموذج المشرق لهذا السواد الحالك، فهناك لا وساطة بين العبد وربه، ولا اعتراف لكهان أو علماء، ولا يملك أحد بيع صكوك الغفران أو إصدار قرارات الحرمان، ونظام الإقطاع في أسوأ درجاته في العالم الإسلامي كان يمثل حلمًا وأملاً عظيمًا بالنسبة للأوروبي، ولا وجود لطبقة نبلاء في عالم الإسلام، بل إن العبيد المماليك صاروا أمراء وسلاطين، وكان منهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، العربي والفارسي والتركي والديلمي والكردي والنوبي والحبشي والشركسي والتتري والأمازيغي، وأبناء المولدين من العرب وسائر الأجناس.

وما زال يتفاعل الظلم الداخلي في أوروبا، ويتعرفون على عالم الإسلام عبر سنين الاحتكاك والاستعمار، حتى ثارت الشعوب الأوروبية فحطمت سلطتي الكنيسة والإقطاع، وقالت بالشعار المشهور: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، وبدأت رحلتها في التحرر وتأسيس الجمهوريات.

كان لهذا التحرر آثار كثيرة فارقة، لكن الذي يهمنا في موضوع البحث، هو أثر انطلاق المجتمع الغربي من قيوده، ومساهمة أفراده ومجموعاته في صنع الحضارة بغير تقييد ولا تعطيل، يحدوهم شعور أن البلاد صارت لهم، وأن خيرها عائد عليهم لا على طبقة من النبلاء أو القساوسة، ولهذا كانت المسئولية الاجتماعية للناس في صعود وازدهار.

* * *

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٤٠٩ وما بعدها، إدوار بروي: تاريخ الحضارات العام ٣/ ٢٩٣ وما بعدها.

تقوية المجتمع

تأثر المجتمع الغربي بهذا النمط الهيكلي الذي يجعل أفراد المجتمع منتظمين في تنظيمات هرمية، ففي الجانب الديني يتوزع الكهنة ورجال الدين في تنظيم هرمي على رأسه البابا، وفي الجانب الدنيوي فإن عامة الناس تابعون للإقطاعي، الذي هو -أيضًا- درجة من درجات الهيكل الهرمي الذي يترأسه الإمبراطور. هذان النظامان تسببا في إضعاف القوة الاجتماعية لعموم الناس؛ بل إن ضعف هذه القوة الاجتماعية هو في ذاته شرط لاستقرار المؤسسات الحاكمة: البلاط والكنيسة، ومن ثم كان الحرص قائمًا على أن تظل قوة العامة مفككة ومتناثرة.

بينما الحال على نقيض ذلك في عالم الإسلام، فلا وساطات كهنوتية، ولا أمراء إقطاع، يهيمن المنهج على الجميع، ولا يندرج الناس في تنظيمات هرمية، بل إن صورة المجتمع الإسلامي على غرار صورة صلاة الجماعة، لا يضبط الناس خلف الإمام ولا يؤم الإمام جموع الناس إلا برباط المنهج والإسلام، كما أن صوت الإمام يصل إلى الناس جميعًا في اللحظة ذاتها، ويفضل بعض الباحثين تشبيه صورة المجتمع الإسلامي بشروق الشمس على الأرض، حيث مركز التأثير خارج نطاق الناس، وتأثر الناس به رباط معنوي غير عضوي، ووصول الأمر أو الأثر يكون لكل الناس في وقت واحد.

وفي حين تمثل جماعة العلماء ضغطًا لتصحيح الأوضاع؛ فإنهم بلا سلطة مادية على الناس، ثم إن لكل مسلم حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والانتظام في روابط طبيعية: كالقبيلة والعشيرة والرحم والجغرافيا، أو اختيارية كجماعات الحرف والمهن وطلبة العلم وغيرهم، كل هذا دون معوق من سلطة، وكان المجتمع يوقف الأوقاف على أوجه الخير؛ فيمول حركته الحضارية تمويلاً ذاتيًا يجعل الأمة مزدهرة

حضاريًّا؛ حتى إن ضعفت سياسيًّا وعسكريًّا.

منذ القرن الحادي عشر -وهو عصر الحروب الصليبية- بدأ ظهور تنظيمات شعبية في أوروبا كانت بذرة النقابات، وقد بدأت بطبقة «جديدة من الناس الأحرار المستقلين من الوكلاء التجاريين، والتجار، والحرفيين، والعمال المهرة، وهم في الغالب يكتسبون قوة من التنظيم في طوائف مهنية وهيئات جماعية من الأفراد»[1]، وقد استطاعت هذه الطوائف أن تكون أول شرخ مهم في سلطة الأساقفة والأباطرة والإقطاعيين، فعلى سبيل المثال استطاعت نقابات التجار تحقيق تغيرات فارقة لصالح الأوروبيين؛ إذ ارتبط تجار المدن في العصور الوسطى في نقابات؛ الغرض منها حماية أنفسهم من اعتداء الأمراء ونهبهم من ناحية، ورعاية مصالحهم في الأسواق البعيدة من ناحية أخرى، ثم أخذت النقابات في تنظيم شئون التجارة داخل المدينة، ففرضت معايير للجودة وتنظيمًا لممارسة التجارة، وحين خرجت التجارة من طور البساطة إلى التعقيد ظهرت نقابات أصحاب الحرف؛ الأمر الذي يعني الفصل بين التجارة والصناعة، وقد شكل تحالف الصناع والتجار وبعض النبلاء ما يسمى (قومونات Communes)؛ بهدف الاستقلال الاقتصادي -أولاً- وهو ما يستتبع استقلالاً سياسيًّا من سلطة الأباطرة والأساقفة، وعبر القرنين الثاني عشر والثالث عشر استطاعت القومونات الانتصار في صراعها مع الأباطرة؛ مما حقق لها استقلالاً سياسيًّا تامًّا، بل ودخلت بعده في إطار الهجوم والتوسع[2].

إن قوة المجتمع كانت فرعًا عن التحرر من استبداد الدولة؛ ذلك أن أوروبا عرفت فلسفة «التعاقد» بين الشعب والسلطة؛ حيث تأخذ السلطة شرعيتها من كونها عقدًا واتفاقًا بين الناس، لا من حيث تمتعها بحق إلهي للحكم، ولقد «أجمع كل رواد

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٢٣١.

(٢) د. سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى ٢/ ١٠٥ وما بعدها.

العقد الاجتماعي الذين سبقوا الثورة الفرنسية على أن المجتمع المدني ما هو إلا ثمرة تعاقد الأفراد، وأن الدولة هي الضامن لاستمراريته»(١).

لقد تأخرت أوروبا نحو اثنتي عشر قرنًا حتى وصلت إلى بعض ما قرره النظام الإسلامي؛ فالعلاقة «بين الأمة والإمام تقوم على أساس عقد بين طرفين، تكون الأمة فيه هي الأصيل والإمام هو الوكيل»(٢)، وحتى في فترات الضعف وتوريث الحكم لم تكن شرعية الخليفة تعطى إلا ببيعة الناس لا بمجرد الوراثة كما كان الحال في أوروبا، وبيعة الناس -وإن كانت شكلية في كثير من الأحيان- فإنها تعبير عن الفارق بين النظامين الأوروبي والإسلامي. وأما ما لم يصل إليه الغرب حتى الآن فهو فك ارتباط «المجتمع المدني» بالدولة، فلا تزال قوة المجتمع المدني رهينة بحال الدولة ونظامها السياسي، وهو ما لم يكن قائمًا في عالم الإسلام.

وفي مسار تقوية المجتمع اقتبس الغربيون -أيضًا- نظام الوقف الإسلامي، حيث يستطيع المجتمع من تلقاء نفسه تنظيم أمواله الطوعية في أمور النفع العام، وقد ظهرت أول إشارة إلى الوقف في النظم القانونية الغربية في القانون الإنجليزي (١٦٠١م)، ثم اتخذت الأوقاف شكل الشخصية المعنوية باسم مؤسسة (Foundation)، وصارت تُعَرَّف بأنها «مؤسسة غير حكومية لا تقصد الربح وتهدف إلى رعاية هدف أو مصلحة ذات نفع عام»، ومن أشهر هذه الأوقاف وقف كارنيجي؛ الذي أَسَّسه رجل الأعمال الأمريكي أندرو كارنيجي (١٩١١م)؛ ليعود بالتمويل على مؤسسة كارنيجي للسلام ومجلس كارنيجي للأخلاق والعلاقات الدولية، وكذلك وقف روكفلر؛ الذي تأسَّس عام (١٩١٣م)، وهناك الأوقاف المتخصِّصة بالتعليم، أو الصحَّة، أو البحث العلمي، أو مساعدة مرضى القلب، أو مرضى الكُلْيَتَيْنِ، وغير

---

(١) صالح السنوسي: إشكالية المجتمع المدني العربي ص٢٤.

(٢) د. حاكم المطيري: الحرية أو الطوفان ص٢١.

ذلك، مع ملاحظة أن فكرة المؤسسة (Foundation) ما زالت لا تشمل كل الأشكال القانونية لفكرة الوقف الإسلامي[1].

بهذه التطورات صارت المجتمعات الغربية عوامل قوة، وصارت منظمات المجتمع المدني إحدى العناصر الأساسية في المشهد الغربي، وهي تمارس ضغوطًا كثيرة ومفيدة في مجالات عديدة.

(١) د. منذر قحف: الوقف الإسلامي ص٢٣ وما بعدها.

تكوين «أمة واحدة»

كانت وحدة الأمة الإسلامية أمرًا لافتًا في مسار التاريخ، لا سيما مع الاستيعاب الإسلامي لجميع الأجناس والشعوب، التي دخلت فيه وساهمت في صنع حضارته، وعلى ما بين الديار من تباعد ظل الضمير الإسلامي يرى المسلمين أمة واحدة ودارًا واحدة.

يقول أنتوني بلاك، وهو ممن اهتم ببحث الفوارق بين الإسلام والغرب عبر التاريخ: «احتوى الإسلام الباكر على عناصر من القومية العربية، لكن محمدًا ﷺ وأتباعه رفضوا النهج اليهودي للانعزال القومي وابتكروا -بدلاً من ذلك- مجتمعًا دوليًا جديدًا، (وعبر التاريخ) كانت الأمم تعد تجمعات اجتماعية لها ثقافتها وعاداتها، وفي بعض الحالات أديانها الخاصة، وتبنت البلاطات الملكية ثقافة راقية متعددة القوميات، تضمنت بعض العناصر ما قبل الإسلامية، بالإضافة إلى الاستفادة من التراث الثقافي لمناطقها.

وكان الدِّين في أيدي جماعة من العلماء متعددي القوميات على نحو واعٍ ذاتيًا، وكانت بعض الدول الإسلامية تحكمها سلالة تتكون من مجموعة أقلية عرقية (مثل البويهيين والسلاجقة).

وكانت الإمبراطورية العثمانية مأهولة بمزيج من المجموعات العرقية... وهكذا تجاوزت وحدة الأمة الاختلافات العرقية أكثر بكثير مما فعلت الكنيسة؛ سواء في العالم المسيحي الشرقي أو الغربي، قبل الإصلاح أو بعده، ولم تكن توجد دولة قومية في العالم الإسلامي حتى القرن العشرين»(١).

---

(١) أنتوني بلاك: الغرب والإسلام ص١٢٢.

وما إن انتهت الحروب الصليبية حتى بدأت أوروبا في التفكير في التوحد، وقد أخذ هذا نحو خمسة قرون (١٣٠٠ – ١٨٠٠م)، ونشر البابا بيوس الثاني (١٤٥٨م) رسالة تحمل حلم توحد أوروبا في دولة واحدة، ومضى الأمر يداعب الخيال ويسير في الواقع حتى كان لفظ «أوروبا» في أواخر القرن السابع عشر يحل محل لفظ «العالم المسيحي»، ومع حلول القرن الثامن عشر كان الثناء على «أوروبا» هو التيار الغالب، مع شيوع العديد من القيم مثل التسامح الديني[١] وتخفيف العقوبات القاسية والقومية العدوانية، وتقدم التجارة والصناعة، والتوحيد السياسي لأوروبا، وسرى الحلم الأوروبي في كتابات المفكرين والفلاسفة مثل وليام بن –الذي كان أول من دعا إلى قيام برلمان أوروبي– وفولتير وروسو وغيرهم[٢].

لقد خرجت هذه الأحلام من رحم الصراعات الدينية التي اجتاحت أوروبا، فكان السعي محمومًا لإيجاد رابطة أخرى تجمع الأوروبيين؛ لترحمهم من هذا الصراع، ثم انتهى هذا الصراع بعقد صلح وستفاليا (١٦٤٨م)، الذي أرسى مبدأ الدولة القومية، وأعاد تشكيل أوروبا، وكان أكبر الخاسرين فيه هو المسيحية، التي بدأ سلطانها يذوي منذ تلك الأيام[٣]، وبهذا «نرى أن الدولة الحديثة نشأت عن إفلاس الكنيسة»[٤].

على أن هذا الهروب من المسيحية –وحروبها الدينية الدموية– إلى الدولة القومية لم يكن حلاًّ ناجعًا، إذ ما إن خفت سلطان المسيحية حتى اشتعلت لعنة

---

(١) تاريخ أوروبا المسيحية يكاد يكون تاريخ الحروب الدينية بين المذاهب المسيحية؛ لذا فالتسامح الديني نفسه أثر من آثار الاحتكاك بالشرق الحافل بالأديان والمذاهب التي تعيش في ظلال الحكم الإسلامي مطمئنة موفورة الحقوق.

(٢) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٣٦، ٣٧.

(٣) ول ديورانت: قصة الحضارة ٣٠/ ٣١٥ وما بعدها.

(٤) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوروبي الحديث ص٣٦.

القومية، وباشتعالها نشبت الحروب القومية؛ التي كانت أسوأ من الحروب السابقة، فحروب الأباطرة هي حروب نبلاء ذوي أخلاق، ويمكن أن تنتهي بصلح أو زواج ملكي، بينما حروب الرؤساء سياسية بلا أخلاق، ولا يمكن أن تنتهي بمعاهدات صلح أو زيجات، وتستبيح مواطني البلدان الأخرى جميعهم بلا ذرة تردد أو ألم ضمير(١).

وقد بلغت ذروة هذه اللعنة في الحربين العالميتين الأولى والثانية، حيث لم يكن يتردد طرف في إبادة شعب الطرف الآخر من المدنيين غير المشاركين في الحروب بأفتك أنواع الأسلحة المعروفة حتى ذلك الزمن، فقُتِل ملايين البشر مع عشرات الملايين من الإصابات والمشوهين، ومئات المدن المُنْدَكَّة والاقتصاد المنهار، وما سوى ذلك من خسائر لا تحصيها الأرقام.

لكن المثير للإعجاب أن أوروبا بعد خروجها من هذه الحروب فكرت في التكتل وتجاوز لعنة هذه القومية، وذلك في الوقت ذاته الذي كانت تزرع فيه القومية في بلادنا نحن، وإن الصورة التي داعبت الخيال الأوروبي كانت من آثار الاحتكاك بالمشرق؛ فهذا التكتل الأوروبي لم يكن مجرد التئام جغرافي، «ولكن رؤية [قِيَمية وفلسفية] شاملة، وهي رؤية مجتمع متمدن، متسامح، مسالم، وهو في الوقت نفسه متنوع وموحد، ومتجاوز للقومية وللسياسات، ومؤسس على المعرفة العلمية والتقدمات الثقافية، وهو صديق للفنون وللعلوم وللتجارة، وللتقدم في الكرامة الإنسانية، والحرية والسعادة»(٢).

وهذا الوصف هو في الحقيقة وصف للمشرق الإسلامي كما شاهدته الحملات الصليبية، واحتك به الإسبان في الأندلس والمغرب، والنورمان في صقلية وإفريقية

---

(١) أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ ٢/ ١٨ وما بعدها.

(٢) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٣٧.

وجيوش الاحتلال فيما بعد.

وعلى الرغم من أن الغربيين لم يصلوا إلى هذا الحلم؛ فإنهم حققوا أهم أركانه، فلقد «محا إنشاء السوق المشتركة ثم الاتحاد الأوروبي لاحقًا القومية الخبيثة، وصاغ إحساسًا من المصلحة والهوية المشتركتين بين الأمم الأوروبية، وتوقفوا عن غزو أحدهم الآخر، واشتركوا في حلف عسكري غربي، وتبع ذلك ستون عامًا من السلام الذي لم ينقطع، ومن الازدهار في أوروبا الغربية»(١).

وبينما يتخلص الأوروبيون من القومية ولعنتها فإنهم كانوا يغرسونها في أرضنا، وكان هذا ضمن مساوئهم التي تركوها ببلادنا، فكانت من أهم أسباب نكبتنا، وهذا ما سنرى طرفًا منه في الفصل الثالث.

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٣٠.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

تركوا أسوأ ما عندهم

«المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»(١).

مثلما كان الغرب وغيره من الحضارات مولعين بتقليد المسلمين أيام الازدهار الحضاري، جاءت عصور الضعف بما عكس الوضع، وصار المسلمون مولعين بالاقتداء بالغربيين.

على أن المسلمين حين انتشروا في الأرض لم يكونوا يريدون بأهلها إلا خيرًا، على العكس من الغربيين في لحظات قوتهم؛ فهم لم يريدوا نشر خير أو حضارة في البلاد المحتلة؛ بل أرادوا استلاب خيرها، وانتزاع مكامن قوتها لتصير تابعة أسيرة؛ ولهذا ترى آثار المسلمين في البلاد التي فتحوها -حتى ولو خرجوا منها- حضارة ونهضة، بينما آثار غيرهم في بلادنا -حتى بعد خروجهم- مشكلات ونزاعات حدودية وإثنية وقبلية، وأفكار منحلة هدامة، وتبعية سياسية واقتصادية وثقافية ما تزال الأمة تسعى للتخلص منها.

ونحن -في هذا البحث- مهتمون على وجه الخصوص بما أحدثته عصور الاحتلال من تأثير على بنية المجتمع وتماسكه، وعلى علاقات أفراده بعضهم ببعض، وكيف أن تفكيك المجتمع وتفتيته كان من أنكى هذه الآثار وأشنعها، وأكثرها تأثيرًا على البلاد الإسلامية، بما نزع من الأمة عناصر حيويتها، فأفقدها معنى

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ١٨٤.

اللحمة التي كانت تجعلها كالجسد الواحد؛ «إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسَّهر».

وفي هذا الخصوص نرصد أهم الآثار السيئة التي تركها الاحتلال في بلادنا عبر ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: القوميات بديلاً عن الأمة الواحدة
- المبحث الثاني: العلمانية ونظام الدولة المركزية
- المبحث الثالث: النزعة الفردية

القوميات بديلاً عن «الأمة الواحدة»

لا ريب أن الاحتلال لم ينزل بلادنا إلا بعد أن تفرقنا نحن أولاً، ولكن فرقتنا كانت فرقة الحكام؛ بينما كان الاتصال الشعبي قائمًا؛ إذ لا حدود ولا قيود ولا جمارك، ولا حرج على انتقال التجارة وطلاب العلم، وسائر البشر الذين يشعرون أنهم في وطنهم دار الإسلام، وإن تباعدت الديار.

بينما صنع الاحتلال في تلك الأمة الواحد حدودًا صارت مقدسة، بل صار تقديس الحدود والتراب أعلى وأولى من تقديس البشر، وصارت الجيوش الوطنية تدافع عن هذه الحدود، ولو بقتل المسلمين وإن كانوا لاجئين، وصار للوطن معنى آخر بخلاف الانتماء إلى دار الإسلام، واشتعل تأجيج النعرات القومية بين العرب والترك لإسقاط الخلافة العثمانية، ثم بين العرب وغيرهم من الشعوب كالسودان والأكراد والأمازيغ والفرس والتتر وغيرهم، ثم بين العرب أنفسهم؛ فأولئك مصريون جذورهم ضاربة إلى الفراعنة العظماء، وأولئك عراقيون المنتسبون إلى حضارات السومريين والبابليين، وأولئك سوريون أحفاد الفينيقيين، وأولئك التوانسة وجذورهم في حضارة قرطاج، وأولئك اليمنيون ورثة الحضارة العريقة في سبأ وعدن[1].. وهكذا!

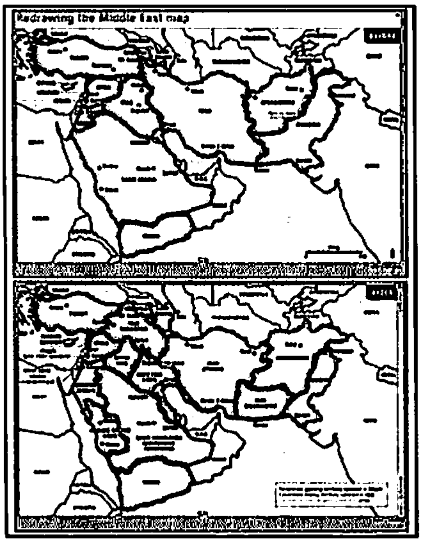
لقد ذاق الغربيون – أوروبيون وأمريكان– لعنة القومية والتفرق[2]، ولهذا فإنهم أجادوا صناعتها في بلادنا، وإليك هذا الاعتراف الغربي الباكي على أوروبا، التي أوقعتها القومية في الحرب العالمية الأولى، فأدت إلى أن «انهارت إمبراطوريات

(١) د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/ ٩٦، ١٣٧ وما بعدها، و١٤٢ وما بعدها.

(٢) راجع الفصل السابق.

أوروبا الاستعمارية، وفُقِد موقعها البارز في العالم على نحو لا عودة عنه، وقامت الثورة الروسية (١٩١٧م) كنتيجة مباشرة للحرب، وكانت مع حلول عام ١٩٥٣ قد أدت إلى ما يقارب ٥٤ مليونًا من الوفيات، التي نجمت عن الحرب الأهلية والرعب، ومعسكرات الاعتقال والعمل، وأحكام الإعدام السياسي، ومن دون الحرب العالمية الأولى ما كنا على وجه اليقين تقريبًا قد وقعنا في بربريات ألمانيا النازية، أو الحرب العالمية الثانية، وهما الحدثان اللذان أديا فيما بينهما إلى ما يقارب ٤٧ مليون قتيل ووفاة آخرين، وتدمير الحضارة الغربية.

وبعد عام ١٩٤٥ استمرت القومية في إحداث ضرر ضخم للعالم، ولكنه وقع بالدرجة الرئيسية خارج أوروبا الغربية وبرعاية أمريكية»(١).



خريطة رالف بيتر
لتقسيم العالم الإسلامي عرقيًا ومذهبيًا

هذا الاعتراف بأن لعنة القومية التي استمرت في العالم برعاية أمريكية ما زال -للأسف- لا ينبه الكثيرين من المسلمين إلى الحقيقة القائمة بأن تفريقهم إلى دول كل منها يتغنى بقوميته ووطنيته وترابه الغالي إنما يجعلهم جميعًا أذيالاً وتبعًا مُحَقِّقًا فيهم هدف خطة عدوهم، بل إن البعض(٢) يؤسس فكرًا وتنظيرًا

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٣١.

(٢) ونعني بهذا طائفة من الناس وليسوا شخصًا، وأما أبرزهم فهو الصحافي الناصري المعروف محمد حسنين هيكل، والذي تدفع كثير من المصادر بأدلة وافرة على تبعيته -أو على الأقل اتصاله- =

لتفريق الأمة، وعلى الرغم من ذلك يتبوأ مكانًا عاليًا في الصحافة ودوائر الإعلام.

إن القومية التي زرعها الغرب لم تكن من نوع العلاقات المترابطة التي حرص عليها الإسلام كما أسلفنا من قبل، بل لا بد من الوعي بأن القومية الغربية -التي نشأت كانسلاخ من الكنيسة الدينية ومن وحدة اللغة اللاتينية وارتبطت بنمو الطبقة البرجوازية ضد نظام الإقطاع- كانت تحتاج إلى أن تتسلح بالتعصب والعنصرية لتكون انسلاخًا وبديلاً عن الوضع القديم، ولرسم معالم وحدود ونفوذ التوجه الجديد، ولأن الحضارة الغربية مادية، ولفساد الكنيسة المسيحية لم تستطع عوامل التوحد إنقاذ المسار من التمزق القومي، وكل ما سبق إنما هو نقيض مخالف تمامًا للوضع في المشرق الإسلامي[١].

لكنهم نجحوا في تمزيقنا، وزرعوا في بلادنا القومية بخصائصها التي نبتت في بلادهم، وهم لا يقنعون، بل ما تزال خطة التقسيم والتفريق مستمرة، وما يزال الباحثون يقترحون تقسيمًا جديدًا للعالم الإسلامي، وكان المستشرق الأمريكي اليهودي برنارد لويس صاحب أشهر خطة تقسيم معتمدة على التوزيع العِرقي والمذهبي، وقد اعتمد عليها المحلِّل العسكري الاستخباري رالف بيتر في رسم خريطة أشد وضوحًا لتقسيم العالم الإسلامي.

وعبر التاريخ المعاصر لم تلق الأُمة أقسَى ولا أمرَّ ولا أكثر نكالاً من حكام نادوا بالقومية؛ مثل: عبد الناصر وصدام حسين والقذافي وحافظ الأسد وابنه بشار، فلم ينتصروا على عدوهم ولم يكونوا أشداء إلا على شعوبهم.

ولم يكتف الغربيون بالتفتيت السياسي، بل لقد استفادوا من تجربة تمزقهم هم؛

= بالمخابرات الأمريكية، انظر مثلاً: محمد جلال كشك: كلمتي للمغفلين، ثورة يوليو الأمريكية، الفضيحة، الجنازة حارة، ود. سيار الجميل: تفكيك هيكل.

(١) د. محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة ص٦٦ وما بعدها.

ذلك أن العامل الأهم في التمزق الأوروبي إلى قوميات هو استبدالهم اللغات القومية المحلية باللغة اللاتينية، التي كانت لغة رجال الكنيسة، وفي إطار النزاعات الدينية والنزاع بين الكنيسة والأفكار المتحررة منها بدأت تظهر الكتابات باللغات المحلية، فكتب دانتي «الكوميديا الإلهية» بالإيطالية، وكتب مونتاني أدبه بالفرنسية، ووضع شوسر «قصص كانتربري» بالإنجليزية، وهكذا، وساهم انتشار الكتابات باللغات المحلية في تيسير الإقبال عليها واحتضانها شعبيًّا، ثم ترسخ هذا الأمر حتى صار الاعتزاز باللغة المحلية من الاعتزاز بالقومية[1].

ويُعَدّ هذا العائق اللغوي هو الأكبر والأصلب أمام بين وحدة حقيقية لأوروبا لا سيما وأن اللغات المحلية استطاعت أن تكون لغات حية، واستطاعت دفن وإنهاء اللغة اللاتينية وجعلها شيئًا من التاريخ.

ولهذا عملوا على إشعال الدعوة للهجات العامية واللغات المحلية؛ سعيًا لضرب اللغة العربية التي تمثل الوحدة الثقافية لبلاد العرب، وخيط الوحدة الدينية الأخير بين المسلمين، وبدأ السعي الحثيث في إنتاج أدب باللغات العامية، بدأت الفكرة من لدن الأوروبيين -وتحديدًا ولهلم سبيتا ثم ويلم ويلكوكس- ثم سرت عبر ألسنتهم في بلادنا مثل لطفي السيد وعبد العزيز فهمي وسلامة موسى وغيرهم[2]. لكن تلك الدعوات لم تحقق نجاحًا مؤثرًا فارتباط المسلمين بالقرآن العربي وبالتراث الإسلامي الهائل يجعل أمر اللغة من أمر الدين.

ولقد كان لهذا التمزق من الأمة الواحدة إلى القوميات آثار جد بعيدة، لقد صارت الأوطان أعلى في النفوس من الأمة، ولم يعد أغلب الناس يهتم لأمر الأمة بل

---

(١) د. شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق: تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة ص١٥.

(٢) يراجع في هذا البحث النفيس «تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها» للدكتورة نفوسة زكريا سعيد، ود. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية ٢/ ٣٥٩ وما بعدها.

لأمر الوطن، وصارت الأنظمة الحاكمة لا ترى نفسها مسئولة عن عمقها الإسلامي، وطالت الآثار حتى فتاوى الفقه التي وجدت نفسها في واقع لا بد من معالجته، فكانت معالجاتها جزءًا من ترسيخ هذا الواقع نفسه، لم تعد مجازر المسلمين تهز مسلمين آخرين؛ لأن حدودهم التي رسمها المستعمر لم تستوعب أولئك المذبوحين، وكانت الحدود منبتة لفكرة أن «المواطن الكافر أقرب وأهم من المسلم البعيد»، وأن للكافر في الوطن حق ليس للمسلم الغريب، وصار الأمر من القوة بحيث يمكن أن نقع فيه بلا قصد وإن حرصنا[1].

* * *

(١) ولعل لجنة المسابقة يتسع صدرها لنقدي هذا، فلقد اختاروا للبحث عنوانًا فرعيًا هو «الشعور بالمسئوليَّة تجاه الأسرة والمجتمع والوطن» وكان الأولى أن يُقال «الأمة»، ونحسب أن هذا ذاته من آثار هذا التمزق الذي تسلل إلى وجداننا.

العلمانية ونظام الدولة المركزية

تخلصت أوروبا من الكنيسة ومن أباطرة العصور الوسطى ومن الإقطاعيين، لكنها استبدلت بهم نموذجًا أدهى وأمرّ؛ ذلك هو «دين العلمانية» و«نظام الدولة المركزية».

كلا الأمرين تابع للآخر، فلا بد لأي مجتمع من قيم حاكمة ومبادئ عليا، ثم لا بد لهذه القيم والمبادئ من أناس يطبقونها ويحكمون بها، فكانت العلمانية هي المبدأ، وكان نظام الدولة المركزية هو نموذج التطبيق.

فأين يكمن الضرر؟

يكمن في أن انتهاء وجود الإله من حياة البشر قد جعلهم عبيدًا لأنفسهم وشهواتهم وأهوائهم، لا يؤمنون إلا بما ينفع ويضر بشكل مباشر واضح، وبهذا انتفى مبدأ الأخلاق والقيم العليا والمُثُل العظيمة، التي انزوت مع الدِّين في جنبات الكنائس، وصارت اختيارًا شخصيًا بحتًا، ولهذا أنتج الغرب كل البشائع الإنسانية، التي جعلته «أكبر مجرم في التاريخ»[1].

«وحينما سئل فاكيلاف هافل (رئيس جمهورية التشيك) عن الأسباب التي أدت إلى هذا الوضع، أجاب قائلاً: هذا الوضع له علاقة ما بأننا نعيش في أول حضارة ملحدة في التاريخ البشري، فلم يعد الناس يحترمون ما يُدعى القيم الميتافيزيقية العليا، والتي تمثل شيئًا أعلى مرتبة منهم، شيئًا مفعمًا بالأسرار، وأنا لا أتحدث هنا بالضرورة عن إله شخصي، إذ إنني أشير إلى أي شيء مطلق ومتجاوز، هذه الاعتبارات الأساسية كانت تمثل دعامة للناس وأُفُقًا لهم؛ ولكنها فقدت الآن،

---

(١) رجاء جارودي: وعود الإسلام ص١٩.

وتكمن المفارقة في أننا بفقداننا إياها نفقد سيطرتنا على المدنية، التي أصبحت تسير من دون تحكم من جانبنا، فحينما أعلنت الإنسانية أنها الحاكم الأعلى للعالم، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعْدَه الإنساني»(١).

وهنا تحققت نبوءة توماس هوبز الذي «أعلن أن حالة الطبيعة (أي حالة الإنسان بعد انسحاب الإله من الكون) هي حالة من حرب الجميع ضد الجميع، فالإنسان ذئب لأخيه الإنسان، وسيتم التعاقد الاجتماعي بين البشر لا بسبب فطرة خَيِّرة فيهم؛ وإنما من فرط خوفهم وبسبب حب البقاء، فيُنَصِّبون الدولة التنين حاكمًا عليهم؛ حتى يمكنهم أن يحققوا ولو قدرًا ضئيلاً من الطمأنينة»(٢).

وهنا صارت الدولة في مكان الإله، بل هي -كما يقول هيجل- «الحلول الإلهي على الأرض»، وسيادتها هي السلطة المطلقة، وعلى الأفراد أن يخضعوا لهذه السلطة التي تحدد من الداخل إرادة الأفراد(٣).

وصارت كفاءة الدولة تقاس بمدى قدرتها على السيطرة التامة على كافة ما يحدث على أرضها من أنشطة، ولم يختلف هذا بين مذهب ومذهب في الفكر الغربي؛ «فالسيطرة على السكان مهمة أساسية لأي سلطة حكومية تهيمن عليها جماعات المصلحة، وعلى الرغم من أن القوتين الدوليتين في زمن الحرب الباردة (أمريكا والاتحاد السوفيتي) كانتا على طرفي نقيض... فإنهما اشتركتا في قوة السلطة المحلية عند تعاملهما مع قضية السيطرة على شعبيهما»(٤).

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص٢١٩.

(٢) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص٢١٩.

(٣) جان بيار لوفيفر وبيار ماشيري: هيجل والمجتمع ص٧٢، ٧٣. وفيما يبدو من باقي كلام هيجل فإنه لم يتوقع وجود استبداد جديد من قِبَل الدولة، فلقد كان من المفتونين بالثورة الفرنسية، ويحسب أنها شيء مثل «نهاية التاريخ».

(٤) ناعوم تشومسكي: النظام العالمي ص٥.

وحين حلت الدولة محل الإله لم يكن لها لا علم الإله ولا رحمته ولا ارتفاعه عن النقائص، وحين حلَّ السياسيون والنخبة محل العلماء والمفتين لم يكن لهم لا تقوى العلماء ولا خشيتهم، بل دخل البشر في حكم البشر، فاستعبد البشرُ البشرَ فأذلوهم وقهروهم، غير أن الأشكال تغيرت؛ فصارت أكثر خداعًا وتلوينًا، وأشهر نمطين لهذا الخداع: الشيوعية والرأسمالية.

فأما الشيوعية فقد ادعت أنها سبيل العدالة الاجتماعية، وضد الإقطاعيين والملوك المستبدين، ولمنع احتكار السلع، ثم كان تطبيقها أعنف استبدادًا من كل الملوك، وأشرس من كل الإقطاعيين، ولم يتحقق في ظلالها إلا العدالة في الفقر؛ حيث صارت الشعوب فقيرة لا تجد الكفاف، بينما تركزت الثروة في يد «الرفاق» الذين يحكمون باسم الشعب، ويقيمون المذابح والسجون باسم الشعب، ويتصرفون في مال الشعب بأهوائهم؛ زاعمين أنها «إرادة الشعب»، وقد طُوِيت صفحة الشيوعية مخلفة وراءها سجلاً من المذابح والحروب والفقر العام والفساد الكبير.

وأما الرأسمالية فقد ادعت أنها ضد الاحتكار الاقتصادي وضد الاستبداد السياسي، لكنها أنتجت أكبر المحتكرين، ورعت ودعمت أكابر المستبدين، وهي تسيطر على الشعب عبر الإعلام والأموال، ويظن الناس أنهم يختارون رؤساءهم، وأنهم يغيرونهم كل فترة؛ بينما تظل الحقيقة أنهم يدورون في مسرح يتحكم فيه رجال الأعمال، الذين يتحكمون في الإعلام والاقتصاد؛ فبالإعلام يخدعون الجماهير ويسوقون رجالهم إلى الحكم، وبه وبالاقتصاد يتحكمون في السياسيين والبرلمانيين وصناع القرار[١].

وفي حين يحسب الأمريكيون -مثلاً- أنهم يستطيعون اختيار رئيسهم فإنهم لا

(١) طالع في تفصيل هذا كتاب «السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية» للألمانية نورينا هيرتس.

يدركون أنهم إنما يختارون بين شبيهين لا يختلفان إلا في تفاصيل صغيرة.

هذه الأزمة القائمة في الغرب حين زُرِعت في بلادنا كانت أسوأ وأشد فتكًا وتدميرًا!

فالعلمانية كانت رغبة شعبية ونتيجة طبيعية لانحرافات الكنيسة، ولم تكن كذلك في بلادنا، ولذا غُرِست بالقهر والعسف والاستبداد، وكان لا بد من وجود حكومات عسكرية تذيق الشعوب الويلات؛ لكي تتمكن من ترسيخ أمرها، وهذا الترسيخ لا يتم إلا بنظام الدولة المركزية، الذي ينزع عن الأمة فاعليتها وترابطها وتماسكها ومصادر قوتها.

أثمر نظام الدولة المركزية في بلادنا أسوأ الثمر؛ فقد سيطرت الدولة على الأوقاف الخيرية، التي هي تمويل الأمة لنفسها وحضارتها، وضربت الدولة نظام القبائل والعصبيات لحساب النزعة الفردية، التي تجعل العلاقة قائمة بين الدولة والفرد على نحو ما هي بين الإله والعبد، وتحكمت الدولة في المساجد ونظم التعليم ومنافذ الثقافة، وصار المواطن لا يستطيع أن يدرس أو يتعلم أو يقرأ أو يسمع إلا ما تريده الدولة أو تسمح به، وهو لا يستطيع أن يمارس نشاطًا ولو خيريًّا إلا إذا سمحت به الدولة، وصار العلماء في يد الدولة؛ إن نطقوا بما أرادت أعطتهم الرواتب والمناصب، وإلا أعطتهم المعتقلات والمشانق، ولا يستطيع الخطيب أن يخطب في الناس ولا أن يدرس لهم ولا أن يقرئهم القرآن إلا بعد تصريح من الدولة... وهكذا صارت وجوه الحياة جميعها.

فإذا استحضرنا حقيقة أن الذي حكمنا في عصور ما بعد الاحتلال كان على مذهب الغرب؛ عرفنا أي مصيبة نزلت ببلادنا على يد أناس من بني جلدتنا ويتكلمون بألسنتا[1].

---

(١) استعرض الشيخ محمد عبده «آثار محمد علي في مصر» في مقال مهم، يعد «النموذج المصري» لما =

كان طبيعيًّا والحال هكذا أن يختفي ترابط الناس وتماسكهم، وأن ينزوي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تضمر حاسة الشعور بالمسئولية، وأن تصير الأمة بعد أن انقسمت أوطانًا قد انقسمت –داخل الوطن الواحد– إلى أفراد متفرقين، بل كان هذا التفرق من ضرورات الاستبداد ومقاصده التي تعمدها، ألم يذكر الله أن فرعون لكي يستبد بأهل مصر ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]؟!

ولم يقف الحال عند تمزق روابط المجتمع، بل جاءهم من الغرب ما يجعلهم أفرادًا مولعين بالانفراد ومتخلين عن الروابط والأواصر الاجتماعية.. لقد أصابتهم لعنة غربية أخرى، تلك هي «النزعة الفردية».

= جرى بعد ذلك في عالمنا الإسلامي، ولأهميته فقد ضعناه في الملحقات.

النزعة الفردية

وأسوأ ما في «النزعة الفردية» أنها لا تزال فكرة براقة تجتذب إليها النفوس، على الرغم مما ظهر من آثارها السيئة، وها نحن نرى مؤلفي كتاب «انتحار الغرب» -الذي صدر قريبًا- يجعلان النزعة الفردية من الأعمدة الستة لحضارة الغرب(١)، ويفخران بذلك ويَعُدانها من «مميزات الحضارة الغربية»، لا سيما وأن كثيرًا من ملامح النزعة الفردية تأصلت وترسخت أثناء الكفاح الغربي للخروج من سيطرة الكنيسة والاستبداد والإقطاع؛ فقد كانت النزعة الفردية أَصْلاً في حركات إصلاحية دينية -كاللوثرية التي استهدفت إعتاق الناس من سلطة الكهنة الروحية- وحركات إصلاحية سياسية -كآراء جون لوك وروسو وكانت- وحركات إصلاحية اقتصادية بلغت ذروة نجاحها في «الرأسمالية»(٢).

لكن هذا الجانب المضيء من تلك النزعة يُخفي وراءه الجانب الأكثر سوءًا وظلامًا، وسنكتفي بضرب ثلاثة أمثلة فحسب عما جناه الغرب، ومن ورائه من تبعه من البلدان والأنحاء من شرور، فبحسب شيوع هذه النزعة في مجتمع بحسب ما أصابه من شرها.

أولاً: تمزيق روابط المجتمع

نشر مايكل دو مونتين مقالاً (١٥٨٠م) يقول فيه: «أعظم شيء على الأرض هو أن تعرف كيف تنتمي إلى نفسك، فكل إنسان ينظر أمامه، ولكنني أنظر في داخل نفسي، إذ ليس لدي اهتمام بغير اهتمامات نفسي، وأنا أتأمل نفسي باستمرار، وأنا

---

(١) الأعمدة الستة للحضارة الغربية كما يراها المؤلفان: المسيحية، العلم، التفاؤل، النمو، الليبرالية، الفردية.

(٢) ريتشارد كوك وكريّس سميث: انتحار الغرب ص٢٢٣ وما بعدها.

أضبط نفسي، وأنا أتذوق نفسي... نحن مدينون ببعض الأشياء للمجتمع، ولكن القسم الأكبر لأنفسنا». ثم أتى ديكارت فقال قولاً عظيمًا: «الإرادة الحرة هي أنبل شيء نستطيع أن نملكه، وذلك لأنها تجعلنا في أسلوب معين مساوين لله وتستثنينا من كوننا رعاياه»(١).

وسار خط الفكر الغربي على استقامته حتى بلغ ذروة التطرف لدى نيتشه الذي أعلن «لقد ماتت جميع الآلهة، ونريد الآن أن يعيش السوبرمان (الإنسان الأعلى)»(٢).

وحيث نسي القومُ اللهَ فإنه -جل وعلا- أنساهم أنفسهم، فلقد سار الغرب في ترسيخ هذه النزعة الفردية؛ حتى لم يعد ممكنًا كبح هذا الجماح، حتى انتهت العلاقات «التراحمية» في المجتمع لتحل محلها العلاقات «التعاقدية»؛ حيث لا عاطفة ولا تراحم ولا قيم عليا؛ بل مجرد المنفعة(٣)، ولئن كان قطاع من مفكري الغرب وفلاسفته ينظرون للإنسانية؛ فإن واقع الغرب وساسته يظهرون كأبناء مخلصين لنيتشه المُمَجِّد للقوة والمُحْتَقِر للضعفاء وعدو الشفقة(٤)، والذي «يرى التعاطف ضعفًا يجب مغالبته»(٥).

وفي حمأة الجنون الغربي بالحرية الفردية لم يعد ممكنًا حتى الاستماع لأصوات عقلائهم التي تقول مثلا: «إن رأس المال الاجتماعي يُدَمَّر حين يصير المجتمع أكثر فردية، وحين نصير نحن غير مرتبطين مع الأسرة والأصدقاء والجيران والنوادي

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٢٣٣.

(٢) إميل برهييه: تاريخ الفلسفة ٧/ ١٣٣، ول ديورانت: قصة الفلسفة ص٥٢١.

(٣) د. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ١/ ١٣١ وما بعدها، رحلتي الفكرية ص٦٤ وما بعدها.

(٤) نيتشه: هكذا تكلم زرادشت ص٧٤ وما بعدها.

(٥) برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية ٣/ ٣٤٤.

والكنائس والروابط والجماعات المجتمعية، وتنهار الثقة، وهي مكون مهم للصحة النفسية والنجاح الاقتصادي»(١).

إن تمزق الروابط الاجتماعية اجتاح كل العلاقات حتى أوثقها؛ وهي العلاقات الأسرية؛ فقد بلغت نسبة العزوف عن الزواج في أمريكا ٨٥٪، ورُصِد تضاعف معدلات العزوف هذا بين عامي (١٩٧٠ – ٢٠٠٢م) فبلغ عند الرجال ٣٣٦٪ و١٩٦٪ عند النساء، وكذلك تتضاعف نسب الهروب والطلاق بين المتزوجين – والتي تعبر عن نزعة فردية أنانية تناقض كل قيم تحمل المسئولية– فزادت من ٣ مليون إلى ١٠ ملايين بين النساء، ومن ٣٩٣ ألف إلى ٢.٢٥ مليونًا بين الرجال في الفترة ذاتها (١٩٧٠ – ٢٠٠٢م)، بل صار أكثر من نصف مواليد السويد (٥٤٪) من أولاد الزنا، ونحو ٤٠٪ في فرنسا، و٣٨٪ في بريطانيا، وتغولت نسب الطلاق حتى بلغت معدلات مخيفة في بلجيكا (٦٩٪) والسويد (٦٠٪) والنمسا (٥٩٪) وألمانيا (٥١٪) وبريطانيا (٥١٪) وأمريكا (٤٨٪) وفرنسا (٣٩٪)، بل لقد شمل التخريب تعريف الزواج نفسه لم يعد يتحدث عن رجل وامرأة وأطفال مرتبطين بزواج؛ بل صار –بحسب مؤلفي كتاب: الحياة الأمريكية– يتحدث عن «أناس يعيشون مع بعضهم ويحبون بعضهم»، وأبرز تطبيق عملي هو إصدار القوانين المبيحة للزواج المثلي في أوروبا(٢).

ومما هو معروف أن الغرب ما يزال في سعيه الحثيث لزرع كل هذه المشكلات في بلادنا، وتكفي في هذا نظرة لتوصيات مؤتمرات السكان وحقوق المرأة، وبرامج المنظمات الحقوقية الممولة غربيًا والعاملة في العالم الإسلامي، تكفي نظرة واحدة في كل هذا ليُكتشف طريقهم في السعي والإفساد.

---

(١) ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب ص٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) د. صلاح سلطان: الأسرة آلام وآمال ص٩، ١١ وما بعدها.

ثانيًا: «الفرد- الإله».. أفكار استعبادية

أثناء إعدادي هذا البحث، وعن غير تقدير، أراد أحد الأصدقاء أن يكرمني فذهب بي إلى عشاء في مطعم أمريكي بأحد أحياء القاهرة الراقية، مازحني أول الأمر بأنه تركي، ولكن طريقة الطهي أمريكية، لم أفهم المزحة، واعتقدت أنه تركي فعلاً، ولم أكتشف أنه أمريكي إلا قرب نهاية الأكل.

أهم ما في الأمر أن «النموذج» الغربي كان حاضرًا بقوة، كأنك صرت في أمريكا بالفعل، كل شيء أمريكي، المأكولات باللغة الإنجليزية، وهكذا يحفظها الزبائن ويطلبونها، يطلبون كوب الماء ومناديل الطعام والمياه الغازية وكل شيء بالإنجليزية، الزبون كائن مقدس منذ دخوله حتى خروجه، هذه الحالة تتلبس الزائر كما تتلبس العاملين، الخطأ البسيط جدًّا يحمله على الاستنكار بكل قوة وإهانة، ويحمل العاملين على الاعتذار من أولهم حتى مدير الوردية، هنا يختفي عالم العرب بكل ما فيه من إنسانية وتراحمية وتواصل طبيعي؛ ليسود النموذج الرأسمالي المتوحش، الذي يجعل مالك المال إلهًا مُطاعًا.

صديقي هذا متدين ملتزم؛ لكنه يلبس هذا «النموذج الحضاري» دون أن يدري، لذلك صَدَمَتْه تعليقاتي أول الأمر؛ لكنه لم يلبث أن اقتنع وغَيَّر من سلوكياته، ووعدني بألا يعود إليها مجدّدًا، وحرصنا طوال فترة التواجد على إشاعة الجو الإنساني التراحمي مع العاملين في محاولة -ولو ضعيفة- للتأكيد على مقاومة هذا النموذج، والاحتفاظ بقيمنا النابعة من ديننا، والسائدة في حياتنا خارج هذه المطاعم، التي تمثل المعسكرات الحقيقة للأعداء، بل هي أشد فتكًا من معسكرات السلاح والقنابل؛ لأن المُستعمَرين يدخلونها عن رضا وطيب خاطر ويتقبلونها، وتتسرب إليهم أفكارها ونظمها وهم لا يشعرون، فما هي إلا مرات معدودة حتى يتحول إلى غربي الهوى والمزاج والميول والعادات.

إن النمط الغربي يتأسس على «مفهوم لا رحمة فيه للعلاقات الإنسانية، قائم على فردانية لا كابح لها، لا تُوَلِّد إلا مجتمعات تزاحم على الأسواق ومواجهات وعنف حيث تَسْتَرِقّ بعض الوحدات الاقتصادية أو السياسية، الوحدات الأضعف أو تبتلعها»(١).

يمكن رصد الكثير من الآثار لسيادة هذا «النموذج الغربي» في بلادنا العربية والإسلامية، لكن ما يخصنا في سياق هذا البحث هو ذلك الأثر الخطير: اختفاء التواصل الإنساني لحساب النموذج المادي، الذي يستتبع تعاظم الروح الفردية على حساب الروح الجماعية، ومن ثم انهيار شعائر مثل الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ ذلك أن العلاقة بينك وبين الآخر علاقة مادية متمثِّلة في مصالح مشتركة خاضعة لبنود أو لوائح أو قوانين صارمة، ولا يجوز التدخل بأكثر من هذا القدر، وإلا فهو اعتداء على الحياة الخاصة للطرف الآخر.

وهذه العلاقة تظل في حالة اتزان ونفع متبادل ما دامت القوى متكافئة، أو ما دامت السلطة قوية وقادرة على إنفاذ القانون بصرامة، أما إذا اختلت هذه الحالة المتزنة فسيبرز للسطح تلك الفكرة الجوهرية؛ وهي «المصلحة المادية»؛ وهي التي تدفع الأقوى لسحق الأضعف بكل عنف ممكن، ما دام يحقق بذلك أقصى منفعة مادية ممكنة.

إن هذه الظاهرة هي العودة الحقيقية للأفكار العميقة، التي أنتجت السياق الغربي، وهي فكرة «الإقطاع» القديم، حيث يسود نمط الخادم – السيد، وللطرف الأقوى حق «استغلال» الطرف الأضعف بما يحقق أقصى منفعة.

ثالثاً: نسب الجريمة بين المدن والقرى

إن أهم الآثار التي تثبت ضرر النزعة الفردية على المجتمعات هو رصد نسبة الجرائم في المناطق التي أصابها التحديث الغربي، مقارنة بالمناطق التي لا تزال الروابط الاجتماعية فيها بخير وعافية، وتعد المقارنة بين المدن والقرى مقارنة ظاهرة

---

(١) رجاء جارودي: وعود الإسلام ص٢٠.

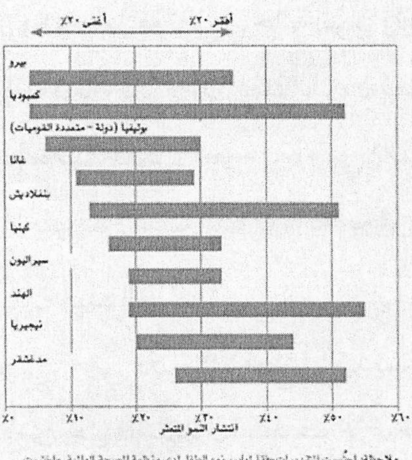
كاشفة، فالمدن هي أكثر المناطق المتعرضة للتحديث الغربي على خلاف القرى والبوادي التي تحتفظ بترابطها الاجتماعي.

وقد أثبتت آخر دراسة للأمم المتحدة حقيقة ازدياد «عدد الأشخاص الذين يعانون من الفقر ونقص التغذية في المناطق الحضرية بسرعة تفوق ما تشهده المناطق الريفية»، وقررت حقيقة أن «الجوع نتيجة واضحة للفشل في الحماية الاجتماعية»، حتى إن المأساة لتبلغ حد أن «يساهم نقص التغذية في أكثر من ثلث وفيات الأطفال دون سن الخامسة في العالم»(١).

وعلى غرار إحصائيات الفقر تأتي إحصائيات الأمن، ولا أقرب على ذلك من مشهد الثورات في بلاد الربيع العربي؛ حيث ينتشر الانفلات الأمني في أحيان كثيرة، فتحظى المدن والمناطق الحضرية بنصيب الأسد من حالات الجرائم والتعدي على الممتلكات؛ وذلك في حين تظل المناطق القروية والبدوية تنعم بعيش هادئ؛ لما في الترابط الاجتماعي من عواصم تمنع المجرمين طوعًا (خوف العار والفضيحة)، أو كرهًا (حيث تكون المواجهة مع عوائل وعشائر لا مع أفراد) من الإفساد في الأرض.

الشكل٢,٢: أطفال الفقراء في المناطق الحضرية أكثر عرضة لنقص التغذية

نسبة الأطفال دون سن ٥ سنوات الذين يعانون من النمو المتعثر (الطرف الأيمن من العمود البياني يشير إلى انتشار النمو المتعثر بين الخمس الأكثر فقرا من سكان المدن، والطرف الأيسر يشير إلى الخمس الأكثر غنى).



ملاحظة: احتُسبت التقديرات وفقا لمعايير نمو الطفل لدى منظمة الصحة العالمية. واختيرت البلدان على أساس توفر البيانات.

المصدر: مسوح الصحة والسكان ٢٠٠٦-٢٠١٠

وعلى غرار الفقر والأمن تأتي معدلات الأخلاق، فلا خلاف على أن أخلاق القرى والبوادي خير منها في المدن والحواضر، وعلى سبيل المثال فقد أثبتت

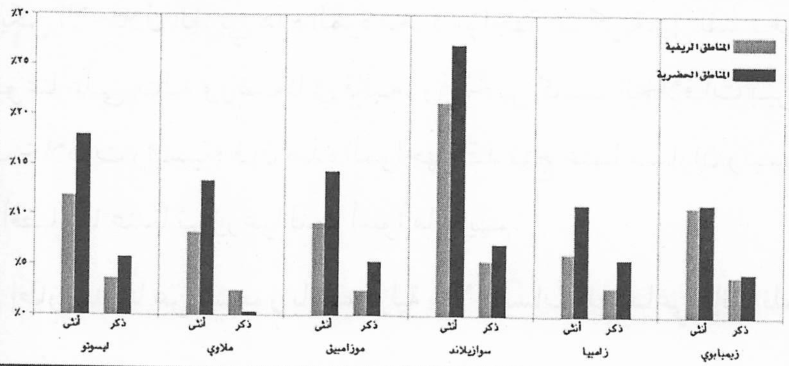
---

(١) يونيسيف: الأطفال في عالم حضري (٢٠١٢م) ص١٩.

إحصائيات الأمم المتحدة أن انتشار مرض الإيدز في المناطق الحضرية أعلى منه في المناطق الريفية، وكان السبب الرئيسي هو ارتكاب الفاحشة، حتى بلغ عدد المصابين به أكثر من مليونين من الشباب بين العاشرة والتاسعة عشر عامًا(١).

الشكل ٢,٤: فيروس نقص المناعة البشرية أكثر شيوعا في المناطق الحضرية وأكثر انتشارا بين الإناث

معدل انتشار فيروس نقص المناعة البشرية بين الشباب والشابات الذين تتراوح أعمارهم بين ١٥- ٢٤ عاما في المناطق الحضرية والريفية، في بلدان مختارة من أفريقيا جنوب الصحراء



إن مناعة المجتمع تتشكل بترابطه وتماسكه، وكلما كانت النزعة الفردية سائدة كانت الأخلاق أدنى والجرائم أعلى، بل كلما سادت النزعة الفردية ترسخ الاستبداد والطغيان، فالسلطة التي تحكم الناس أفرادًا تجترئ على ما لا يمكن لها أن تجترئ عليه لو أنها تحكم الناس عُصَبًا وجماعات وعشائر، بل لعل سيادة النزعة الفردية المؤدية إلى انحلال الأخلاق وانتشار الفسق ومن ثم ترسخ الفرعونية إنما هي تفسير قول الله تعالى عن فرعون: ﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤]

---

(١) يونيسيف: الأطفال في عالم حضري (٢٠١٢م) ص٢٢.

خلاصة الباب الثالث:

لقد دارت الأيام بما قلب ميزان الأمر، إذ تداعى هذا المشهد الإسلامي العظيم عبر عدد من السنين وبأثر عدد من العوامل، لقد صار المسلمون هم الأدنى، وصار أعداؤهم الأعلى، وأمست الدول الإسلامية تحت الاحتلال الغربي.

لم يكن الاحتلال الغربي هذه المرة مجرد مواجهة عسكرية، بل لقد سعى الغرب إلى صوغنا على مثاله ووضعنا في قالبه، وفي حين كانت الخلافات بين الشرق والغرب خلافات رئيسية؛ فإن هذه المواجهة قد نتج عنها مساران رئيسيان: لقد اقتبسوا أفضل ما عندنا ثم زرعوا لدينا أسوأ ما لديهم.

وفي إطار حديثنا عن الشعور بالمسئولية والاحتساب الجماعي فإننا نلمح أهم هذه الأمور:

لقد أخذ الغرب عنا التحرر من سلطتي الكنيسة والإقطاع؛ فصارت الشعوب تستشعر الحرية، ومن ثم تستشعر المسئولية وتسهم في صناعة حضارتها من بعد أن ظلت قيود الكنيسة ونظام الإقطاع يكبلانها عن هذا الانطلاق. وأخذ الغرب عنا تقوية المجتمع، فنشأت النقابات التجارية ثم النقابات المهنية، ثم اقتبسوا نظام الشركات غير القاصدة للربح والمشارِكة في النفع العام، وهذا هو نظام الأوقاف لدينا.

ثم أخذ الغرب عنا صورة المجتمع المتنوع المتعدد القوميات؛ لكنه منسجم في أمة واحدة بثقافة ومبادئ عليا واحدة، فتكتل وتجمع على الرغم من الخلافات ليتكون الاتحاد الأوروبي.

وعبر كل هذه الإجراءات كان استشعار الأوروبي للمسئولية وشعوره بالانتماء يتزايد، ومن ثم كان مجهوده في البناء بل والقتال يتضاعف.

بينما زرع الغرب عندنا القومية البغيضة التي عانى هو منها، فانقسمت الدولة

الإسلامية إلى دول صغيرة تفصل بينها حدود وهمية صنعها المحتل، لكنها صارت حدودًا مقدسة أنشأت عصبيات جديدة حلت محل الانتماء للأمة، ولم يعد المسلم في وطن يرى نفسه مسئولاً عما يقع في وطن آخر، ولو كان على حدوده أحيانًا. كذلك زرع الغرب لدينا «دين العلمانية» و«نظام الدولة المركزية» وبه انْتُزِعت من الأمة مصادر قوتها وفاعليتها، وصار المواطن أسيرًا لدى السلطة تتلاعب به كما تشاء بل وتقهره كما تشاء خداعًا أو عنفًا. ثم زرع الغرب عندنا تلك النزعة الفردية التي تجعل الفرد متحللاً من روابط الأسرة وأواصر المجتمع.

وقد عملت كل هذه المؤثرات على نزع الشعور بالانتماء وإضعاف استشعار المسئولية وانهيار الاحتساب الاجتماعي بين المسلمين.

خاتمة

أراد هذا الكتاب أن يُجلِّيَ الحقيقة التي تقول بأن الفارق الرئيسي بين النظام الإسلام والنظام الغربي هو أن الإسلام يبني المجتمع بحيث يكون قائما على «توازن القوى» فيما تبني الفلسفة الغربية الحالية نظامها على أن تضع القوة كلها في يد طرف محايد يستطيع أن يحكم بين الناس وهو الدولة، وهذا مجرد فرض نظري يكذبه الواقع، لأن الدولة تحولت إلى أخطبوط ضخم وشيطان واسع التأثير يقود مجتمعا خاليا من القوة فكأنما صارت تقود قطيعا من الغنم، إما بالخداع والرغبة (كما في النموذج الرأسمالي) أو بالقهر والرهبة (كما في النموذج الشيوعي). وهو فارق ينبغي أن يكون حاضرا في أذهان المصلحين جميعا، وأولى المصلحين بفهمه هم المجاهدون!

إن الأمة الآن في طور استعادة موقعها الطبيعي بين العالمين، ذلك أن أيام القهر والاستضعاف بدأت في الرحيل، ومن بعد التحرر من المحتلين بدأت الأمة في التحرر من المستبدين.

في كل حركات المقاومة والإصلاح كان الوعي حاضرًا بطبيعة الأمة وهويتها وسبيل نهضتها، وكان الوعي حاضرًا بما يريده الاحتلال من إضعافها وما يسلكه من سبل لإنهاكها وتركيعها:

لقد حرص المصلحون منذ مواجهة الاحتلال على الاعتراف والإقرار والتأييد لسلطان الدولة العثمانية، منذ جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصطفى كامل

ومحمد فريد ومحمد رشيد رضا وسائر زعماء الإصلاح(١) وأقوالهم في هذا الأمر متوحدة متكررة؛ مؤدية إلى المعنى ذاته الذي يقول: إن «ارتباط مصر بالدولة العلية كارتباط الروح بالجسد»(٢).

وما كتبه هؤلاء نثرًا كتبه شوقي وحافظ ومحرم ونسيم والكاشف وغيرهم شعرًا(٣)، وما تزال صيحات وحدة العرب والمسلمين وعودة الخلافة تتجدد في كل وقت وحين، وكم رفع شباب الربيع العربي الصور والهتافات التي تستبشر بقرب اتحاد مصر وليبيا وتونس، ثم اتحاد العرب والمسلمين جميعًا.

وما تزال فكرة الحرية المطلقة المنفلتة من الروابط المجتمعية لا تجد قبولاً في أرضنا، فما زالت بلادنا – لا سيما أطرافها وباديتها وقراها- قبائل وعشائر تحفظ أنسابها وأرحامها واتحادها، وتحفظ أبناءها من كثير من أمراض الغرب وغزوه، ويجد فيها المحتل أشد أنواع المقاومة والصمود.

ما زالت قيم الغرب لا تلقى في بلادنا –بالقياس إلى الجهد الرهيب- إلا نتائج بائسة، وقد وصلت الرسالة للغرب منذ زمن بعيد، وهذا المنظر الاستراتيجي الأمريكي صمويل هنتنجتون يقول: «التحركات من أجل الإحياء الديني معادية للعلمانية، ومعادية للعالمية، ومعادية للحضارة الغربية -أيضًا- فيما عدا تجلياتها المسيحية، كما أنها معارضة للنسبية وللأنانية وللاستهلاكية المرتبطة بما يُطْلِق عليه بروس ب. لورانس(٤) «الحداثة» التي تختلف عن «العصرية»، وبشكل عام فإنهم لا

---

(١) انظر على سبيل المثال: جمال الدين الأفغاني: الآثار الكاملة ٦/ ٢٣٣، محمد عبده: الأعمال الكاملة ١/ ٨٦٤، مصطفى كامل: أوراق مصطفى كامل ١/ ٢٥٤، ومحمد فريد: تاريخ الدولة العلية ص١٩، وفي هذه المراجع مادة غزيرة أخرى.

(٢) محمد رشيد رضا: مجلة المنار ١/ ٤٤١.

(٣) د. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ١/ ٣٩ وما بعدها.

(٤) أستاذ العلوم الإنسانية في جامعة ديوك، وهو خريج جامعة برنستون «عُشّ» الاستشراق الأمريكي.

يرفضون التمدين ولا التصنيع ولا التنمية ولا الرأسمالية(١) ولا العلم ولا التكنولوجيا، ولا ما يعنيه أي من ذلك بالنسبة للمجتمع، وبهذا المعنى فهم ليسوا ضد الجديد، وهم يقبلون «التحديث»... ولكنهم لا يتقبلون فكرة أن يتغربوا... هذه الصحوة ليست رفضًا للحداثة؛ بل هي رفض للغرب والثقافة العلمانية النسبية المتفسخة المرتبطة به، إنها رفض لما يُطلق عليه «التسمم بالغرب» الذي يصيب المجتمعات غير الغربية، وهي إعلان استقلال ثقافي عن الغرب، إعلان كله كبرياء يقول: سنكون حديثين، ولكننا لن نكون أنتم»(٢).

لقد صمدت الأمة طوال قرنين صمودًا غير متوقع، وإنها الآن في طريق الصعود، وإنه لطريق طويل، وإننا أهل له.

في كل مجال أتيح للأمة العمل فيه خاضته الأمة بكفاءة واقتدار، لقد عطل الاستبداد طاقات كثيرة، وأهدر أوقاتًا ثمينة، وكان -من حيث يدري أو لا يدري، ومن حيث يقصد أو لا يقصد- إضافة لعدو الأمة وخصمًا من رصيدها وتعطيلاً لمسيرتها.

وفي السنوات الأخيرة أنعم الله على هذه الأمة بنعمة عظمى ألا وهي الإنترنت، ولقد كان من أهم ما صنعه الإنترنت أن خرج بالأمة من قبضة الدولة المركزية المسيطرة، وأعاد التواصل بين أفرادها وشعوبها جميعًا بلا حدود ولا قيود، فبدأت منه حركة هادرة في العلم والدعوة وفعل الخير وتواصل الكفاءات وإقامة المشاريع.

إن معادلة التكنولوجيا معقدة، صحيح أنها تتيح للسلطة تحكمًا كاملاً في النظام

---

(١) سياق العبارة هنا يؤكد أن الرأسمالية هنا باعتبارها نظامًا اقتصاديًا ماليًا، وليست مذهبًا شاملاً أو رؤية كلية.

(٢) صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات ص١٦٦، ١٦٨.

التقني (system)؛ لكنها في الوقت ذاته تعطي المستخدم صلاحيات واسعة ليكون في موضع الفاعل والمشارك، ولم يتأخر شباب الأمة عن النزول إلى هذه الساحة، ولو شئنا أن نتتبع المراحل بإيجاز فسنجد أهمها:

١. مرحلة المواقع

من هنا بدأ التحرر من الإعلام الرسمي وكسر احتكار المعلومات، لقد صارت وسائل الإعلام لا نهائية ولا محدودة، ولئن كانت الفضائيات قد وَفَّرت للأثرياء نوعًا من هذا التحرر قبل سنوات، فإن الإنترنت وَفَّر هذا لعموم الناس.. لقد كانت هذه هي الخطوة الأولى ليعرف الناس طريق الحقائق كما ترويها الأطراف المختلفة، لا كما ترويها السلطة وحدها.. هذا في حدِّ ذاته نقلة في الوعي هائلة.

٢. مرحلة المنتديات

لئن كانت المواقع قد كسرت احتكار المعلومات؛ فإنها ظلت في موقع التوجيه، وظل الذي يُطالعها في موقع المُتَلقي، فلما جاءت المنتديات الحوارية التفاعلية صار المُتَلَقِّي في موضع الفاعل والمشارك، وهنا التقت الأمة عبر الإنترنت، ورويدًا رويدًا بدأت حركة الشعوب تعمل في صمت في هذا العالم الافتراضي، فمن المنتديات وُلدت مشاريع حضارية هائلة صغيرة وكبيرة وضخمة، تعارف أصحابها عبر المنتديات ومنها انطلقوا، كثيرة جدًّا هي فوائد المنتديات من أهمها: إطلاق المواهب والطاقات التي لم يكن واقعها على الأرض يسمح لها بالظهور أو الفعل، التعارف على الأفكار من أصحابها، والتحاور حولها دون التقيد بالزمان أو المكان، وفي ظني أن الحوار على المنتديات هو أفضل حوار على الإطلاق؛ ذلك أن الحوار يدور حول الفكرة ولا يرى الأشخاص بعضهم بعضًا –لا مجال للمقاطعة– لا مجال لأن يستقل الصغير بنفسه، أو يمارس الكبير وصايته.. لقد أسفرت المنتديات عن أدباء وشعراء وكُتَّابًا وفنانين كثيرين جدًّا، وصاحب هذه السطور لم يكن يدري أنه يجيد الكتابة إلا

بعد أن مارس المنتديات وسمع تشجيعًا ولقي ثناءً وإعجابًا.

لقد صنعت المنتديات للأمة شيئًا عظيمًا لا يعرفه حق المعرفة إلا مَنْ مارسها طويلاً؛ فمنها بدأ صاحب كل موهبة وعلم في التعاون مع أمثاله لتطوير أنفسهم ولتعليم من لا يعلم، مجانًا، دون انتظار أجر، وبدأ صاحب كل طاقة في تسخير طاقته لإدارة الحملات الإعلامية والتنموية والخيرية..

ربما كانت انتفاضة الأقصى الحدث الأول الذي يساهم فيه العرب على الإنترنت، ولا شك أن الجانب الأكبر من الزخم الإعلامي المصاحب لها كان الفضل فيه للمنتديات، التي كانت تنقل الأخبار عبر المشاركين في الانتفاضة أنفسهم، وبالصور والفيديو، فأعطى هذا مادةً هائلةً لوسائل الإعلام ما كان بالإمكان أن تصل إليها.. هذا بخلاف التفاعل الذي انهال عليها من كل أنحاء الأمة، وحملات الضغط الإعلامي، وجمع التبرعات، والتوعية بالقضية ونشرها.. لقد كان الحدث يُدار في الحقيقة عبر المنتديات، وبها تحققت انتقالة نوعية في مستوى الوعي والتعاون بين أفراد الأمة بعيدا عن -بل ورغمًا عن- الحكام الذين اضطروا أن يلاحقوا حركة الشعوب.

وعلى هذا قس ما بعد انتفاضة الأقصى من أحداث، فكل حدث كان أفضل من سابقه؛ إذ تنضج الخبرات القديمة، وتأتي طاقات جديدة بازدياد عدد الداخلين والمشاركين والمتفاعلين في المنتديات، وتكثر المنتديات نفسها وأحيانًا تتحالف، وتشترك في حملات وفاعليات وتديرها معًا.

٣- مرحلة المدونات

ثم جاءت مرحلة المدونات، وأهم ما فيها أنها وفرت الحرية الكاملة لكل شخص في أن يعبر عن نفسه كيفما أراد دون أدنى نوع من الرقابة، لقد كان من عيوب المنتديات أن لها شروطًا تضعها المجموعة التي تدير المنتدى، ويمكنهم حذف

عضوية المشارك وتوقيفه، أو التدخل في مشاركته وتحريرها، وبطبيعة الحال اختلفت مساحة الحرية تبعًا لكل منتدى: توجهه وشروطه ومرونة القائمين عليه. فلما صار لكل إنسان القدرة على إنشاء مدونة له يفعل فيها ما يشاء سقطت كل القيود.

وفي المدونات ظهر التلاقح بين كل الأطياف والأفكار من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، كما ظهرت شخصيات مثلت رموزًا فكرية من الشباب في كل هذه التوجهات؛ فالمدونة أرشيف للكاتب مقالاته وحواراته، وبعدما كان الواحد من هؤلاء تائهًا وسط الآلاف مثله في المنتديات، فإنه صار الآن في وضع خاص؛ كالذي يُزار في بيته على وجه الخصوص ليستفاد منه.

أظهرت المدونات كثيرًا من الفوائد الجمة، إلا أن أهمها على الإطلاق هو أنها ولدت ما عُرف باسم «الصحافة الشعبية»؛ حيث نجح البعض من ذوي الموهبة الصحافية والإعلامية في أن يتفوق على الإعلاميين الرسميين في الموهبة، فوق أنه متميز عنهم بانعدام القيود عليه من قبل المؤسسة الإعلامية، وصارت بعض المدونات مصدرًا أساسيًا للأخبار تنقل عنه وكالات الأنباء العالمية والمؤسسات الإعلامية الكبرى، وبعض هذه المدونات مَثَّل صداعًا دائمًا للسلطات، التي فوجئت بأن فضائحها التي كانت تمارسها في الحارات والأزقة؛ حيث لا تصل إليها العيون قد صارت في لحظات منقولة على المدونات ومنها إلى وكالات الأنباء.

لقد كانت المدونات الخطوة الأولى على طريق قلب المعادلة، وجعل الأمة في مكان الفاعل بينما السلطة في مكان المفعول به وموقع رد الفعل.

٤. شبكات التواصل الاجتماعي

إلا أن ثمة عيبًا في مرحلة المدونات، ذلك هو صعوبة المتابعة، فإذا كنت حريصًا على متابعة أربعين أو خمسين مدوِّنًا فأنت مضطر للدخول في كل يوم -أو أكثر من مرة في اليوم بحسب نشاط صاحبها- إلى كل هذه المدونات، وقد لا تجد جديدًا..

جرت عدد من المحاولات للتغلب على هذه المشكلة؛ مثل المجمعات التدوينية، وبرامج قراءة المغذيات (feed) وغيرها.. إلا أن الثورة الكبرى التي عالجت هذه المشكلة، وأضافت إليها ميزات جديدة كانت في ظهور شبكات التواصل الاجتماعي، لا سيما الفيس بوك (facebook)، والتويتر (twitter)، بالإضافة إلى اليوتيوب (youtube)، فبإمكانك أن تتابع مئات وآلاف الأشخاص عبر هذه الشبكات.

إن استشعار الشباب للمسئولية جعلهم فرسانًا في اقتناص الفرص، وقد صدق أحدهم حين قال: لقد تحولت شبكات التواصل الاجتماعي في العالم العربي إلى شبكات تواصل سياسي، ولمرة أخرى كانت الأمة على مستوى المسئولية تمامًا، فعبر هذه الشبكات تم تنظيم كل ما يمكن تنظيمه من فعاليات: سياسية واقتصادية وخيرية ودعوية، وفيها تم نشر المقالات والتصميمات الفنية ومقاطع الصوت والفيديو، وصارت هذه الشبكات عقبة حقيقية أمام الحكومات الاستبدادية، فهي توفر مناخًا ممتازًا لنشر فضائحها ولتنظيم الفعاليات ضدها..

لقد تحولت السلطات إلى موقع رد الفعل، واضطرت في كثير من الأحيان إلى حجب المواقع والصفحات؛ بل إلى قطع خدمة الإنترنت كلها كما حدث في الثورة المصرية، التي تم تحضير شرارتها على شبكات التواصل الاجتماعي.

ولا يقتصر الأمر على هذا الوجه السياسي، بل إن خلفه كتائب أخرى عاملة في الساحات العلمية؛ فالآن صار لكل العلماء والشيوخ وطلبة العلم وشباب الدعاة مواقع على الإنترنت وصفحات على الشبكات الاجتماعية، وشهد الإنترنت حركة تصوير هائلة لأطنان الكتب؛ فصار على جهاز طالب العلم عشرات الآلاف من المجلدات التي لم يكن ليراها ولا ليسمع بها لولا الإنترنت، وتقدمت الأبحاث تقدمًا كبيرًا بما تم ضخه من مصادر ومراجع ومخطوطات، وتبادل طلبة العلم الأبحاث ورسائل الماجستير والدكتوراه عبر الإنترنت، وأفادوا واستفادوا، وصار فقراء

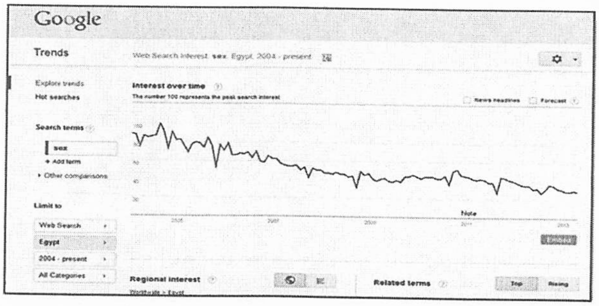
الباحثين كأغنيائهم تقريبًا، يملكون الحصول على مئات الآلاف من الكتب، وقد يطلب واحد في الهند كتابًا فيصوره له واحد في المغرب ويرسله عبر الإنترنت؛ فيستفيد منه طلبة العلم في المشارق والمغارب.

إن خيار هذه الأمة كانوا الأكثر انتفاعًا بنعمة الإنترنت.. لقد وضع الإنترنت كل مسلم أمام مسئوليته الحقيقية في أن يفعل ويتحرك وينتج، وقد كان.

لقد وضع الإنترنت الأمة في موضع الفعل، وهيأ لها سبلاً لم تكن متوقعة.. فمن هنا نقول: إن الأيام دارت دورتها، وإن الأمة الآن في طريقها لتَسَلُّم زمام نفسها وقيادة نهضتها وإبداع حضارتها من جديد.

في بلدان الربيع العربي الآن موجات من الحركة الحضارية الفاعلة التي تقوم على أكتاف الشباب؛ لقد تأسست مئات الجمعيات وانطلقت آلاف المبادرات، وتشكلت عشرات الآلاف من المجموعات التي تعمل في كل مجال: من رعاية الفقراء حتى تنظيف الطرق، ومن إنشاء المؤتمرات الكبرى حتى الوقوف على أوائل الطرقات للدعوة إلى الله، وفي مصر على سبيل المثال لا أكاد أعرف شابًّا كنت ألمح فيه الصدق في إرادة الخير إلا وأراه الآن منخرطًا في عمل واثنين وثلاثة.

وتكشف الأرقام والإحصائيات عن تغير الاهتمام لدى المصريين، فهذه الصورة مأخوذة من موقع «google trend» في إبريل ٢٠١٣م، تظهر انخفاض البحث عن كلمة «جنس» في مصر بهذا المعدل الظاهر.



إن كل الأبحاث والدراسات المستقبلية ناطقة بالمستقبل الإسلامي؛ فمنها شقي وسعيد، منها مَنْ يتخوَّف ويبحث في سبل مواجهة هذه الكارثة ومنها مَنْ يطمئن ويستبشر.

إن الأمة تنبعث من جديد وتتجه إلى غايتها، ومهما كانت التحديات عظيمة والطريق طويل فإن الأمة وشبابها -على وجه الخصوص- أهل لكل جليلة.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

الملحقات

- مقال عن: أخلاق المسلمين بأقلام المؤرخين الغربيين
- مقال الشيخ محمد عبده: آثار محمد علي في مصر

مقال

أخلاق المسلمين بأقلام المؤرخين الغربيين

لا يكاد المرء يدرك قيمة أن هذه الأمة هي «خير أمة أخرجت للناس» قدر ما يدركه حين يقرأ في كتب المستشرقين – لا سيما من أنصفوا– وفي كتب الرحالة الغربيين، فالقوم يدركون مما عندنا أشياء لا ننتبه نحن لها للاعتياد عليها، كما أن أبصارنا وأبصار المصلحين فيمن قبلنا تتجه إلى العيوب والمساوئ لإصلاحها، فيقل الشعور العام بأن أمتنا –خصوصا في أوقات ازدهارها– إنما كانت فردوس الأرض في عين الآخرين.

والمادة المكتوبة في هذا الموضوع غزيرة جدا، وقد كُتِب فيها بحوث كثيرة، ولهذا التقطنا من بينها تنويعات بين العصور، وتنويعات في وجوه الأخلاق، وتنويعات من الكتب أيضا[1].

◉العدل والمساواة:

قال الأديب والفيلسوف البريطاني الشهير توماس كارلايل: «في الإسلام خُلَّةٌ أراها من أشرف الخلال وأجلها، وهي التسوية بين الناس، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأي، فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض، والناس في الإسلام سواء، والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم، وقاعدة من قواعد الإسلام، ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل، فتكون جزءا من أربعين من الثروة، تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين، جميل

(١) ونحن نوصي ونرجو أن يرجع القارئ الكريم إلى هذه الكتب (وجلها أصبح متوفرا على الانترنت بالمجان) وليقرأ في سيرة أجداده وكيف كانت حضارتهم رحمة للعالمين.

والله كل هذا، وما هو إلا صوت الإنسانية، صوت الرحمة والإخاء والمساواة، يصيح من فؤاد ذلك الرجل محمد، ابن القفار والصحراء»[١].

◉ فضائل المسلمين:

ذلك ما يشهد به المفكر والقانوني الفرنسي دومينيك سورديل في استعراضه لأخلاق المسلمين، يقول: «لا يمكن إنكار أن الإسلام مارس فضائل حقيقية وخاصة منها الفضائل الاجتماعية، وهي استجابة لنداءات القرآن، نعثر فيها على أساليب تضيف إلى وصايا الله، وتبدو كأنها استمرار للبر؛ وذلك كما تحدد الآية الرائعة التالية: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

فالتعاون وحسن الضيافة والكرم والأمانة للالتزامات -التي تؤخذ تجاه أعضاء المجتمع والاعتدال في الرغبات والقناعة- تلك هي الفضائل التي لا تزال تميز المسلمين، وهي مثالية حقيقية[٢]، تريد أن ترتقي بقوى الطبيعة البشرية، والتي تكفي لإعطائهم عزة نفس وكرامة كان يجهلها عرب الجاهلية»[٣].

وقال مؤرخ الحضارة ول ديورانت: «ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى من المسيحي في خلقه التجاري، وفي وفائه بوعده، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع

---

(١) توماس كارلايل: الأبطال ص٨٠.

(٢) كلمة «مثالية» في الذهن الغربي تكون بمعنى خيالية أو أسطورية أو غير حقيقية أو لا يمكن تحقيقها.. فهو هنا يؤكد على أن هذه الفضائل التي تبدو كأساطير قد تحققت في المسلمين فعلا.

(٣) دومينيك سورديل: الإسلام ص١٠٧.

غيره، ولقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية. والمسلمون شرفاء فيما يختص بعادة الكذب، فهم يبيحون الكذب إذا كان فيه نجاة من الموت، أو حسم لخصومة، أو إدخال السرور على زوجة، أو خدعة في الحرب لأعداء الدين.

والآداب الإسلامية تجمع بين التكلف والبشاشة، وحديث المسلم مليء بالتحية والمبالغة في التأدب، والمسلمون كاليهود يحيي بعضهم بعضا، وينحني الواحد منهم لصاحبه ويصافحه، ويقول له: السلام عليكم. والرد الصحيح لهذه التحية: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته. وإكرام الضيف من صفاتهم العامة... المألوف أن المسلم كان مثال الرقة، والإنسانية، والتسامح، وكان -إذا وصفنا أواسط الناس- سريع الفهم، حاد الذكاء، سريع التهيج، يسهل إدخال السرور إلى قلبه، والمرح على نفسه؛ يجد الرضا في البساطة، ويصبر على بلواه في هدوء، ويتلقى جميع حوادث الأيام بصبر، وكرامة، وشمم، وكبرياء»[(١)].

◉ رحمة المسلمين بالمنكوبين:

ربما تكون حقبة الحروب الصليبية ثاني أكثر حقبة شهدت إسلام المحاربين بعد حقبة الفتوح الإسلامية، وقد سجَّل المستشرق الإنجليزي الشهير توماس أرنولد في كتابه العديد من أخبار التحول للإسلام من بين صفوف الصليبيين الذين قدموا إلى الشرق أصلا لحرب المسلمين، إذ لم يجد هؤلاء بعد آلام الحرب من يحنو ويعطف عليهم إلا في معسكر المسلمين، فأسلم كثيرون منهم، وسجل ذلك كافة الغربيين الذين ذهبوا إلى الشرق حينئذ، حتى لم يعد من حلٍّ أمام هذه الظاهرة إلا أن أرسل القدِّيس أموري دي لاروش، وكان رئيس فرسان المعبد، إلى أوروبا (٦٦٤هـ = ١٢٦٦م) يلتمس من البابا ونوابه في فرنسا وصقلية أن يمنعوا «الفقراء والشيوخ

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٣/ ١٤١ وما بعدها.

والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما للقتل أو الأسر أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم»، وحتى من لم يدخل في الإسلام منهم آثر أن يبقى في بلاد المسلمين وتحت ظلهم ورعايتهم، فقد كانوا «راضين كل الرضا عن سادتهم الجدد»[1].

وتسجل المستشرقة الألمانية زيجريد هونكه وثيقة مهمة كتبها أسير صليبي للملك الكامل الأيوبي بعد المعاملة الكريمة منه للأسرى من بعد ما كان منهم من إجرام في دمياط، تقول هونكه: «لما انتصر السلطان الكامل على هذه الحملة سنة (١٢٢١م) أكرم أسراهم، ولم يقتص منهم: العين بالعين، والسن بالسن، وإنما أطعمهم في مسغبة أربعة أيام طوالا، مرسلا إلى جيوشهم المتضورة جوعا كل يوم ثلاثين ألف رغيف، ومواد غذائية أخرى، وشهد بهذا الإكرام أحد هؤلاء الأسرى - عالم الفلسفة اللاهوتية أوليفروس من كولونيا نهر الراين بألمانيا - فكتب يقول للملك الكامل:

منذ تقادم العهود لم يسمع المرء بمثل هذا الترفق والجود، خاصة إزاء أسرى العدو اللدود، ولما شاء الله أن نكون أسراك، لم نعرفك مستبدا طاغية، ولا سيدا داهية، وإنما عرفناك أبا رحيما، شملنا بالإحسان والطيبات، وعوننا منقذا في كل النوائب والملمات، ومن ذا الذي يمكن أن يشك لحظة في أن مثل هذا الجود والتسامح والرحمة من عند الله. إن الرجال الذين قتلنا آباءهم وأبناءهم وبناتهم وإخوانهم وأخواتهم، وأذقناهم مر العذاب، لما غدونا أسراهم، وكدنا نموت جوعا، راحوا يؤثروننا على أنفسهم على ما بها من خصاصة، وأسدوا إلينا كل ما استطاعوا من إحسان، بينما كنا تحت رحمتهم لا حول لنا ولا سلطان»[2].

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٠٨ وما بعدها.

(٢) زيجريد هونكه: الله ليس كذلك ص٣٣.

معاملة المسلمين لغير المسلمين:

هذه النقطة تحديدا أفاضت فيها كل المراجع التي تحدثت عن المسلمين، إذ كان هذا الموضوع من أظهر وأوضح الفروقات بين مجتمع المسلمين وغيرهم من المجتمعات، وقد أخذنا ثلاث مقتبسات فحسب من بين آلاف الصفحات المكتوبة في هذا الموضوع:

١. يقول هنري دي كاستري -الكاتب والعسكري الفرنسي الذي خدم في الجزائر- والذي قال: «أنا قد قرأت التاريخ، وكان رأيي -بعد ذلك- أن معاملة المسلمين للمسحيين تدل على ترفع عن الغلظة في المعاشرة، وعلى حسن مسايرة، ولطف مجاملة، وهو إحساس لم يشاهد في غير المسلمين إذا ذاك، وخصوصا أن الشفقة والحنان كان عنوان الضعف عند الأوربيين، وهذه الحقيقة لا أرى وجها للطعن فيها على وجه العموم»[١].

٢. ولقد كان لهذا أثر كبير كما يقول المستشرق الألماني آدم ميتز: «وجود النصارى بين المسلمين كان سببا لظهور مبادئ التسامح، التي ينادي بها المصلحون المحدثون، وكانت الحاجة إلى المعيشة المشتركة -وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق- مما أوجد من أول الأمر نوعا من التسامح، الذي لم يكن معروفا في أوربا في العصور الوسطى، ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي دراسة الملل والنحل على اختلافها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم»[٢].

ولهذا فضَّل كثير من غير المسلمين الحكم الإسلامي على حكم طغاتهم، ومن كان مضطهدا في بلده هرع هاربا إلى بلاد المسلمين، يقول المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون: «في إيطاليا عبرت كثير من الأقاليم لحكوماتها المستبدة عن أنها

---

(١) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح ص٧٩.

(٢) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ١/ ٦١.

ترحب من كل قلبها بغزو تركي مثلما فعل بعض البلقانيين المسيحيين»، ولقد «لجأ أتباع مذهب (كالفن) (١٥٠٩ - ١٥٦٤م) في هنغاريا وترنسلفانيا، وبروتسنت سيليزيا، وقدماء المؤمنين من قفقاس روسيا إلى تركيا، أو تطلعوا إلى الباب العالي في هروبهم من الاضطهاد الكاثوليكي أو الأرثوذكسي، وذلك مثلما فعل اليهود الإسبانيون قبل ذلك بقرنين»[١].

◉ المسلمون والرفق بالحيوان:

يقول المستشرق الفرنسي المعروف جوستاف لوبون: «يُعامل الشرقيون الكلاب وجميع الحيوانات برفق عظيم، ولا ترى عربيًّا يؤذي حيوانًا، وإيذاء الحيوان من عادة سائقي العربات في أوربا، وليس من الضروري -إذن- أن يؤلف العرب جمعيات رفق بالحيوان، والحق إن الشرق جنة الحيوانات، وفي الشرق تُراعى الحيوانات الكلاب والهررة والطيور... وتحلق الطيور في المساجد، وتوكِّر في أطنافها مطمئنة، وتأوي الكراكيُّ إلى الحقول من غير أن تُؤذى، ولا تجد صبيًّا يمسُّ وكنًا، وقد قيل لي في القاهرة بصيغة التوكيد -وهذا يدل على ما ذكره بعض المؤلفين- إن في القاهرة مسجدًا تأتيه الهررة في ساعات معينة لتتناول طعامها وفق شروط أحد الواقفين منذ زمن طويل، وجزئيات كتلك تدلُّ على طبائع الأمة، وتدلُّ على درجة افتقار الأوربيين إلى تعلم الشيء الكثير من حلم الشرقيين وأُنسهم»[٢].

◉ أسف وحسرة!:

ويتحسر جوستاف لوبون على أن المسلمين هُزِموا أمام شارل مارتل في معركة بلاط الشهداء، ويردّ على من يعتبر هذا إنقاذا للبشريةَ بقوله «النفرض جدلا أن

---

(١) مكسيم رودنسون: الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية، ضمن «تراث الإسلام» بإشراف شاخت وبوزوروث ص٤٩، ٥٥.

(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣٦٠، ٣٦١.

النصارى عجزوا عن دحر العرب، وأن العرب وجدوا جوّ شمال فرنسا غير بارد ولا ماطر كجو إسبانيا، ، فطابت لهم الإقامة الدائمة به، فماذا كان يصيب أوربا؟ كان يصيب أوربا النصرانية المتبربرة مثل ما أصاب إسبانيا من الحضارة الزاهرة تحت راية النبي العربي، وكان لا يحدث في أوربا التي تكون قد هذبت ما حدث فيها من الكبائر كالحروب الدينية، وملحمة سان بارتملي، ومظالم محاكم التفتيش وكل ما لم يعرفه المسلمون من الوقائع الخطيرة التي ضرجت أوربا بالدماء عدة قرون»[1].

ومثله يرى الكولونيل البريطاني رونالد بودلي –وهو الذي تغيرت حياته لما عاش بين البدو المغاربة فأحبهم وأثنى عليهم وألف كتابا في سيرة النبي– أنها مأساة لكنه يرى أن الأوروبيين قوما معقدين، ولهذا لم يكن لينتشر بينهم الإسلام، يقول: «ما كانت أوربا لتعتنق الإسلام لو أن شارل مارتل قد هزم في تور (مدينة قريبة من موقع معركة بلاط الشهداء)، فهذا الدين يوائم أناسًا غير معقدين؛ أناسا أرواحهم قريبة من الطبيعة، والعرب حقا غير معقدين، وكان محمد غير معقد»، أما المسلمون فقد «كانوا كالغيث الذي يخصب المكان الذي ينزل فيه»[2].

* * *

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٣١٧.

(٢) رونالد فيكتور بودلي: الرسول ص١٤٧، ٣٤٠.

مقال الشيخ محمد عبده

آثار محمد علي في مصر(١)

لغط الناس هذه الأيام في محمد علي وما له من الآثار في مصر وأهلها وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك والله أعلم ماذا بعث المادح على الإطراء، وماذا حمل القادح على الهجاء غير أنه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد إليه لو بقيت.

وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي. أذكر الآن شيئًا في ذلك ينتفع به من عساه ينتفع، ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع، كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنساوى فيها من أنواع الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الأشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الالتزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الإقطاع ، وأساس هذا النوع من الحكومة تقسيم البلاد بين جماعة من الأمراء يملك كل أمير منهم قسمًا يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما يريد فهو حاكمهم السياسي والإداري والقضائي وسيدهم المالك لرقابهم.

ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتغلظ فيه أصول الاستبداد وفروعه وتنزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على ما في يد جاره من

---

(١) آثار محمد علي في مصر، مجلة المنار ٥/ ١٧٥ وما بعدها، وانظر: الأعمال الكاملة للأستاذ الإمام، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م. ١/ ٨٥١. (وقد نُشر المقال في مجلة المنار بقلم «مؤرخ» دون ذكر اسم الشيخ).

الأمراء. فكان من مقتضى الطبيعة أن كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكير فيما تعظم فيه شوكته، وما يدفع به عن حوزته، وأن يكون الجميع دائمًا في استعداد إما للوثوب وإما للدفاع. ولكن الأمراء في مجموعتهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستمالتهم ومجابهة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم حاجة الأمراء إلى المال كانت تسوقهم إلى ظلم رعاياهم وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم. ظهر ذلك في خصوماتهم المرة بعد المرة فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم وأن يتخذوا لهم من الأهلين أنصارًا يضبطون عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم.

أحسَّ الأهلون بحاجة الأمراء إليهم فزادوا في الدالة على الأمراء واضطروهم إلى قبول مطالبهم فعظمت قوة الإرادة عند أولئك الذين كانوا عبيدًا بمقتضى الحكومة وانتهى بهم الأمر أن قيدوا الأمراء والملوك معًا ولم يكن ذلك في يوم أو عام، ولكنه في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة.

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية وكانت البلاد متوزعة بين عدة أمراء كل منهم يستغل قسمًا منها ويتصرف فيه كما يهوى، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له يده إلى ما في يد الآخر أو يدفع به صولته فالخصام كان دأبهم والحرب كانت أهم عملهم. لذلك كان كل منهم يستكثر من المماليك ما استطاع ليعد منهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم إذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزابًا كما وجدوا منهم خصومًا.

ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون إليه فاتخذوا بيوتًا منها أنصارًا لهم عند الحاجة وعرف هؤلاء حاجة الأمراء إليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك. لهذا كنت ترى في البلاد بيوتًا كبيرة لها

رؤساء يعظم نفوذهم ويعلو جاههم.

ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير واستجلاب النصير، وإعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما في يده والتمكن من إخضاع غيره، أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفًا من تعدي أعوان خصمه عليهم فوقعت القسمة بين الأهالي ولا تزال أسماء الأقسام معرفة إلى اليوم - سعد وحرام، هذا يحدث بطبعه في النفوس شممًا وفي العزائم من قوة ويكتسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية مهما احترقت نوعها. فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته.

جاء الجيش الفرنساوى والبلاد في هذه الحالة. دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها، احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها. لم تكن أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق وعظمت حوله القلاقل ولم تنقطع الحروب والمناوشات ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال. يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطياد العربان لعساكره من كل طريق، وسلبهم أرواحهم بكل سبيل، واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها وانتخب من أعيانها من يشركه في الرأي لتدبيرها طوعًا لحكم الطبيعة التي وجدها.

قتل بعض رؤساء الجيش واضطربت عليه البلاد، وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الإنكليزي وخرجت عساكر الفرنساويين من مصر، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر.

ما الذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الأحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده. وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية

ويرتفع الحجاب الذي أسدله الجهل دونهم. أو كانت تنتظر أن يأتي أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضه إلى بعض ويؤلف منها أمة تحكمها حكومة منها ويأخذها منها ويأخذ في تقوية مصباح العلم حتى ترتقي بحكم التدريج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولي.

◉ ما الذي صنع محمد علي؟

لم يستطع أن يحيي ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفِطرة فأخذ يستعين بالجيش وبمَن يستميله من الأحزاب على إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على مَن كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدَع منها رأسًا يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفُس بعض أفرادها فلم يبقِ في البلاد رأسًا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويعليهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه على أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يُبقِ في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة وعلى أي وجه فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطبيعية من رأي وعزيمة واستقلال نفس ليصيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده على أثر إقطاعات كثيرة كانت لأمراء عدة.

◉ ماذا صنع بعد ذلك؟

اشرأبت نفسه لأنْ يكون ملكًا غير تابع للسلطان العثماني فجعل من العُدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الامتياز

خارجًا عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكًا من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما فعل.

وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرم منها وانقلب الوطني غريبًا في داره، غير مطمئن في قراره، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان: ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة.

قالوا: إنه طلع نجم العلم في سماء البلاد. نعم عني بالطب لأجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الأحيان عندما يراد إيقاع الظلم بمتهم. وبالهندسة لأجل حتى يدبر مياه النيل بعض التدبير، ليستغل إقطاعه الكبير. هل تَفكر يومًا في إصلاح اللغة عربية أو تركية أو أرنؤدية؟ هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدِّين أو الأدب؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأيًا في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الأقاليم؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل؟

لم يكن شيء من ذلك بل كان رجال الحكومة إما من الأرنؤد أو الجراكسة أو الأرمن المورلية أو ما أشبه هذه الأوشاب، وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دُخلاء. وكانوا يحكمون بما يهوون لا يرجعون إلى شريعة ولا قانون، وإنما يبتغون مرضاة الأمير صاحب الإقطاع الكبير.

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة؟ أين البيوت المصرية التي كانت لها القَدَم السابقة في إدارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندها مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة العماد الثابتة الأوتاد.

أرسل جماعة من طلاب العلم إلى أوربا ليتعلموا فيها. فهل أطلق لهم الحرية أن

يثوا في البلاد ما استفادوا؟

كلا ولكنه استعملهم آلات تصنع له ما يريد وليس لها إرادة فيما تصنع. وُجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل، ووجد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير، والسبب في ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا إلى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطًا على المهندس عند رسم ما يلزم من الأعمال ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج فظهر أثر استقلال الإرادة في الصناعة عند أولئك النفر القليل من النابغين، وكان ذلك مما لا تخشى عاقبته على المستبدين.

هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية؟ أين هي؟ وأين الذين نبغوا من طلابها؟ فإن وُجد أحد نابغ، فهل هو من المصريين؟ عدوا إن شئتم أحياءً أو أمواتًا.

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والأدب ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وغلقت عليها الأبواب إلى أواخر عهد إسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفريغ المخازن منها، وتخفيف ثقلها عنها، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول، وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا؛ لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون.

كانوا يختطفون تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القرى[1] كما يختطفون عساكر الجيش، فهل هذا مما يحبب القوم في العلم ويرغبهم في إرسال أولادهم إلى المدارس؟ لا بل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش.

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات، ولذلك كانوا يهربون من ملك الأطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر، والموت الأحمر. وقوانين الحكومة

(١) أفناء: أي مجهولون

لذلك العهد تشهد بذلك.

يقولون: إنه أنشأ المعامل والمصانع! ولكن هل حبب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد؟ أين هي؟ ومن كانوا؟ وأين آثارهم؟

لا بل بغّض إلى المصريين العمل والصنعة بتخسيرهم في العمل والاستبداد بثمرته فكانوا يتربصون يومًا لا يعاقبون فيه على هجر المعمل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه، لاعنين الساعة التي جاءت بهم إليه.

يقولون: إنه أنشأ جيشًا كبيرًا فتح به الممالك ودوخ به الملوك وأنشأ أسطولاً ضخمًا تُثقل به ظهور البحار، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار. فهل علَّم المصريين حب التجنيد، وأنشأ فيهم الرغبة في الفتح والغلب وحبب إليهم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها؟

لا بل علمهم الهروب منها وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء ويحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم المماليك وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرر مصر لا يخرج منها إلا بالموت. هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك إليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله؟ كلا لم يكن شيء من ذلك، فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عونًا لظالمه فهي قوة خصمه. كذلك كان يعدها كل عثماني في مصر أو في غير مصر.

ليقل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية إلى رتبة البكباشي على الأقل؟

فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر، كله شر في شر؛ لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت.

ظهر الأثر العظيم عندما جاء الإنكليز لإخماد ثورة عرابي. دخل الإنكليز مصر بأسهل ما يدخل به دامر على قوم، ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها، وهو ضد ما رأيناه عند دخول الفرنساويين إلى مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير وجهله الأحداث، فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون إليه.

لا يستحيي بعض الأحداث مِن أن يقول: إن محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدِّين، أيُّ دين كان دعامة لسلطان محمد علي؟

دين التحصيل، دين الكرباج. دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده.

وإلا فليقُل لنا أحد من الناس: أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامي الجليل؟

لا يذكرون إلا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين، نعم إن الوهابية غلوا في بعض المسائل غلوًّا أنكره عليهم سائر المسلمين، وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لإرجاعهم إلى الاعتدال وإنما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني فكان معه ما كان مما هو معروف.

نعم: أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى فائض رزنامه لا يساوي جزءًا من الألف من إيراده. وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة.

وقصارى أمره في الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخِلَع أو إجلاسهم على الموائد لينفي من يريد منهم إذا اقتضت الحال ذلك، وأفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ماتوا عليه.

ولا أظن أن أحدًا يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجرًا زارعًا وجنديًا باسلاً. ومستبدًّا ماهرًا لكنه لمصر قاهرًا، ولحياتها الحقيقية معدمًا، وكل ما نراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره متعنا الله بخيره وحمانا من شره والسلام.

المراجع والمصادر

المراجع والمصادر

١. إبراهيم العلي: صحيح السيرة النبوية، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ١٩٩٥م.

٢. ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن، الهند، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣. ابن أبي حاتم: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الثالثة،١٤١٩هـ.

٤. ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٥. ابن نجيم الحنفي: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، دار المعرفة - بيروت.

٦. ابن تيمية: اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

٧. ابن تيمية: الاستقامة، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣.

٨. ابن تيمية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

٩. ابن تيمية: جامع المسائل، تحقيق : محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

١٠. ابن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤١٦ه = ١٩٩٥م.

١١. ابن حجر: تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.

١٢. ابن حجر: فتح الباري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٧٩ه.

١٣. ابن حزم: المحلى بالآثار، دار الفكر، بيروت، لبنان.

١٤. ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١٥. ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان.

١٦. ابن داود الحنبلي: الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق: د. مصطفى عثمان صميدة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

١٧. ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٨. ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

١٩. ابن شبة: تاريخ المدينة، تحقيق: محمد فهيم شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد - جدة، ١٣٩٩هـ.

٢٠. ابن عابدين: حاشية رد المحتار على الدر المختار، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، ١٤٢١هـ=٢٠٠٠م.

٢١. ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢٢. ابن عبد البر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، مؤسسة القرطبة.

٢٣. ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٢٤. ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٥. ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٢٦. ابن قدامة المقدسي، أبو الفرج شمس الدين عبد الرحمن بن محمد بن أحمد: الشرح الكبير على متن المقنع، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع.

٢٧. ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

٢٨. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

٢٩. ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت.

٣٠. ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، دار الكتب العلمية - بيروت.

٣١. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٧م.

٣٢. ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ = ١٩٥٥م.

٣٣. أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

٣٤. أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٦م.

٣٥. أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، صححه وعلق عليه : محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

٣٦. أبو يعلى: مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

٣٧. الآبي: الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.

٣٨. أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة.

٣٩. أحمد عادل كمال: الطريق إلى المدائن، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٤٠. أحمد منصور: أحمد ياسين شاهد على عصر الانتفاضة الفلسطينية، كتاب الجزيرة، ٢٠٠٤م.

٤١. آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة.

٤٢. إدوار بروي: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف داغر وأسعد داغر، منشورات عويدات، الطبعة الثانية - بيروت - باريس، ١٩٨٦م.

٤٣. أرنولد توينبي: مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، المركز القومي للترجمة، ٢٠١١م.

٤٤. الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٤٥. أكرم العمري: عصر الخلافة الراشدة .. محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين، مكتبة العبيكان.

٤٦. الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م.

٤٧. الألباني: السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض

٤٨. الألباني: صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، الناشر: دار الصديق، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٩. الألباني: صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الخامسة.

٥٠. الألباني: صحيح السيرة النبوية، الطبعة الأولى، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.

٥١. الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.

٥٢. أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها .. المسيحيون والمسلمون واليهود، ترجمة: علي إبراهيم منوفي، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٥٣. إميل برهييه: إيميل برهييه: تاريخ الفلسفة، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت لبنان.

٥٤. أنتوني بلاك: الغرب والإسلام، ترجمة: د. فؤاد عبد المطلب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٩٤.

٥٥. أولريش شيفر: انهيار الرأسمالية، ترجمة: د. عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٧١.

٥٦. بحوث مؤتمر الأوقاف الأول، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٢٢هـ.

٥٧. البخاري: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ = ١٩٨٩م.

٥٨. البخاري: الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

٥٩. بدوي محمود الشيخ: قضايا البيئة من منظور إسلامي، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

٦٠. برتراند رسل: تاريخ الفلسفة الغربية، ترجمة: د. زكي نجيب محمود، د. محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٢م.

٦١. برتراند رسل: حكمة الغرب (ج١)، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٦٤.

٦٢. برتراند رسل: حكمة الغرب (ج٢)، ترجمة: د. فؤاد زكريا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٦٥.

٦٣. البغوي: معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٦٤. البهوتي: كشاف القناع عن متن الإقناع، تحقيق هلال مصيلحي مصطفى هلال، دار الفكر - بيروت، ١٤٠٢هـ.

٦٥. البيضاوي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٦. البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٦٧. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٦٨. مجموعة: تراث الإسلام، بإشراف جوزيف شاخت، وكليفورد بوزوروث، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٢.

٦٩. الترمذي: الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٠. الترمذي: مختصر الشمائل النبوية، تحقيق واختصار: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.

٧١. تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٩

٧٢. تقرير التنمية الإنسانية لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي ٢٠٠٧م.

٧٣. توفيق الشاوي: سيادة الشريعة الإسلامية، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧.

٧٤. توماس أرنولد وآخرون: تراث الإسلام، تعريب جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.

٧٥. توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٠م.

٧٦. توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، سلسلة ذاكرة الكتابة (١٠١)، وزارة الثقافة، القاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٩م.

٧٧. توماس مور: يوتوبيا، ترجمة: د. إنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

٧٨. جان بيار لوفيفر وبيار ماشيري: هيجل والمجتمع، ترجمة: منصور القاضي، المؤسسة الجامعية، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

٧٩. جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة: السيد محمد عثمان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، سبتمبر ١٩٩٤م.

٨٠. الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت.

٨١. الجرجاني: التعريفات، تحقيق : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٨٢. جريدة القبس الكويتية ١، ٤/ ٣/ ٢٠١٣

٨٣. جريدة مصريات ٧/ ٨/ ٢٠٠٩

٨٤. الجصاص: أحكام القرآن، تحقيق محمد الصادق قمحاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ.

٨٥. جمال الدين الأفغاني: الآثار الكاملة، جمع وتحقيق: سيد هادي خسروشاهي، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٨٦. جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.

٨٧. جون بركنز: الاغتيال الاقتصادي للأمم، ترجمة: مصطفى الطناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠١٠م.

٨٨. جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٩.

٨٩. حاكم المطيري: الحرية أو الطوفان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٨م.

٩٠. الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩٠م.

٩١. حسين مؤنس: الإسلام الفاتح، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٧م.

٩٢. حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ = ١٩٩٧م.

٩٣. خالد بن عثمان السبت: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٥م.

٩٤. خان زاده: منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، الطبعة الهندية القديمة، محمود بك مطبعة يي، ١٣٢٨هـ.

٩٥. الخطابي: معالم السنن، الناشر: المطبعة العلمية، حلب، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م.

٩٦. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٩٧. الخطيب التبريزي: مشكاة المصابيح، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

٩٨. الخلال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تحقيق: الدكتور يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

٩٩. دومينيك سورديل: الإسلام، العقيدة .. السياسة .. الحضارة، ترجمة: د. علي مقلد، دار التنوير، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.

١٠٠. ديفيد جونستون: مختصر تاريخ العدالة، ترجمة: مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٨٧.

١٠١. الذهبي: سير أعلام النبلاء تحقيق: مجموعة بإشراف شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥ هـ= ١٩٨٥ م.

١٠٢. ر. ف. بودلي: الرسول .. حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة، مصر.

١٠٣. راغب السرجاني: روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية، نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.

١٠٤. رجاء جارودي: وعود الإسلام، ترجمة: د. طوقان قرقوط، دار الرقي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

١٠٥. رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، دار القارئ العربي، مصر، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٤م.

١٠٦. ر. ف. بودلي: الرسول حياة محمد، ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة.

١٠٧. ريتشارد كوك وكريس سميث: انتحار الغرب، ترجمة: محمد محمود التوبة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

١٠٨. الزبيدي، أبو الفيض محمد عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.

١٠٩. الزبير بن بكار: الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م

١١٠. الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

١١١. زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧١م.

١١٢. زيجريد هونكه: الله ليس كذلك، ترجمة د. غريب محمد غريب، دار الشروق، الطبعة الثانية - القاهرة، مصر، ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

١١٣. زيجريد هونكه: شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار صادر، الطبعة العاشرة، بيروت، ٢٠٠٢م.

١١٤. سراج الدين الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

١١٥. السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠ م.

١١٦. سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا العصور الوسطى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.

١١٧. سيد حسين العفاني: شذا الرياحين من سيرة واستشهاد أحمد ياسين، مكتبة آفاق، غزة، فلسطين، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

١١٨. سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١١٩. السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث العربي، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.

١٢٠. شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق: تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، ٢٠٠٠م.

١٢١. الشوكاني: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: محمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

١٢٢. الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تصحيح وضبط: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٢٣. صالح السنوسي: إشكالية المجتمع المدني العربي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠١٢م.

١٢٤. صلاح سلطان: الأسرة آلام وآمال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، البحرين، جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ. (نسخة إلكترونية من موقع الشيخ (www.salahsultan.com

١٢٥. صمويل هنتنجتون: صدام الحضارات .. إعادة صنع النظام العالمي، دار سطور للنشر، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

١٢٦. الصنعاني: سبل السلام، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٣٧٩هـ = ١٩٦٠م.

١٢٧. الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٢٨. الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

١٢٩. الطبري: تاريخ الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.

١٣٠. الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

١٣١. الطحاوي: شرح مشكل الآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

١٣٢. عبد الباسط عبد المعطي: اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٤.

١٣٣. عبد الوهاب المسيري: الأيديولوجية الصهيونية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٦٠.

١٣٤. عبد الوهاب المسيري: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

١٣٥. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الرابعة، فبراير ٢٠٠٩م.

١٣٦. العجلي: تاريخ الثقات، دار الباز، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.

١٣٧. العز بن عبد السلام: تفسير القرآن، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

١٣٨. علي الصلابي: الدولة الأموية، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.

١٣٩. علي الصلابي: السيرة النبوية، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

١٤٠. علي الصلابي: دولة المرابطين، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.

١٤١. علي عزت بيجوفيتش: الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة: د. محمد يوسف عدس، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية، ٢٠١٣م.

١٤٢. الغزالي: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.

١٤٣. فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.

١٤٤. القاسمي: محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م.

١٤٥. القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النبوة، دار المصطفى، القاهرة.

١٤٦. القرافي: الذخيرة، تحقيق محمد حجي، دار الغرب - بيروت، ١٩٩٤م.

١٤٧. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

١٤٨. لوي كارديـاك: الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون؛ المجابهة الجدلية، ترجمة: د. عبد الجليل التميمي، منشورات المجلة التاريخية المغربية وديوان للمطبوعات الجامعية، تونس، ١٩٨٣م.

١٤٩. ماريا لويزا برنيري: المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٢٥.

١٥٠. الماوردي: أدب الدنيا والدين، دار ومكتبة الحياة، ١٩٨٦م.

١٥١. الماوردي: الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة.

١٥٢. مايكل كوك: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفكر الإسلامي، ترجمة: د. السيد رضوان وآخرين، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

١٥٣. مايكل هارت: الخالدون مائة أعظمهم محمد، ترجمة أنيس منصور، المكتب المصري الحديث، الطبعة السادسة، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٥٤. مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٥٦١، جمادى الأولى ١٤٣٣هـ.

١٥٥. مجلة الوعي الإسلامي، العدد، ٥٤٢، شوال ١٤٣١هـ.

١٥٦. مجموعة: الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت، الطبعة الأولى، مطابع دار الصفوة - مصر.

١٥٧. محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٥٩م.

١٥٨. محمد الغزالي: فقه السيرة، خرج أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، ٢٠٠٠م.

١٥٩. محمد إلهامي: التأمل.. كيف تصل إلى اليقين، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

١٦٠. محمد إلهامي: العباسيون الأقوياء، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١١م.

١٦١. محمد بن أبي بكر الرازي: تحفة الملوك، ، تحقيق د. عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤١٧ هـ.

١٦٢. محمد بن أحمد الصالح: الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

١٦٣. محمد جلال كشك: السعوديون والحل الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

١٦٤. محمد جلال كشك: رسالة التوحيد، العدد (١)، نوفمبر ١٩٨٥م. ص٣٥.

١٦٥. محمد رشيد رضا: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠م.

١٦٦. محمد طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

١٦٧. محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٢٨.

١٦٨. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن، تعريب وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، دار البحوث العلمية.

١٦٩. محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

١٧٠. محمد عبده: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٧١. محمد عمارة: الغزو الفكري وهم أم حقيقة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية، الأزهر الشريف.

١٧٢. محمد فريد: تاريخ الدولة العلية، تحقيق: د. إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

١٧٣. محمد قطب: جاهلية القرن العشرين، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية عشرة، ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

١٧٤. محمد قطب: قبسات من الرسول، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

١٧٥. محمد قطب: منهج التربية الإسلامية، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة عشرة، ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

١٧٦. محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة السابعة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٤م.

١٧٧. مدونة المؤرخ http://melhamy.blogspot.com

١٧٨. المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.

١٧٩. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.

١٨٠. مصطفى كامل: أوراق مصطفى كامل، تحقيق: د. يواقيم رزق مرقص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.

١٨١. منذر قحف: الوقف الإسلامي: تطوره، إدارته، تنميته، دار الفكر، الطبعة الثانية - دمشق، ١٤٢٧هـ=٢٠٠٦م.

١٨٢. موقع المعهد الوطني لرعاية إدمان الكحوليات gov.nih.niaaa.www

١٨٣. موقع قناة الجزيرة الفضائية .netwww.aljazeera

١٨٤. موقع: www.nationmaster.com

١٨٥. موقع: المجلة العلمية الأمريكيةwww.scientificamerican.com

١٨٦. موقع: الموسوعة الحرة «ويكيبيديا» www.wikipedia.org

١٨٧. موقع: الموسوعة الحرة للجرائم www.wikicrimes.org

١٨٨. موقع: اليونيسيف www.unicef.org

١٨٩. موقع: خرائط العالم www.mapsofworld.com

١٩٠. موقع: سي إن إن العربية www.cnnarabic.com

١٩١. موقع: صحيفة لوفيجارو الفرنسية www.lefigaro.fr.

١٩٢. موقع: صيد الفوائد www.saaid.net

١٩٣. موقع: منظمة هيومان رايتس ووتش www.hrw.org

١٩٤. مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمة حسين أحمد أمين، مكتبة مدبولي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

١٩٥. مونتسكيو: روح الشرائع، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١١م.

١٩٦. الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

١٩٧. ناعوم تشومسكي: النظام العالمي القديم والجديد، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، طبعة مكتبة الأسرة، ٢٠١٠م.

١٩٨. النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ.

١٩٩. الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر.

٢٠٠. نظام الدين البلخي وجماعة من علماء الهند: الفتاوى الهندية في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.

٢٠١. النفراوي: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، دار الفكر – بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ.

٢٠٢. نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها، دار نشر الثقافة، الإسكندرية، مصر، الطبعة الأولى ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م.

٢٠٣. نورينا هيرتس: السيطرة الصامتة.. الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية، ترجمة: صدقي حطاب، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٣٦.

٢٠٤. النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

٢٠٥. نيتشه: هكذا تكلم زرادشت، ترجمة: فليكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، مصر، ١٩٣٨.

٢٠٦. النيسابوري: إيجاز البيان عن معاني القرآن، تحقيق: د. حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٠٧. هالة أبو الفتوح: فلسفة الأخلاق والسياسة .. المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس، دار قباء، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٢٠٨. هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ترجمة أحمد فتحي زغلول، قدمه وعلق عليه د. محمود النجيري، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى – الجيزة، مصر، ٢٠٠٨م.

٢٠٩. هورست أفهيلد: اقتصاد يغدق فقرا، ترجمة: د. عدنان عباس علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣٣٥.

٢١٠. الهيثمي: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

٢١١. الواحدي: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم - دمشق، الدار الشامية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

٢١٢. ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة مجموعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١م.

٢١٣. ول ديورانت: قصة الفلسفة، ترجمة د. فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت - لبنان، ١٩٦٠م.

٢١٤. يوسف القرضاوي: رعاية البيئة في شريعة الإسلام، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.

يونيسيف: تقرير الأطفال في عالم حضري، (٢٠١٢م).

تم بحمد الله